مختارات من روائع شكسبير

الجزء الثاني

تلخيص

شارل وماري لام

تقديم

د. خالد محمد غازي

الكتاب: مختارات من روائع شكسبير (الجزء الثاني)
الكاتب: شارل وماري لام.
تقديم: د. خالد محمد غازي
الطبعة: ٢٠٢٢

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم –
الجيزة - جمهورية مصر العربية
هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

لام، شارل. لام، ماري
مختارات من روائع شكسبير(الجزء الثاني)/ شارل وماري لام, تقديم:
د. خالد محمد غازي
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
٢١٩ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولى: ١ – ٤٨٣ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع: ٧٤٥٥ / ٢٠٢٢

مختارات من روائع شكسبير

الجزء الثاني

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

تقديم

ويليام شكسبير.. أعظم كاتب في اللغة الإنجليزية

"قلم الكاتب مقدس مثل دم الشهيد"،

" الغيرة وحش ذو عيون خضراء"،

"إذا أحببتها فلن تستطيع أن تراها.. لماذا؟ لأن الحب أعمى.."،

" أكون أو لا أكون تلك هى المسألة"..

" ليسَ كلّ ما يلمع ذهباً "..

" أن تكون الكلّ والنهاية"..

"الشك دائماً ما يسكن العقل الآثم"..

"الذئب ما كان ليكون ذئباً لو لم تكن الخراف خرافاً"..

"البعض ترفعه الخطيئة، والبعض تسقطه الفضيلة"..

"يموت الجبناء مرات عديدة قبل أن يأتي أجلهم، أما الشجعان فيذوقون الموت مرة واحدة."..

" إنّ الحزن الصامت يهمس في القلب حتى يحطمه".

." البؤساء لا دواء لهم إلّا الأمل."..

" لا تلعب بمشاعر الآخرين لأنك قد تربح اللعبة لكن الخطر أن تخسر هذا الشخص مدى الحياة."

عبارات قالها الكاتب الانجليزي الفذ ويليام شكسبير، ولازلنا نتذكرها حتى اليوم، فقد أثرت في نفوس القراء وتشكلت في وجدان كل من يحبون قراءة الأدب الإنجليزي.

ويصنف شكسبير كأعظم كاتب في اللغة الإنجليزية، فهو كاتب مسرحي وشاعر، أطلق عليه "شاعر الوطنية" و "شاعر آفون الملحمي".. ترجمت مسرحياته إلى معظم اللغات المعروفة، ووجدت أعماله طريقها إلى المسارح وشاشات السينما والتلفزيون مرات ومرات، وعرفت قراءات نقدية وفلسفية، بما قل أن تشهد مثله أعمال أديب آخر.

ولا يمكن مقارنة الشهرة التي اكتسبها أي كاتب آخر بشهرة شكسبير عالمياً على كافة المستويات، فقد دخل إلى جميع الثقافات والمجتمعات الأدبية والفنية والمسرحية في كل بلدان العالم.

كانت أمه ماري آردن، من أسرة عريقة في ووروكشير وابنة لأحد ملاكي الأراضي الكبار. وقدمت إلى جون شكسبير، ابن مستأجر أرض والدها، صداقاً ضخماً نقداً وأرضاً (حسب عادات تلك الحقبة)، ولم يكن وليام هو الابن البكر، بل كان له أختان أكبر منه، ولكنهما ماتتا في سن مبكرة. ثم أعقب أبوه ثلاثة أخوة له هم أدموند وجلبرت ورتشارد.

ولد وليم شكسبير في «ستراتفورد ابون أفون»، بإنجلترا، تاريخ ميلاده غير معلوم بدقة، حيث تم تعميده فى ٢٦ أبريل ١٥٦٤، لم يكن أي من الوالدين يتصور، وهو ينظر إلى الوليد في مهده الخشبي، أن ذلك الطفل مقدر له أن يقدم إلى الشعر والمسرحية في العالم مواهب خارقة، وأن المسرحيات التي قدر له أن يكتبها ستكون لا تزال تعرض بعد أربعمائة عام من ذلك التاريخ، ليس في موطنه وحده فحسب وإنما في بقاع المعمورة.

كان الكثير من الأطفال، في ذلك الزمان، يموتون. وهذا ما حدث فعلا لأختي شكسبير الكبيرتين. لكن وليم الطفل كتبت له الحياة رغم وباء الطاعون الذي انتشر في إنجلترا في السنة التي ولد فيها. كان أبوه "جون" رجلا ناجحا ومن رجال الأعمال الأثرياء الناجحين في ستراتفورد على نهر الآفون، وكان مسئولاً عن الأمن، وعضواً في مجلس المدينة.

يتحدث وليم شكسبير في مسرحية "كما تهوى" على لسان شخصية من شخصياته عن "التلميذ ذي الوجه الصبوح، الذي يحمل محفظة كتبه ويمشي إلى مدرسته شاكياً، بطيئا كالحلزون". لعله كان في تلك الكلمات يصور نفسه أيام كان يذهب إلى مدرسة ستراتفورد، ويبدو أن وضع أسرته الرفيع كان يحتم عليه الذهاب إلى المدرسة والتزود بحصيلة جيدة من اللغات القديمة.، يقول عنه صديقه بن جونسن، وهو كاتب مسرحي مشهور أيضا، وكان من المعجبين به أشد الإعجاب: "تعلم القليل من اللاتينية وأقل من القليل من اليونانية القديمة."

كان لوليم في أيام الدراسة فرص عديدة لمشاهدة المسرحيات ومقابلة بعض الفرق التمثيلية الجوالة، وبخاصة تلك التي هربت من لندن حينما انتشر وباء الطاعون. على أنه كان في البلدة فرق مسرحية محلية، تجوب البلدات الصغيرة وكانت بلدة ستراتفورد تحتفل بأعياد خاصة فتشارك الفرق المسرحية في الاحتفال بعرض المسرحيات.

ويبدو أن هذه الطفولة التي عاشها شكسبير قد بذرت في نفسه حب المسرح. وهو الحب الذي قدر له أن تنمو موهبته نموا رائعا حين انتقل إلى لندن.

ولما بلغ شكسبير الثالثة عشرة من عمره بدأت ثروة أبيه في النضوب والتدهور حتى اضطر إلى بيع أغلب ما يمتلكه، ومن ثم توقف شكسبير عن إتمام دراسته.

لا نعرف كيف كان شكسبير يكسب معيشته في سنواته الأولى.. لعله كان يساعد أباه في تجارته أو لعله عمل بعض الوقت مدرسا. ويحتمل أنه عمل في مكتب محام مما ساعده على التقاط العديد من المصطلحات القانونية المبثوثة في مسرحياته، على أن ظروفه كائنة ما كانت لم تحل دون زواجه من ابنة مزارع وكانت تكبره بثماني سنوات اسمها "آن هاتواي"، وأقام هو وعروسه مع والديه، كما كانت العادة في ذلك الزمان، وأنجب منها ثلاثة أطفال، ابنته سوزانا، ثم توأمان: صبي أسماه هامنت، وبنت أسماها جودث.، كما يذكر المؤرخون أنه هجر عائلته بعد أعوام قليلة.

نزح وليم إلى لندن عام ١٥٩٢، وقام بحراسة الخيل أمام أبواب المسارح، فقد كانت العادة في ذلك العصر أن يقبل بعض الناس على المسارح وهم يمتطون ظهور الخيل، ويسلموها إلى المشتغلين بحراستها، كما نعهد اليوم بسياراتنا إلى "المنادي" أو " السايس ".

وأدى به الوقوف أمام المسارح إلى حب المسرح وهواية التمثيل، فهجر حراسة الخيل، وبدأ يشترك في التمثيل، وقام في بادئ الأمر بتمثيل أدوار صغيرة. وكان في ذلك الوقت يبلغ الثامنة والعشرين من عمره، فبدأ يعالج إصلاح بعض المسرحيات، ويقوم بالتمثيل ويكتب ويقتبس المسرحيات. وفي عام ١٥٩٢ أصبح عضوا معروفا في فريق اللورد تشامبرلين،حين افتتحت المسارح عام ١٥٩٤ وقد اشتغل بالتمثيل في هذه الفرقة كما كان كاتبا مسرحيا لها إلى نهاية حياته الفنية، فيقول أوبري: "لقد كان شكسبير ممثلا مجيدا بارعا".

كان في لندن، عند وصول شكسبير إليها، ثلاثة مسارح فقط، وكان الناس ينظرون إلى الممثلين تظرتهم إلى محتالين متشردين، إلا إذا كان أولئك الممثلون يعملون تحت رعاية أحد النبلاء وفي حمايته. الملكة إليزابث نفسها كانت ترعى

فريقا من هؤلاء الممثلين. أما المتزمتون الدينيون فكانو يعتبرون الممثلين أشرارا وخطاة، ويعملون كل ما في وسعهم لإزعاجهم ومنعهم من التمثيل. تجار المدينة الأثرياء كانوا أيضا يحتقرونهم، ويحتجون على الفظاظة التي يبديها جمهور المشاهدين أحيانا، لذا فقد أقيمت المسارح وازدهرت جنوبي النهر، بعيدا عن المدينة، ونمت شعبيتها نموا شديدا مع جمهور العهد الإليزابيثي (ويقصد به ذلك العصر المرتبط بحكم الملكة دودي (١٥٥٨م–١٦٠٣م)، وينظر إلى هذه الفترة كأحد العصور الذهبية في تاريخ إنجلترا. كان هذا العصر هو ذروة مرحلة النهضة الإنجليزية وشهد ازدهارا كبيرا في الشعر والموسيقى والأدب. كان هذا أيضا هو العصر الذي ازدهر فيه المسرح الإليزابيثى).

وفي هذا الوقت أنشأ صداقة مع اثنين من الممثلين المشهورين، هما إدورد ألن الذي أسس كلية دالتش، وريتشارد بوربج. لقد أسس ريتشارد وأخوه كاثبرت في العام ١٥٩٩ "مسرح جلوب" جنوبي النهر، غير بعيد عن "حديقة الدباب". وأسهم شكسبير في هذا المشروع، هو وعدد من الممثلين المشهورين. وفي هذا المسرح مثلت أكثر مسرحياته.

وعندما اعتلى الملك جيمس عرش بريطانيا وضع هذه الفرقة تحت رعايته وأصبحت تسمى ب"رجال الملك"وكانت من أكثر الفرق التمثيلية التي تمثل في القصور الملكية.وظلت الفرقة تعمل في لندن من صيف عام ١٥٩٤ حتى مارس عام ١٦٠٣ وقامت برحلة طافت في خلالها بكثير من البلدان في خريف عام ١٥٩٧ حين أغلقت مسارح لندن لفترة قصيرة من الزمن بسبب تدخل بعض الممثلين في الشئون السياسية.وفي عام ١٦٠٣ تفشى الطاعون في لندن للمرة الثانية فقامت الفرقة برحلة أخرى.

ويذكر أن شكسبير كان يكتب مسرحيتين تقريبا كل عام لهذه الفرقة، وإن

كانت سرعته قد بلغت أقصاها في أيام افتتاح التمثيل.

لغز الاسم

شكسبير Shakespeare هو الاسم المتداول والمعروف لعائلة وليم، لكن المفاجأة أن هذا اللفظ وهذه التهجئة ليسا أمراً مؤكداً، فالمصادر التاريخية أوردت نحو ثمانين صيغة مختلفة لاسم شكسبير، فيها اختلاف بين بعضها نطقاً وكتابة.

المهتمون بهذا الشأن ذكروا مما تم توثيقه من صيغ اسم Shakespeare الألفاظ التالية Shappere، Shaxberd، Shakspere، Shaksper، Shaxxper، Shaxpur، Shappere، وغير ذلك الكثير.

شكسبير في لوحات الرسامين

بعض الملامح التي يبدو بها شكسبير من خلال ما رسم له من لوحات خلال حياته، أنه أصلع، لحية كثيفة، وقرط ذهبي في إحدى الأذنين! إلاّ أن الجزم بصحتها غير ممكن، لأنه من غير المعروف إلى أي حد من الدقة التزم هؤلاء الرسامون بتصوير شكل شكسبير الحقيقي، كما لا يمكن الجزم بأن شكسبير كان أصلاً قد وقف أمام هذا الرسام أو ذاك عند إنجاز لوحته. ورغم ذلك، فإن الشكل العام الذي يبدو به متوافق مع عصره، بما في ذلك الحلق الذهبي في الأذن، الذي كان من أشكال الزينة التي عرفها الرجال في ذلك العصر.

ومن الطريف أن هناك من يجادل بأن شكسبير من أصل عربي خالص، ومن القائلين بهذا الرأي نقاد وأكاديميون، يرى الناقد السورى د.كمال أبو ديب فى كتابه "سونيتات" أو "تواشيح وليم شكسبير" أن وليم شيكسبر سورى الأصل وهو من قرية صغيرة مجاورة لبلدة "صافيتا" السورية، واسمه الحقيقى "الشيخ زبير".

واقترح " أبو ديب" أن يتم بحث حول المادة المتعلقة بمنطقة البحر المتوسط وبشكل خاص المنطقة العربية فى أعمال شكسبير، مثلاً تدور مسرحية انطونيو وكليوبترا فى مصر، ومسرحية بريكلس حول أمير فى سوريا، وتاجر البندقية فى ايطاليا، وروميو وجولييت فيها، وعطيل وهى شخصية عربية.

وأكد أبو ديب قوله بمجموعة من الدراسات حول اسم " شكسبير " حيث بين في كتابه ان اسم " شكسيبر " مؤلف من قسمين وان له أكثر من طريقة في الكتابة كالتالي:

Shackesper- Shaxpur – Shaxper – Shaxxper – Shaksper - Shak-Sper - Shax-pur

وأوضح " أي أن الاسم كان منقسماً إلى اثنين أو مركباً من اثنين ولقد ظهرت الصيغة المنقسمة أو المركبة هذه (لكن بالصيغة المألوفة للاسم) على صفحة عنوان الكوارتو حين نشر عام ١٦٠٩، كما يقول المؤلف أن رجلاً اسمه (جون شكسبر) تزوج من أسرة نبيلة فقام المشرف على ألقاب النبلاء بتغيير اسمه إلى شكسبير (وصار هذا الرجل طبعاً والد شكسبر) غير أن شكسبير نفسه الشاعر ظل يكتب اسمه بالطريقة السابقة حتى حين رحل إلى لندن ليعمل في المسرح، ثم تغيرت طريقة كتابة الاسم مع الزمن.

وتساءل:"هل كان أمرا عادياً فى إنجلترا فى القرن (١٦)، وقبل بناء الإمبراطورية، أن يملك شاعر إنجليزى كل هذا القدر من المعرفة عن هذه المناطق النائية من العالم؟! ويهتم بها كل هذا الاهتمام ويستخدمها فى شعره ومسرحه الموجهين إلى جمهور إنجليزى يعيش فى جزيرة بعيدة معزولة يغطيها الضباب، حديثة العهد نسبياً بالخروج من أغوار القرون الوسطى؟

ويؤيد وجهة النظر السابقة د. صفاء خلوصي، حيث يرى أن وليم شكسبير

ليس إنجليزيا بل إن جذوره تمتد إلى الشرق وأن والده أو جده من أهالى البصرة واسمه (الشيخ زبير)!! لأن كلمة شكسبير ليس لها معنى فى اللغة الإنجليزية ومعجماتها !! أما إذا فصلنا بين كلمة (شك ـ سبير) فسيصبح المعنى هزاز الرمح إلا إن الكلمة المدمجة (شكسبير) هى التى عرف بها لفظا وكتابة.

ويستدل باحثون نوبيون أن لفظ شكسبير إنما هو منحوت من (شيخ زبير)، حيث تم تحويره في اللغة الإنجليزية إلى شكسبير. وأن هذا اللقب الحقيقى لعائلة شكسبير حينما كانوا بمنطقة بلاد النوبة فى مصر قبل هجرتهم إلى انجلترا.

نتاج شكسبير المسرحي

ويمكن تقسيم نتاج شكسبير المسرحي إلى ثلاثة أنواع رئيسة هي: المأساة التراجيدية والملهاة الكوميدية والمسرحيات التاريخية.. وعلى سبيل المثال:

من أعماله التراجيدية: (روميو وجولييت، ماكبث، الملك لير، هاملت، عطيل، يوليوس قيصر، أنطونيو وكليوباترا) تدور موضوع مسرحية "هاملت" حول الانتقام والقتل والجنون، ويدور مسرحية "ماكبث" أيضا حول القتل، وشبح بانكو والساحرات الشريرات المشؤومات، وفي مسرحية "عطيل" يقتل الزوج زوجته دزدمونة بصورة وحشية، وتروي مسرحية "الملك لير" قصة الجنون والموت. وفي مسرحية "روميو وجولييت" يموت المحبان موتا مأساويا، وفي مسرحية "أنطونيو وكليوباترة" تقتل البطلة نفسها. قد يبدو من ذلك كله أن تلك المسرحيات تقوم على سفك الدماء والعنف فقط. غير أن فيها، بالاضافة إلى ما تقدمه للجمهور من حب لمشاهد الدماء والعنف، شعرا رائعا وموسيقى ساحرة تمثل العصر الإليزابيثي خير تمثيل.

ويرى نقاد مسرحيون أن النقطة الغالبة على أعماله، هى أن أشد المآسي

قسوة لا تخلو من لحظات تزخر بالهزل المكشوف، حيث يصور الحياة التي تنبض في صوت مكتوم على توقيع العواطف والشهوات، والمتناقضات، بلغة تتسم أحيانا بالغرابة، وأحيانا أخرى بالعاطفة.وبالتالي أكسبت أعماله طابع المأساة التراجيدية.

وقد اعتمد في مسرحه وشعره على العواطف والأحاسيس الإنسانية، مما عزز من عالميته واستمراريته. فأبطال مسرحياته المأسوية شخصيات تتميز بالنبل والعظمة والعواطف الإنسانية، وتؤثر في الجمهور والقراء أينما كانوا ولاتزال الشخصيات الكوميدية تضحك الجمهور لما في تصويرها من ذكاء ودقة وفكاهة. وتترك شخصياته النسائية، مثل كليوباترا وجولييت والليدي ماكبث وروزالند وبورشيا وبياتريس وميراندا، أكبر الأثر عند القراء وجمهور المسرح والسينما أينما كانوا.

ومن أعماله الملهاة الكوميدية:(حلم ليلة صيف، الأمور بخواتمها، تاجر البندقية، جعجعة بلا طحن، ترويض النمرة، كوميديا الأخطاء، العاصفة، كما تهوى، الليلة الثانية عشرة)،و تذخر هذه المسرحيات بروح الكوميدية، وتحفل بالأغاني التي تعبر عن جو تلك المسرحيات، وأغاني حب، وأغان تصور الأحراش والريف. وهنا ينهل شكسبير من ذكريات طفولته التي عاشها في مناطق ساحرة. وتكمن براعته في القصص المثيرة التي يستخدمها، والمخزون الغني من الأشخاص التي يمتزج فيها الخير والشر والعاطفة والعقل، واللغة الشعرية البليغة، والبراعة في التلاعب بالكلمات والألفاظ.

ومن المسرحيات التاريخية التي قدمها:(الملك جون، ريتشارد الثاني، هنري الرابع).وقد اعتمد في مادته التاريخية على كتاب هولنشد عن تاريخ إنجلترا، الذي نشر في العام١٥٨٧، وفيه الكثير من الحقائق التاريخية التي يحتاج إليها. فقد

تمكن، بموهبته الشعرية الفائقة، من تحويل تلك المادة الجافة إلى شعر رائع يجري في مسرحياته كلها، وكأنه شريان نابض بالحياة. لقد أحس شكسبير بشعور العزة الوطنية ذاك وشرع في إرضائه بكتابة المسرحيات التاريخية. وكان أن عرفت هذه المسرحيات، في آخر المطاف، بخلفيات العصر الإليزابيثي العظيم كلها، من أيام الملك جون وحتى هنري الثامن

كما كتب عددًا من المسرحيات التي يصعب إدراجها ضمن هذه التصنيفات المألوفة، واعتاد النقاد إطلاق صفة "المسرحية الرومانسية" أو "التراجيكوميدية" عليها. ويذكر الدارسون مما لم يصل إلينا من أعمال شكسبير: إدوارد الثالث، سير توماس مور، كاردينيو، الحب مجهود رابح.

ولما لم يكن العنصر النسائي يشارك في التمثيل (المرأة لم تدخل عالم التمثيل المسرحي إلا بعد عودة الملكية مع شارل الثاني في العام ١٦٦٠)، فقد كان الفتيان يقومون بالأدوار النسائية،. وكان جمهور العصر الإليزابيثي يستمتع بمشاهد الشخصيات المتنكرة، والمفارقة النابعة من رؤية فتى يقوم بدور امرأة ثم تقتضيه أحداث المسرحية إلى التنكر في زي رجل، كما يحدث في العديد من المسرحيات الكوميدية.

يقول د. مُحَمَّد عناني والذي ترجم نحو ترجم٢٢ مسرحية من أعمال شكسبير إلي اللغة العربية: إن أكثر الملامح التي تدهشك من شكسبير هي إلمامه التام باللغة في زمن لم تكن قد ظهرت فيه المعاجم, إذ إن أول عمل معجمي للناطقين باللغة الإنجليزية قد قام به ناظر المدرسة روبرت كودري في عام١٦٠٤ ورغم نشر بعض رسائل النحو في أيام شكسبير فإن كتب النحو بالشكل الذي نراه اليوم– لم تظهر حتي بداية القرن الثامن عشر– وبذلك يتضح أنه لم يقم أحد بدراسة لغته في عصره.

ورغم ذلك فإن قاموس أكسفورد يعترف بأنه يدين لشكسبير بنحو٣٠٠٠ كلمة في اللغة الإنجليزية، منها١٧٠٠ كلمة دخلت اللغة لأول مرة. فعدد المفردات التي تضمنتها أعماله يصل إلى١٧ ألف كلمة. ويصف الباحثون في لغة شكسبير مقدرته الخارقة علي استخدام المفردات بالقول إنه كان قادرا علي استخدام ما يربو علي٧٠٠٠ كلمة دون الحاجة إلي تكرار أي منها.

وتبتعد اللغة الإنجليزية التي كتب بها شكسبير عن اللغة التي يتحدث بها أهلها اليوم مسافة جيل لغوي واحد. فرغم أن لهجة العصر الإليزابيثي تختلف اختلافا طفيفا عن اللغة الإنجليزية الحديثة, فإن المبادئ العامة تكاد تكون واحدة. فهناك بعض الشواذ في استخدامه حروف الجر، وعدم اتفاق الفعل مع فاعله, ناهيك عن تغير بعض معاني كلمات شكسبير, أو اختفائها مع مرور الزمن. وكان ترتيب الكلمات داخل الجملة, مع انتقال اللغة الإنجليزية من المرحلة الوسطي إلي الحديثة, أكثر مرونة مما هو عليه اليوم، كما كان شكسبير يكتب شعرا دراميا لا نثرا مما أعطاه حرية أكبر في التعبير.

هذه السهولة في استخدامه اللغة، فضلا عن الفن الذي استخدمها به, جعلت شكسبير قريبا منا اليوم كما كان قريبا من قرائه في عصره. ولا يستطيع أحد أن ينكر أن شكسبير لعب دورا كبيرا في تحول اللغة الإنجليزية وانتقالها من مرحلة إلي أخري. ففي الوقت الذي كان يكتب فيه مسرحياته, لم يكن عمر اللغة الإنجليزية الحديثة قد تجاوز مائة عام. فلم تكن المعاجم قد ظهرت وكانت معظم الوثائق تكتب باللغة اللاتينية.

أصالة شكسبير

وهناك فرضيات تشكك في أصالة بعض ما كتبه شكسبير من أعمال خالدة، ويغذي أطروحات التشكيك والتساؤلات قلة المصادر والوثائق التاريخية حول

سيرته، فقد نسبت بعض المسرحيات الشهيرة إلى شخصيات، استخدمت شكسبير كاسم أدبي منذ القرن الثامن عشر الميلادي. ومن بين هذه الشخصيات: الكاتب والفيلسوف فرانسيس بيكون والشاعر والكاتب المسرحي كريستوفر مارلو والكونت إدوارد دي فيري، الأديب وأحد أعضاء حاشية الملكة إليزابيث.

يقول الأديب الكبير عباس محمود العقاد في كتابه " التعريف بشكسبير ": بدأ الشك في نسبة الروايات قبل ظهور طبعتها الثانية في سنة ١٦٣٢؛ لأن حصر هذه الروايات في طبعتها الأولى قد فتح الباب لمراجعة العارفين بها، فاستدركوا ما سقط منها وما أُضِيف إليها من غيرها، على حسب علمهم بمصادرها، وربما كان منهم من عرف اسم الرواية ولم يشهد تمثيلها، فالتبس عليه الأمر بين الروايات التي ألفها شكسبير بهذا الاسم وبين الروايات التي سبقتها بأقلام المجهولين أو لمذكورين.

ومن وجهة نظر العقاد: على وجاهة الملاحظات التي توجب هذه الفروض عند نخبة من جلة النقاد، يظل أناس من حذاق القراء مترددين في تسليم هذه الشكوك يعللون الملاحظات أو المفارقات بالعلل الطبيعية التي تعرض للعبقرية في أطوار نموها بين عهد البواكير وعهد النضج والاستواء، ولا يصعب عليهم أن ينسبوا تلك المفارقات إلى قلم واحد في فترة واحدة؛ لأن العبقرية لم تسلم قط من تفاوت النتاج في العمل الواحد، ولا من الإسفاف الذي يقابل الارتفاع النادر ويلازمه في آثار العباقرة من أرفع الطبقات.

ومن أذكى هؤلاء القراء الحذاق وليام بليس **Bliss** صاحب كتاب «شكسبير الحق» أو الرد على الشراح، وهو يقول في الفصل الأول منه: إن الشراح لم يتفقوا على سطر يجوز أن يُنسَب إلى شكسبير ولا على سطر لا يجوز أن يُنسَب إليه،

وإن الشاعر لا يؤلف الجيد من كلامه دون الرديء، وإن رديء الروايات المشكوك فيها أشبه برديء شكسبير منه برديء مارلو، وإن عيوب الموضوع أحيانًا تسوق الشاعر إلى عيوب لا فكاك منها ولا حيلة له فيها.

ويضيف العقاد: وصفوة آراء هذا القارئ الحاذق في كتاب زاد على ثلاثمائة صفحة أن شكسبير كتب كل قطعة تبناها، وأنه لا ينفرد بما لُوحِظ عليه من التفاوت في أدوار نموه ولا في دور واحد من حياته، بل يكاد كل مؤلف عظيم أن يخرج منه ثلاثة مؤلفين أو أربعة إذا فصلنا بين أجود ما فيه وأردأ ما فيه وبين وحي التحليق والإلهام من عمله ووحي الهبوط والتكلف المكدود."

ولاشك أن الخلاف على أصالة شكسبير أو الاتهامات الموجهة إليه وإلى نصوصة هو خلاف ليس بالجديد، إنما هو خلاف متجدد حول فروض وآراء سابقة، أنها احتوت كلاما أو نصوصا لغيره نسبها إلى نفسه أو نسبت إليه من آخرين ربما كان الغاية منها التقليل أو النيل من عبقريته الفذة، لكن ربما يكون الخطأ المنطقي – بحكم تقادم الزمن – يلقى على عاتق جامعي رواياته ومسرحياته وأشعاره، فتعرضت لبعض التنقيح أو الاضافات لمناسبة عرضها أو ترجمتها إلى لغات أخرى غير الانجليزية أو تداولها من جديد، وهذا أمر وارد منذ القدم في جمع الأعمال الأدبية والشعرية، فربما نسب بيت شعر لشاعر ليس بقائله أو قصيدة نسبت لغير شاعرها.. لكن تبقى أعمال شكسبير ككيان كلي بما فيها زلل أو خطأ يدل على عبقرية وتفرد كاتبها في الأداء والتعبير والخط الابداعي العام لمسيرته.

أيقونة الوداع

بلغ شكسبير في العام ١٦١١ أوج مجده. فقد قدم، خلال الأربع والعشرين سنة التي قضاها في لندن، نتاجا مذهلا. كتب ستا وثلاثين مسرحية، وقصيدتين

قصصيتين طويلتين، ومئة وخمسين مقطوعة شعرية غنائية، وقصائد أخرى. وكان، إلى جانب ذلك كله، يمثل ويسهم في إدارة"مسرح جلوب"، ثم مسرح "بلاك فرايرز" بعد احتراق "مسرح جلوب".

واختار شكسبير، وهو في الخمسين من عمره، أن يتقاعد فقلائل أولئك الذين كانوا، في ذلك الزمان، يعيشون إلى سن الستين. كانت أعمال شكسبير الرائعة قد درت عليه مالا كثيرا، وأنعم على أسرته في العام ١٥٩٦ بشعار النبالة، غير أن المسرة لم تكتمل فقد مات في ذلك العام ابنه الوحيد هامنت.

اشترى شكسبير في العام ١٥٩٧ "نيوبليس" منزلا جديدا، وكان أفخم منازل ستراتفورد. وقد اشترى أملاكا أخرى في لندن. وكان طوال تلك السنين يتردد على ستراتفورد كلما أتيح له الوقت. وبعد أن كتب مسرحية "العاصفة" الحافلة بالشعر البديع والأغاني الساحرة، رأى أنه آن له أن يرتاح في "نيوبليس" إلى آخر أيامه. بقي شكسبير على اتصال بأصدقائه في لندن، وكانوا يزورونه في بلدته.

وقد كتب شكسبير وصيته في ٢٥ مارس عام ١٦١٦ أي قبل وفاته بقرابة شهر، وترك جانبا من ثروته لأبنته جوديت وأختها جوان وبعض التذكارات لأصدقاء له، ولكنه أوصى بضيعته كلها لأبنته سوزانا هول، وكانت هذه الضيعة تدر دخلا كبيرا في ذلك العصر.

استمر شكسبير في التأليف حتى أيامه الأخيرة، بل إنه كتب مقطعاً شعرياً بعد أن أدرك أن منيته قد حانت، حين تدهورت صحته سريعاً بعد أن سقط متأثراً بالشرب في إحدى الليالي، فيما قيل إنه مات بعد أن عانى من «حُمّى تيفودية». وقد كان لهذه الكلمات غاية مهمة، إذ أراد شكسبير أن يحمي بها قبره من النبش والنهب، كما كان شائعاً في تلك العصور، ويبدو أن ما كتبه شكسبير ونقش على

شاهد قبره قد أتى بالنتيجة المرجوة.

«مبارك هو من يحفظ لي حجارة قبري، ملعون هو من يعبث بعظامي».

توفي شكسبير يوم الثلاثاء، في الثالث والعشرين من نيسان (أبريل) من عام ١٦١٦. بعد أن عاش ٥٢ عاماً، ألف فيها الكثير من الأعمال الأدبية، وصلنا منها ثمان وثلاثون مسرحية، ومئة وأربع وخمسون «سوناتا»، إضافة إلى قصيدتين روائيتين طويلتين.والسوناتات مقاطع شعرية اشتهر بها، وكتبها في مواضيع مختلفة من الحب إلى السياسة، ويستعار لها أحياناً مصطلح الموشحات.

ودفن شكسبير بعد يومين من وفاته في الكنيسة التي عرفها صغيرا. ونقش على ضريحه ما يأتي:

أيها الصديق الصالح،

لا تنبش تراب هذا الضريح!

مبارك من يحافظ على هذه الحجارة،

وملعون من يحرك عظامي!

ولم يفعل أحد ذلك!

في تلك الكنيسة أيضا نصب فريد لشكسبير، يتألف من تمثال نصفي للشاعر في محراب ذي قنطرة وأعمدة رخام. ويبدو الشاعر وكأنه يهم أن يكتب بريشته شيئا من شعره الخالد. ونقش في أسفل النصب:

تمهل أيها العابر، لم العجلة؟

اقرأ اسم من أسكنه الموت الحاسد هذا المكان.

إنه شكسبير الذي مات بموته الطبع المتألق.

في اسم شكسبير زينة لهذا الضريح لا تقدر بثمن،

لأنه في كل ما كتب جعل من الفن الأصيل له عبدا.

ولعل خير ما قيل في شكسبير بعد موته الكلمة التي قالها صديقه وزميله في كتابه المسرحيات، بن جونسن، وفيها: "لم يكن لسان عصره فحسب، بل لسان كل العصور!" يا لها من كلمة صادقة!

وتوجد مقولة شهيرة لرئيس وزراء بريطانيا ونستون تشرشل. «لو خيرونا بين التخلي عن كل مستعمراتنا، وبين مؤلفات شكسبير، لاحتفظنا بما تركه شكسبير»..

تضم الكنيسة التي تظهر في الصفحة المقابلة ضريح شكسبير. ومن المحفوظات الفريدة في تلك الكنيسة السجل الذي يضم السجلات المتعلقة بشكسبير وأسرته.ويظهر في إحدى الصور دار البلدية والمدرسة ومأوى الفقراء. وليس في السجل تاريخ دخول شكسبير المدرسة، وفي مكان ولادته ترى مقعدا من مقاعد التلاميذ يعود إلى ذلك التاريخ. والمدرسة نفسها،أسست في نهاية القرن الثالث عشر، ثم أعاد تأسيسها الملك إدورد السادس في العام ١٥٥٣.

د. خالد محمد غازي

هاملت

ترملت الملكة جرترود ملكة الدنمارك بوفاة زوجها الملك هاملت. ولم يكد ينقضي على وفاة الملك زوجها شهران حتى كانت قد تزوجت من شقيقه كلوديوس. ونظر الناس جميعا على عادتهم في ذلك الزمان إلى إقدام الملكة على ذلك السلوك نظرة الاستغراب لتبجحها وتبلد شعورها. بل إنهم اتهموها بما هو أسوأ من هذا كله. فزوجها الجديد كلوديوس لم يشبه أخاه زوجها الراحل في صفات العقل ولا في وسامة الشكل. بل كان بغيض المنظر كما كان وضيع النفس حقير التفكير.

ونبتت في رءوس الناس الشكوك أن هذا الأخ هو الذي عمل في السر على انتزاع حياة أخيه قبل أوانها المقدور، بقصد الزواج من أرملته والارتقاء إلى عرش الدنمارك، مقصيا بذلك عنه الأمير الصغير هاملت ابن الملك الراحل والوريث الشرعي للعرش.

* * *

ومهما يكن من مدى هذه الشكوك التي أثارها سلوك الملكة الطائش قبل أن يجف قبر زوجها، فإنها لم تؤثر في نفس أحد من الناس كما تركت أثرها العميق في نفس الأمير الصغير الذي كان يحب ذكرى أبيه الراحل ويجلها إجلالا يكاد يبلغ حد التقديس والعبادة.

وكان هاملت فتى كريم النفس لديه إحساس مرهف بالشرف وحرص دقيق على النزاهة والاستقامة. فحز في قلبه هذا المسلك الأرعن من أمه الملكة

جرترود. فاجتمع عليه ألم فجيعتين: فجيعته بموت أبيه وفجيعته بعار أمه وخزيه من زواجها الجامح. فأثر ذلك تأثيره الشديد على وجدان الفتى الغض، ففاض بالكآبة والمرارة. وتلاشى مرحه كما تلاشت بشاشة وجهه ونضرة منظره.

ولعل أبلغ ما يدل على مدى تغير حاله أن هذا الأمير الشاب الذي عهدوه حليف قراءة ما في بطون كتب، سئم عادته تلك وعاف الصحف والأوراق. وعجزت أنواع الرياضة التي تليق بالأمراء وتفتنهم على ظهور الخيل للصيد في الغابات والأحراش أن تلهيه أو تجتذب خاطره. فشب على سأم الدنيا. تلك الدنيا التي بدت له حديقة وحشية لم تهذبها يد البستاني فأغارت عليها الحشائش السامة وخنقت فيها الورد والأزهار، فتفردت بالنمو فيها الأشواك والحشرات.

* * *

ولم يكن أكثر ما يثقل على نفس الأمير الفتى ما حيل بينه وبين ارتقاء العرش بحق ميراثه الشرعي، وإن كان هذا الجرح العميق لكبرياء أمير شاب لا يفتأ يقطر حقدا وغيظا. وإنما كان أشد ما يألم له هاملت ما أظهرته أمه من تناس لذكرى أبيه. ويا له من أب! لقد كان زوجا شديد الحب شديد الرفق! وكانت هي تبدو له أطوع الزوجات وأشدهن تعلقا وأعمهن حبا. وكانت تتعلق به وتتطلع إليه كأنما قلبها لا ينبض إلا بحبه ووجدانها لا يعيش إلا على قربه!

والآن.. ولم ينقض على موته شهران، ها هي ذي قد تزوجت من سواه ولم تجف بعد منه الأجفان. وتزوجت من أخيه فبلدت فراش مأتمه فراش عرس ولم تفارق ذلك الفراش بعد حرارة عناق الراحل لها في ليالي الوجد والصفاء!

إنه زواج يحمل على جبينه وصمة عاره ودليل إجرامه! فهو زواج يدينه الشرع وتحول دونه قرب آصرة القرابة. ويزيد من وقاحته وفحشه ذلك التعجل المريب المستهتر بعقده. ويزيد من قبحه ما يتصف به الزوج الجديد الذي تخيرته

ليشاركها عرشها وفراشها من صفات الوضاعة التي تناقض ما عرف عن الملوك وما ينتظر منهم من المهابة والآنفة والشهامة.

كانت هذه البلية أشد وطأة على الأمير الفتى هاملت من فقد عشرة تيجان ومن الحرمان من عشرة ممالك. فهي ليست فجيعة في سلطة أو نعمة. فذلك وحده كان حريا على جسامته أن يهون. وإنما يتجاوز البلاء ذلك المدى كله إلى الفجيعة في مبادئ الأخلاق وأركان السريرة ومقومات المنطق، فتلبدت آفاق نفس الفتى هاملت بالسحائب السوداء التي تنذر بالعواصف. فالعواصف لغة الطبيعة حين تغضب وتهم أن تمحق الأوضاع السائدة حين تجافي قوانينها السامية وحكمتها المستقرة.

وعبثا ذهبت كل محاولات أمه الملكة جرترود أو عمه الملك للترفيه عنه أو اجتذاب قلبه إليهما. فظل شخصه الشاب وسط أفراح البلاط أشبه بتمثال من السواد والحداد، لأنه كان يصر على ارتداء السواد القاتم من رأسه إلى قدمه حزنا على أبيه ورفض أن يخلعه حتى ولا مجاملة لأمه في يوم عرسها ولم يستطع أحد حمله على الانضمام لأية وليمة أو مظهر من مظاهر الابتهاج في ذلك اليوم المشئوم في نظره.

وكان أكبر ما يشغل باله ويقض مضجعه هو شكه في الطريقة التي مات بها أبوه. فالرواية التي أعلنها شقيقه كلوديوس للملأ أن ثعبانا تسلل إلى الملك وهو في البستان فلدغه. أما الفتى هاملت فكانت تراوده شكوك أخرى تصور كلوديوس نفسه في صورة ذلك الثعبان. وبعبارة صريحة أن الشقيق كلوديوس قتل شقيقه الملك هاملت طمعاً في تاجه وعلى أثر علاقة أثيمة مع الملكة زوجته. فكان الثعبان الذي لدغ والد هاملت هو الذي يجلس –على حسب اعتقاده– فوق عرشه وينام في فراشه!

وجل متاعب الفتى هاملت آتية من هذا المصدر، فهو لا يفتأ فريسة للريب والظنون. ولا يدري هل هو مصيب في فروضه وتخيلاته. ولا يعلم بوجه اليقين أي رأي ينبغي أن يراه في والدته. وإلى أي حد كان لها ضلع في قتله. وهل تم ذلك القتل بعلمها ورضاها. أم أنها فوجئت به مثل سائر الناس؟

وسرت بين الناس شائعة وصلت إلى سمع الفتى هاملت أن شبحا يظهر في الليل على صورة والده الملك الراحل بالضبط. وقد شاهد جنود الحرس الليلي ذلك الشبح على الإفريز الأمامي للقصر عند منتصف الليل في ثلاث ليال متوالية.

وكان الشبح يظهر في كل هذه المرات. وقد ارتدى شكته المدرعة التي كان الملك الراحل مشهورا بارتدائها. وشهد الذين رأوا الشبح. وفيهم صديق هاملت الحميم هوراشيو، بصحة تلك الرؤيا. وأن الشبح يظهر بالضبط عندما تدق الساعة دقتها الثانية عشرة. وإن هذا الشبح يبدو شاحبا ينم وجهه عن الحزن والآسى أكثر مما ينم عن الغضب. وأن لحيته كانت صفراء مفضضة بالشيب كعهدهم بها في مدة حياته.

وكان مما شهدوا به أيضا أن هذا الشبح لم يكن يرد عليهم جوابا حين يخاطبونه. ولكنه في مرة واحدة خيل إليهم أنه رفع رأسه كمن يهم بالكلام. فلما أرهفوا الآذان إذا بديك الصباح يطلق في تلك اللحظة صياحه المعهود. فأجل الشبح وابتعد مسرعا ثم اختفى عن أنظارهم من غير أن يتكلم.

وأدرك الفتى هاملت بعد هذه الروايات الغريبة المتفقة في أطرافها جملة وتفصيلا بما لا يدع مجالا لتكذيبها، أن هذا الشبح هو شبح والده. وأنه يظهر في قصره لأمر ما.

وقرر الأمير الشاب أن يسهر للحراسة مع الجند في تلك الليلة حتى تتاح له فرصة مشاهدة ذلك الشبح. وهو معتقد تمام الاعتقاد أن الشبح لا يظهر اعتباطا بل لسبب لابد له أن يستجليه. والأغلب أن الشبح يريد أن يفضي بشيء معين عسى أن يكون سر مقتله. فمن المتوقع أن يفضي إليه هو بالسر. وراح هاملت ينتظر الليل بصبر نافذ.

* * *

فلما أقبل الليل اتخذ له مكانا مع صديقه هوراشيو ومع جندي من جنود الحراسة اسمه مارسيلوس في الموضع الذي قيل له أن الشبح يظهر فيه عند انتصاف الليل ويتمشى بين الحراس.

ولما كانت تلك الليلة من ليالي الشتاء التي تميزت برياحها الباردة الشديدة الوطأة، فقد أخذ هاملت يتحدث مع زميله عن برودة الجو في تلك الليلة إلى أن قطع هوراشيو ذلك الحديث فجأة معلنا بصوت مرتجف أن الشبح ظهر.

وما إن بصر هاملت بروح أبيه أمامه حتى أصيب في مفاجأة الدهشة بخوف شديد. وراح يستصرخ الملائكة وجنود السماء أن تحميه وزميله، لأنه لا يدري هل هذا الروح شرير أم خير. ولسوء جاء أم لإحسان؟ بيد أنه لم يلبث أن استرد شجاعته شيئاً فشيئا.

وخيل إليه عندما ملك جأشه قليلا أن أباه كان ينظر إليه في شيء كثير من إشفاق، وكأنه متشوق أن يكلمه. وبدا الشبح شديد الشبه بأبيه عندما كان على قيد الحياة. حتى أن الفتى هاملت لم يستطع أن يملك نفسه من مخاطبته باسمه:

– هاملت! ملكي! أبي!

وناشده أن يخبره لماذا ترك مثواه في قبره حيث وسدوه بكل راحة وإكرام، كي

يأتي ليزور الأرض وضياء القمر. وتعهد له أن يبلغ أي رسالة له إن كان يطلب شيئا معينا لتستقر روحه في سلام.

وأومأ الشبح إلى هاملت أن يذهب معه إلى مكان منعزل ينفردان فيه وحدهما. وهب هوراشيو ومارسيلوس يمنعان الفتى هاملت أن يتبع الشبح، لأنهما خشيا أن يكون من الأرواح الشريرة فيغرر به ويستدرجه إلى البحر القريب، أو إلى قمة صخرة رهيبة. وهناك يتخذ الروح الشرير صورة مرعبة تخرج الأمير الشاب عن عقله.

ولم تفد محاولات هذين الزميلين في أثناء الفتى هاملت عن تصميمه. فهو لا يأبه كثيرا بالحياة ولا يسعد بها. فلا يعنيه أن يفقدها ولا يخيفه ذلك. وأما روحه فهو لا يخشى عليها من شيء. ولم تستطيع قوى الشر أن تسيء إليها، لأن روحه عنصر خالد لا يجوز عليه الفناء!

بل إن هاملت شعر في تلك اللحظة وكأن له جسارة الأسود، فتملص من صاحبيه مع تشبثهما العنيف به، ثم تبع الشبح وفي عزمه أن يتبعه إلى أي مكان يقوده إليه.

ولما صار بمعزل هتك الشبح حجاب الصمت لأول مرة، وأخبره أنه حقا شبح أبيه هاملت الكبير الذي قتل قتلة بشعة. وذكر له كيف وقع عليه ذلك البلاء. فأخوه كلوديوس عم الأمير الصغير هو الذي اقترف الجريمة. وبذلك صدق ما تخيله الفتى. وكان الدافع على الجريمة أن يخلف شقيقه الملك الشرعي في تاج ملكه وفراش زوجته.

كان الملك هاملت غافيا في بستان قصره كعادته بعد ظهر كل يوم. وإذا بهذا الأخ الغادر يتسلل إليه في منامه ويصب في أذنيه قارورة السم الزعاف الذي

أعد إعدادا خاصا كي يسري خلسة في العروق فيجمد الدم وينشر على سطح الجلد طفحا أشبه بالبهاق.

وعلى هذه الصورة الغادرة قطع الملك هاملت عن تاجه وملكته وحياته. وناشد الشبخ الأمير الفتى إن كان يحب أباه ويجل ذكراه. أن ينتقم لمصرعه انتقاما عادلا..

ثم أظهر الشبح توجعه وتفجعه لإقدام أمه على تمزيق ثوب عفتها حتى اجترأت على إظهار خيانتها لزوجها الأول فتزوجت قاتله وهي تعلم أنه قاتله..

بيد أن الشبح حذر هاملت الفتى أشد التحذير من الاندفاع بعد الانتقام من عمه الشرير إلى ارتكاب أي عنف ضد أمه. بل ينبغي أن يترك حسابها لمن بيده ملك السماء، ولأشواك الضمير التي تتقلب عليها كلما ضمها الفراش.

وتعهد هاملت أن ينفذ إرشادات الشبح من جميع الوجوه بكل دقة وحرص. وعندئذ اختفى الشبح في الهواء!

ولما أمسى الفتى هاملت وحده استولت عليه حالة غريبة، فصمم على قرار خطير، هو أن يخلي ذهنه من كل ما وعته ذاكرته سواء مما كان في بطون الكتب أو مما حصله بالملاحظة والمشاهدة. لأن ذهنه كله يجب أن ينصرف إلى استيعاب ما أوصاه الشبح به، وما أفضى به إليه، وما ناشده أن يقدم عليه.

ولم يبح الفتى هاملت لأحد بتفاصيل ما دار بينه وبين الشبح من حديث. اللهم إلا لصديقه العزيز هوراشيو. كما استحلف هوراشيو ومارسيلوس أن يصونا سرية ما شاهداه في تلك الليلة من ظهور الشبح له فلا يخبرا بذلك إنسانا.

والحق أن الرعب الذي سببه ظهور الشبح لحواس الفتى هاملت، والأثر الذي تركه في أعصابه، تلك الأعصاب التي كانت ضعيفة أصلاً، تسبب في

اختلال عقله إلى أن أتمت جنونه وأفقدته ملكة التمييز والاتزان.

وخشي هاملت على نفسه أن يستمر ذلك الأثر فلا يفارقه. فيكون هذا مدعاة لمراقبته في حركاته وسكناته، والاسترابة به وتوجسه منه أن فطن إلى تدبيره أي شيء ضده أو أن الفتى يعرف حقيقة جنايته ضد أبيه على خلاف ما كان أذاعه كلوديوس من بيان عن تلك الوفاة. فقرر هاملت شيئا غريبا. قرر أن يتظاهر بالجنون التام حتى لا يكترث أحدا لما يقول أو يفعل. ولا تؤخذ نظراته النارية لعمه أو أمه مأخذ الجد ولا تؤول التأويل الصحيح. فإن الجنون المطبق هو خير قناع يستتر به ما يدور في أعماق دماغه.

وشرع الفتى هاملت يتظاهر بغرابة الأطوار، وبنزوات من الشذوذ في الملبس والكلام والحركات. وأجاد تمثيل الخيال تمثيلا لم يكلف كثيرا، لأن نوازع الاضطراب الفوارة في أعماقه كانت خير مساعد له على الاضطراب والثوران.

وانخداع الملك والملكة، ولما لم يعتقدا أن حزن الفتى الشديد على موت أبيه هو السبب الحقيقي لذلك الاختلال العقلي، لأنهما كانا لا يعرفان شيئا عن ظهور شبح أبيه، جنحا إلى الاعتقاد أن جنونه جنون حب. واطمأنا إلى ذلك التعليل.

والحقيقة أن هاملت كان قبل ظهور الكآبة عليه والشرود مفتونا يهوى فتاة حسناء اسمها أوفيليا. ابنة بولونيوس كبير مستشاري الملك في الشئون السياسية.

وكان هاملت قد أرسل إلى فاتنته الكثير من الرسائل والخواتم. وأظهر لها حبه بمختلف الوسائل. وأحاطها برعايتها وعواطفه الصادقة في حدود الشرف والطهارة. فصدقت الفتاة عهوده ووعوده وبادلته بحبه حبا وبتعلقه تعلقا.

فلما أصيب هاملت بالكآبة والحزن والشرود أهمل أمرها. ومنذ اللحظة التي قرر فيها أن يتصنع الجنون التام تعمد أن يعاملها بقسوة وفظاظة. ولكن الفتاة

النبيلة لم تحقد عليه لهذا السبب وإنما أخذتها به الشفقة. لاعتقادها أن ذلك من تأثير المرض وليس عن غلظة فطرية فيه. فمرضه هو الذي يدفعه إلى ما لا يوافق طبعه. وينسيه ما كان يلتزمه نحوها من قبل.

ومضت أوفيليا في إقناع نفسها بهذا الرأي حتى قارنت سابق حاله معها في عهد الصفاء والمودة بحاضر أمره في حال الخشونة والفظاظة. وشبهت ذلك بالأجراء الفضية النغمات حين تدق دقا محكما متناسقا. حتى إذا دقت بعنف وبغير تناسق كانت رناتها شيئا بغيضا على السمع. لا عن عيب في الأجراس. بل العيب كله في اليد التي تحركها، عن جهل أو رعونة.

ومع أن المهمة العسيرة التي آلى هاملت على نفسه أن ينهض بها وهي الانتقام لمقتل أبيه لا يمكن أن تتفق مع ما في حياة الغزل والحب من لهو وخفة. أو ما في حياة التشبيب والعشق من مرح وإقبال على الحياة كما خيل إليه. إلا أن طيف أوفيليا الجميلة كان لا يفتأ يلم به ويقوم بينه وبين خواطره السوداء فيرق قلبه لفتاته رقة لا يستطيع مغالبتها.

وفي مرة من تلك المرات تجسم في خاطره ما يأخذ به هذه العذراء الرقيقة الطاهرة من خشونة تتجاوز المعقول وليس لها سبب أو مبرر. فجلس وكتب إليها خطابا حافلا بعبارات الهيام الملتهبة، في لفظ جامح. تعمد أن يجعله متمشيا مع ما يتصنعه من الجنون. ولكنه مزجه بشيء من العواطف اللطيفة الحالمة. كي تكشف لفتاته النبيلة عن عمق محبته لها المستقرة في أعماق فؤاده.. كتب:

– لك يا أوفيليا أن تشكي في أن النجوم متوجهة. وفي أن الشمس متحركة، وفي أن الصدق ما هو إلا الكذب والبهتان. ولكن ليس لك أن تشكي في حبي، لأنه أكد من ذلك كله...

وجرى الخطاب على هذا النسق. فلما تسلمته أوفيليا وجدت من واجبها وهي الفتاة المهذبة الطاهرة أن تطلع أباها عليه. ووجد الوزير العجوز من واجبه وهو رجل البلاط العتيد أن يطلع الملك والملكة على ذلك الخطاب. ومنذ تلك اللحظة وهما يعتقدان أن حب الفتى هاملت للحسناء أوفيليا هو السر الكامن وراء جنونه وغرابة أطواره. وخامر الملكة الأمل أن تتمكن أوفيليا بوداعتها وجمالها من رد العقل إلى ابنها، فتنتهي بهذا مشكلة الأسرة المالكة.

ولكن علة هاملت كانت أعمق مما خالت الملكة. وأشد استعصاء على العلاج مما توهمت. فشبح أبيه الذي ظهر له في تلك الليلة، لبث يراود مخيلته. ولم يترك له قسمه بالانتقام لمقتله راحة، ولن يترك له راحة إلى أن يبر بذلك القسم الرهيب.

إن كل لحظة تمضي في التسويف والتأجيل كانت تبدو له إثما وجرما، وانتهاكا لوصية أبيه القاطعة. ولكن كيف السبيل إلى تدبير قتل الملك وهو محاط على الدوام بالجنود الكثيرة والحرس المتيقظ الشاكي السلاح أن ذلك يبدو أمرا عسيرا. وحتى لو كان أمرا يسيرا، فوجود الملكة والدة هاملت في صحبة الملك على الدوام عقبه تحول دون التنفيذ وتزيغ بصره وتشتت ذهنه وتفت في عضده.

ولا ينبغي أن ننسى أن قرابة مغتصب العرش منه، فهو عمه، ونسبه القريب، فهو زوج أمه، كان يرده عن إتمام ضربته إشفاقا مما يصيب تلك الأم من ألم الفجيعة، رغم ما اقترفته من إثم وخيانة وما ركبته به من عار وخزي.

كانت عملية القتل نفسه تبدو لذلك المرهف الحس شيئا كريها بشعا، لأنها تحرم من الحياة زميلا في صفة الإنسانية. فحالة الكآبة وحساسية الضمير جعلت ذلك الفتى المحزون كثير التردد لا يستقر على حاله، ولا يمضي فيما عزم عليه إلى نهاية الشوط.

ومع هذا كله، فدواعي الشك تتخذ عنده أحيانا أسلحة قوية لتقعده عن العمل. فمن يدريه أن الروح الذي ظهر له هو حقا روح أبيه وليس خدعة من خدع الشيطان. فالشيطان مشهور باقتداره على تقمص أية صورة من صور البشر. فليس مستحيلا أن يكون قد اتخذ صورة أبيه الراحل ليستغل ضعفه وحزنه وشكوكه، فيدفعه إلى عمل فظيع مثل جريمة القتل.

وأخيراً قرر هاملت ألا يقدم على ضربته الخطيرة إلا بعد أن يتأكد بصورة قاطعة من الحقيقة، ولا يبني مثل ذلك الفعل الخطير على مجرد رؤيا لعلها أن تكون خداعا أو وهما.

وفي فترة هذا الشك والتذبذب حضر إلى البلاط جوق من الممثلين كان الأمير هاملت يسر بمشاهدتهم فيما مضى. ولاسيما حين يصغي لواحد منهم يلقي قطعة مؤثرة من تراجيديا تصف موت الملك بريام ملك طروادة، وحزن الملكة هيكيبة عليه.

وأسرع هاملت يرحب بأصدقائه القدامى من الممثلين. ولما تذكر ما كانت تحدثه لديه تلك المقطوعة من نشوة وسرور طلب من الممثل أن يعيدها أمامه. فلبى الممثل رغبته ببراعة تامة. وأدى تلك القطعة أداء نابضا بالحياة، مبرزا تلك الغيلة البشعة لذلك الملك الشيخ الواهن العظم. وتشتت شعبه ودمار مدينته بالحريق، والحزن الجنوني الذي أصيبت به ملكته العجوز، فراحت تجري حافية القدمين في أرجاء القصر، وعلى رأسها الذي كان يتزين بالتاج فيما مضى خرقة حقيرة. ولا يستر حقوها إلا ملاءة أخذتها على عجل لتتقي بها أنظار الناس وهي التي طالما اختالت في الأرجوان الملكي وطيالسه الجرارة.

وطفرت الدموع إلى عيني الأمير هاملت وإلى عيون الواقفين جميعا الذين خيل إليهم أن تلك الحوادث تجري فعلا أمام أعينهم. بل أن الممثل نفسه اندمج

في أداء دوره فغض بدموعه وشرق بزفراته.

وفتح هذا المنظر أمام هاملت أبواب التفكير. فلئن كان هذا الممثل من رقة الإحساس وسلطان المخيلة بحيث ينتحب باكيا على رجل لم تره عينه أبدا. ومن أجل ملكة عجوز طوى الموت شخصها منذ مئات ومئات من السنين. فكيف يتبلد إحساسه هو، ولديه دافع حقيقي حي للحزن والانفعال. فقتيله هو أبوه وملكه الحق. فلا شك أن وجدانه أصيب بالفتور ولا يمكن أن يقاس بوجدان هذا الممثل ومن بكوا معه ومادام انتقامه لأبيه ظل مطويا في غفلة النسيان أو الإهمال حتى اليوم.

واستطرد به التفكير في موضوع التمثيل والممثلين، إلى التمعن في مدى التأثير العميق الذي يستطيعه التمثيل المتقن الذي يجعل الكلمات واقعا حيا يهز المشاهد ويستولي على وجدان.

وتذكر قصة ذلك القاتل الذي خفي أمره على الناس إلى أن شاهد يوما تمثيل جريمة قتل. ووجد الحوادث شديدة الشبه بجريمته فكأنما انتفضت جريمته من حفرة الماضي حية أمام عينيه. فلم يستطع مقاومة تأثيرها على أعصابه وصرخ معترفا بالجريمة التي اقترفها.

وفي الحال خطر له أن يصنع شيئاً كهذا. فقرر أن يقوم هؤلاء الممثلون بتمثيل رواية صغيرة يعدها لهم عن مقتل أبيه كما تصوره. ويؤدي الممثلون هذا المنظر أمام عمه. ويرقب هو عن كثب تأثير ذلك في كلوديوس. ومن ملامحه يمكنه أن يعرف بوجه اليقين إن كان عمه هو الذي قتل أباه حقا أم لا.

وفعلا أمر هاملت بإعداد رواية على هذا النسق وأشرف بنفسه على توزيع أدوارها وتنفيذ تفاصيلها. ثم دعا الملك والملكة لمشاهدتها.

وقصة هذه الرواية تتخذ مسرحا مفتعلا لها هو مدينة فيينا، حيث يتم قتل الدوق حاكمها. وجعل هاملت اسم الدوق جونزاجو. وجعل اسم زوجته الدوقة باتستا. وفي هذه الرواية يظهر قريب مقرب من الدوق اسمه لوفيانوس فينتهز فرصة نوم قريبه الدوق جونزاجو في بستان ضيعته بعد الظهر ويصب السم في أذنه خلسة. ثم تبين الرواية كيف أن هذا القاتل الأثيم استطاع في أيام معدودة أن يستثير شهوات زوجة الدوق المقتول فيتزوجها غير مبالية قبل أن يجف قبر زوجها.

وكان الملك كلوديوس خالي الذهن من ذلك الفخ الذي نصبه له الفتى هاملت،ولهذا حضر التمثيل عن طيب خاطر هو والملكة وسائر وجهاء البلاط. وجلس هاملت بالقرب من الملك لا يحول عينيه عنه ممعنا النظر في ملامح سحنته.

وبدأت الرواية بحوار بين جونزاجو وزوجته. أظهرت فيه الزوجة المخادعة لزوجها الدوق الطيب كل محبة وهيام. وأقسمت له بكل مقدس أنها لن تتزوج من بعده إن حكمت السماء عليها حكمها القاسي أن تعمر أكثر منه. وأكدت له أنه ما من امرأة تزوجت بعد زوجها الأول إلا وهي فاجرة سعت إلى قتل ذلك الروح كي تلحق بعشيق لها.

ولاحظ هاملت الملك عمه أربد لونه عند تلك العبارة. لأن وقعها عليه وعلى الملكة كان أشبه بطعن الخناجر.

ولكن عندما ظهر في الرواية لوفيانوس وهو يقدم على دس السم لجونزاجو النائم في بستانه. كان هذا التشابه الغريب بين حادثة الرواية وجريمة الملك المغتصب ضد أخيه أقوى من احتمال كلوديوس فلم يستطع أن يبقى بعد ذلك ونهض متصنعا المرض. أو لعله أحس المرض فعلا من فزعه ونادى بالمشاعل

ليذهب إلى حجرته وغادر المسرح.

وبمجرد انصراف الملك أمر هاملت بإيقاف التمثيل،لأنه لم يعد بحاجة إلى مزيد منه بعد أن رأى البرهان الكافي على أن ظهور روح أبيه له وحديثه إليه لم يكن خرافة ولا وهما من أحابيل الشيطان.

واستولى لهذا اليقين المر فرح شديد على نفس هاملت، لخروجه من تخبط الشك إلى قرار اليقين. وراح يقسم لهوراشيو أن أقوال الشبح له صارت مؤكدة لا ريب فيها.ولكن قبل أن يستقر رأيه على نوع الانتقام ووسائله مادام قد تيقن أن عمه هو قاتل أبيه، إذا بوالدته الملكة وقد أرسلت تدعوه إلى مقابلتها على انفراد في حجرتها الخاصة.

وكان السبب الذي حدا بالملكة أن ترسل في طلب هاملت، هو أن الملك كلفها أن تبلغه ما انطوى عليه سلوكه بإعداد هذه الرواية بالذات من مجافاة للذوق السليم أثارت استياءهما.

ولما كان الملك حريصا أن يعرف تفاصيل ما يدور بين الملكة وابنها في تلك الخلوة. وما عسى أن يفلت من بين شفتي الفتى من كلام خطير قد تكتمه الملكة عنه، فقد أمر بولونيوس كبير المستشارين أن يكمن مختفيا وراء بعض الستائر في حجرة جلالة الملكة كي يسجل كل ما يسمعه ويبلغه إليه.

وكان اختيار بولونيوس لتلك المهمة عن قصد. فالرجل من طراز رجال البلاط القدامى الذين يهمهم أن يحيطوا بجميع الأسرار ويفضلون لذلك الوسائل غير المباشرة.ولما دخل هاملت على والدته أخذت أمه توبخه بشدة على شذوذ أعماله في المدة الأخيرة ولاسيما في تلك الليلة ثم قالت:

– لقد أسأت إساءة بالغة إلى أبيك.

وكانت تعني بطبيعة الحال عمه الملك الذي صار زوج أمه. وكانت الملكة تنتظر من هاملت أن يدعوه بعد زواجه منها وبسبب ذلك الزواج أباه. ويحله في الظاهر على الأقل محل أبيه.

وأظهر هاملت على الفور استنكاره الشديد لأن أمه تجاسرت فأضفت مثل هذا اللقب الكريم الجليل على مسخ سافل ليس في الحقيقة إلا المجرم الذي قتل أباه. وقال لها بحدة:

– بل أنت يا أماه التي أسأت حقا إلى أبي.

– إن هذا رد ملتو.

– لا يصلح للرد على كلامك الملتوي سواه.

– أتراك نسيت من هي التي تكلمها هكذا؟

– واها لي! ليتني استطيع أن أنسى! فأنت الملكة. أنت هي زوجة أخي زوجها. أنت هي أمي. ليتك لم تكوني من أنت!

– ما دمت لا تظهر لي إلا هذا القدر الهزيل من الاحترام والاعتبار. فسألجأ إلى من يستطيعون أن يخاطبوك كما ينبغي.

وهمت كي ترسل إليه الملك أو بولونيوس. ولكن هاملت لم يدعها تنصرف وقد ظفر بها بمفردها، وعزم أن يلقي عليها من قوارع الكلم ما عساه أن يردها إلى الشعور بما في حياتها من سوء واعوجاج فقبض على معصميها بعنف وأكرهها على الجلوس.

واستولى الفزع عليها من اندفاعه وحدته، وخشيت أن يصيبها بمكروه وهو في نوبة جنونه. فصرخت، وإذا بهاملت يسمع من وراء الستار صوتا يصيح:

– النجدة! أدركوا الملكة!

فسبق إلى ظن هاملت أن هذا المختبئ وراء الستار هو الملك نفسه. فجرد هاملت سيفه وطعن الموضع الذي صدر منه الصوت من فوق الستار كأنما يطعن فأرا قدر وجوده في ذلك المكان. إلى أن كف الصوت. فاستنتج أن الرجل قد مات.

ولما جذب الجثة وكشف عنها الستار، وجد القتيل ليس الملك غريمه، بل بولونيوس المستشار المسن الذي كان يتجسس على حديثه مع أمه.

– ويحي! ما هذا الفعل الأحمق الإجرامي الذي أقدمت عليه؟

– بل إنه لفعل أحمق، دام حقا يا أماه. ولكنه لا يبلغ من السوء والشر مبلغ فعالك التي قتلت ملكا وتزوجت أخاه.

ووجد هاملت أن اندفع إلى مدى لا يستطيع معه أن يتوقف فعليه الآن أن يواجه أمه برأيه الصريح الواضح. وهذا ما مضى فيه غير متريث. ولئن كانت أخطاء الآباء والأمهات ينبغي أن يعرض لها أبناؤهم إن كان لابد لهم أن يعرضوا لها في رفق شديد. إلا أنه حين تبلغ الأخطاء مرتبة الجرائم الجسام والكبائر العظام فمن حق الأبناء أن يرخوا لأنفسهم العنان يتحدثون حتى لأمهاتهم في شيء من الغلظة والجفوة. فالغلظة حينئذ يراد بها خير الأم، وتبعثها الغيرة عليها، عسى أن تنقلب من سوء فعلها إلى ما يحسن به مالها وتحمد سيرتها.

وذلك ما انتهجه هذا الأمير الفتى الذي تأدبت نفسه بالفضائل وتهذبت بمثل الأخلاق ومبادئها. فراح يخاطب أمه الملكة بعبارات نارية تصور لها ذميم فعلتها حين تناسب الملك الراحل أباه وسمحت لنفسها بعد أمد جد قصير أن تتزوج أخاه الذي اشتهر بين الناس أنه قتله وذلك منها نكث للعهد الذي آلته

على نفسها نحو زوجها الأول. وأنه لنكث يكفي لإهدار كل قيمة لعهود النساء، والتشكيك في كل قدر لعفافهن وصلاحهن، فلا يكون شيء من ذلك لديهن إلا اعتبر نفاقاً وخداعا ورياء. ولا تكون عقود الزواج التي يرتبطن بها إلا أحبولة أو قناعا. ولا يكون دينهن إلا سخرية أو مهزلة أو محض كلمات تتلى على الأسماع ليس لها معنى وليس وراءها تقوى.

ولم يتردد في أن يبين لها بجلاء أن فعلتها أحمر لها وجه السماء خجلا، واعتلت لها بطن الأرض غثيانا. ثم وضع أمام عينيها صورتين، أولهما صورة والده الملك الراحل زوجها الأول. والأخرى صورة الملك الراهن زوجها الثاني. وناشدها أن تدرك ما بين الصورتين من فرق جسيم.

– أي وسامة مهيبة تتبدى على جبين أبي الوضاح، فكأنه إله من أرباب الأولمب الأمجاد... انظري! أليست تلك خصلات أبولو؟ أليست هذه جبهة جوبيتير؟ وعين مارس؟ وهذه الوقفة أليست هي بعينها إشراقة عطارد وقد تبدي في كل مجده ثاقبا متوهجا فوق قمة جبل يلثم السماء! إن هذا الرجل يا سيدتي كان زوجك!

ثم وضع أمامها الصورة الثانية التي تمثل الرجل الذي استبدلت به رجلها الأول:

– ألا ترينه كالسم أو كالآفة؟ ولولا ذاك لما قضى بطبعه الوخيم وفعله اللئيم على ذلك البهاء النادر الذي كان أخاه!

وغلت مراجل غيظ الملكة وخزيها لأن ابنها وجه أنظارها إلى أعماق سريرتها فبدت لها سوداء كالحة شوهاء، واستطرد هاملت:

– وإني لأسألك يا سيدتي كيف يمكن أن تثابري على الحياة مع هذا الرجل،

زوجة للذي قتل زوجك الأول، واختلس التاج بالزور والبهتان كشيمة اللصوص؟

وبينما هو يتكلم إلى أمه بهذه اللجهة كأنه صوت الدينونة يوم الحساب، إذا بشبح أبيه على الصورة التي كان بها في حياته، كما تراءى له وحدثه في منتصف الليل، وقد دخل الحجرة..

واستولى الرعب الشديد على هاملت وراح يسأل الشبح أي شيء يبتغي ليقدمه إليه بلا تردد. فأجابه الشبح أنه ما جاء إلا ليذكره بالثأر الذي وعده به. والذي يبدو أن الفتى هاملت نسيه وانصرف بجملته لعتاب أمه. وأن عليه أن يلتفت الآن إلى أمه فيحدثها ليخرجها من الفزع الشديد الذي كاد يقضي عليها. ثم اختفى الشبح، وكان في الحقيقة لم يظهر ولم يتحدث إلا إلى هاملت.

ولم يستطع هاملت أن يفسر لأمه كلامه الذي خاطب به شبح أبيه، لأنها لم تره. وإشارته إلى الوضع الذي يقف فيه لم تفد في إظهاره لعينيها. وإنما أخذها الفزع لأنها رأت ابنها يخاطب الهواء فحسبته في نوبة من نوبات مسه وخبله.

ولكن هاملت طلب إليها ألا تتملق خطاياها وتعزو حسابه الصادق لها إلى أوهام وساوسه وخزعبلات جنونه. فخطاياها التي لا سبيل لها إلى محوها بالتجاهل هي التي بعثت روح أبيه من قبرها، ولم تبعثها من قبرها خيالات جنونه المزعوم وقال:

– خذي هذا معصمي، حسسي نبضي، ترينه رتيبا منتظما وليس مضطربا كنبض المجانين!

وتوسل إليها بدمع مدرار أن تتوجه إلى السماء بقلب خالص فتعترف بخطاياها السابقة، وتتجنب في مستقبل حياتها معاشرة الملك وصحبته، ولا تعتبر نفسها زوجته بعد ذلك. حتى إذا أصبحت جديرة بأمومته، فعندئذ سيجلها

وسيبهج قلبه أن يركع أمامها ويطلب منها بركتها كما ينبغي أن يطلبها البنون من الأمهات.

ووعدته أمه أن تفعل كل ما طلبه منها فانتهى بذلك حديثه معها.

أما وقد فرغ هاملت من حساب أمه، فقد أنفسح أمامه الوقت ليفكر فيمن عساه يكون هذا الذي قتله برعونته وتهوره، فلما عرف فيه بولونيوس والد حبيبته أوفيليا. أدرك ما وقع فيه من خطأ فاحش واستولى عليه حزن شديد وراح يبكي.

وتسنى للملك كلوديوس أن يتخذ قتل الفتى هاملت للمستشار الشيخ بولونيوس ذريعة لنفيه من المملكة.

والحق أن الملك كان حريا أن يقتله قتلا لشدة خوفه منه. لولا أن الناس كانوا يحبون الأمير الفتى. ولولا أن المملكة كانت على مساوئها وعيوبها مولعة بالأمير الفتى ابنها.

وبخبثه تصنع الملك الماكر الخوف على حياة هاملت من ثأر أولياء دم بولونيوس فأمر أن يسافر بالبحر فوق ظهر سفينة مقلعة إلى انجلترا، في رعاية اثنين من رجال البلاط بعث معهما خطابات إلى البلاط الانجليزي الذي كان يدين يومئذ بالولاء للدانمرك وفي هذه الرسائل طلب كلوديوس من بلاط انجلترا إعدام هاملت بمجرد نزوله إلى الأراض الانجليزية.

وتسرب الشك إلى نفس هاملت لما يعتقده في فطرة كلوديوس من الخيانة والغدر فتسلل أثناء الليل واستولى على الخطابات. وببراعة فائقة وحضور بديهة محا اسمه من الرسائل ووضع اسم الرسولين اللذين بعثهما الملك حراسا عليه. ثم أعاد إغلاق الرسائل وتثبيت أختامها ووضعها حيث كانت من قبل.

وفي بعض الطريق هاجم القراصنة السفينة، ونشبت معركة بحرية طاحنة. فوجدها هاملت فرصة يظهر فيها بسالته وجدارته بنسبه العريق، وقيمته الرفيعة التي يميل الغاصب إلى التنقص منها، فاستل سيفه وهجم بمفرده فنزل في سفينة القراصنة، في الوقت الذي ركنت فيه سفينته إلى الفرار وتركته لمواجهة مصيره وحده.

وهكذا توجه المبعوثان الدنماركيان بمفردهما إلى الشواطئ الانجليزية، ومعهما الرسائل التي صارت بعد التعديل الذي أدخله هاملت خلسة تحمل أمر إعدامهما الصريح.

أما القراصنة الذين وقع الأمير بين أيديهم فتكشفوا عن أعداء شرفاء. ولما عرفوا شخصية أسيرهم العالي المقام منوا أنفسهم أن يؤدي لهم هاملت خدمة جليلة يوما من الأيام في بلاط الدنمارك إن هم أحسنوا معاملته. وعلى هذا الأساس وجهوا سفينتهم إلى أقرب شاطئ من شواطئ الدنمارك.

ومن هذا الموضع كتب هاملت إلى الملك كلوديوس رسالة يخبره فيها بالظروف الغريبة التي ردته إلى وطنه. ويقول له أنه يتأهب كي يمثل في اليوم التالي أمام جلالته.

فلما عاد إلى القصر كان أول شيء بدا لعينيه منظر فاجع حزين. إذ كانوا يشيعون بالألحان الجنائزية الممضة جسد الحسناء الشابة أوفيليا التي كان قلب هاملت متعلقا بها. فإن صدمة وفاة أبيها بيد حبيبها أطارت صوابها فكانت تتجول مسلوبة العقل والفطنة شاردة لا تعي شيئا بين المروج والأحراش والغابات. تصنع القلائد من الزهر، وتتغنى بأغاني الحب كالحوريات، وهي غائبة الوعي في فجيعتها التي زلزلت أركان عقلها وكانت قسوتها المضاعفة أقوى من احتمالها ورقتها.

وعندما تعود إلى القصر بأزهارها كانت تقدمها ضاحكة إلى سيدات البلاط وتقول لهن أنها أعدتها خصيصا لجنازة أبيها. ثم يرتفع صوتها الرخيم بغناء عذب تمجد فيه الحب وتتغزل فيه بالموت. فكان خلو أغانيها من المعنى ومن العقل ومن الشعور أوجع للقلوب وأفطر للأفئدة من كل معنى ومن كل إدراك ومن كل شعور. وذات يوم جلست على شاطئ جدول ينساب بين المروج تحف به الأوراق والأزاهير منعكسة في صفحته الصافية. وهناك جلست تصنع من الأقحوان والأزهار اليانعة والأوراق الخضراء عقودا وطاقات. وتتأرجح على الأغصان. فانكسر بها غصن وسقطت في مجرى الجدول حتى استطاعت ثيابها أن تحملها طافية على وجهه فاستراحت لوضعها وأنشأت تتغنى في شرودها وقد استمرأت سبحها من غير رهبة، ولكن لم تلبث ثيابها أن تشبعت بالماء فثقلت وغاصت بها إلى حيث لقيت حتفها غرقا.

وكانت جنازة هذه الحبيبة الحسناء التي تعلقت بها جميع القلوب هي التي أقامها شقيقها لايرتس. وحضرها الملك والملكة وسائر أفراد البلاط.

وكان الأمير الفتى هاملت لا يدري ماذا وراء ذلك الحفل الحاشد، فوقف جانبا حتى لا يقطع انتظام مراسم الجنازة.

وأبصر بعينيه الأزهار تنثر على القبر كما هي العادة عندما يدفنون فتاة عذراء. ورأى الملكة بنفسها تنثر الزهر بيديها وهي تقول والدمع من عينيها ينهمر:

– النضارة للناضرة، والحلاوة للحلوة، والجمال لربة الجمال! كنت أرجو أن أمهد بيدي فراش عرسك أيتها العذراء الجميلة والزهرة الناضرة بين أزاهر الشباب الغض والشمائل الحلوة ولكني أراني اليوم وقد سامتني المقادير أن أسوي بيدي مهاد قبرك يا من كنت حرية أن تمسي في يوم قريب عروس ابني هاملت..

وسمع بعد ذلك أخاها يستصرخ السماء أن تنبت من قبرها أزهار البنفسج يانعة كيناعتها وديعة فواحة كفوحها ووداعتها ثم رآه يثب إلى جرف القبر وقد أخرجه الحزن الشديد عن طوره وراح يصرخ في الحفارين أن يهيلوا عليه جبالا من التراب حتى يدفن معها.

وشعر هاملت في تلك اللحظة بحب هذه الفتاة الجميلة الرقيقة يعود إلى قلبه بكل سطوته. وعز على نفسه أن يرى أخاها يظهر عليها من الحزن كل تلك اللوعة. وهو الذي كان يظن أن بحبه لأوفيليا يتجاوز حب أربعين ألف أخ!

وفي ثورة كشف القناع عن نفسه ووثب إلى القبر حيث كان لايرتس واقفا، وقد استولى عليه من الحزن الجازع مثل ذلك الأخ أو أكثر.

ولما عرف لايرتس فيه هاملت الذي كان سببا في موت أبيه ثم أخته، أخذ بعنقه أخذ العدو الخصيم إلى أن فرق المشيعون بينهما.

وبعد انتهاء الجنازة اعتذر هاملت عن تسرعه في إلقاء نفسه داخل القبر كأنما ليتحدى لايرتس. وتعلل لذلك بأنه لم يكن ليطيق أن يرى أي إنسان يبزه في الحزن على وفاة الحسناء أوفيليا.وهكذا بدا في تلك اللحظة أن الشابين النبيلين صفى ما بينهما من خلاف وضغينة.

ولم يفلت الملك هذه الفرصة. بل استغل حزن لايرتس وغضبه لموت أبيه وأخته أوفيليا كي يدبر الهلاك المحقق لابن أخيه هاملت.

وأرسل الملك إلى لايرتس فاقترح عليه إعلانا لتصافيه مع الأمير هاملت صديقه أن يدعوه لمبارزة ودية بالسيف مما جرت العادة بإقامته في المهرجانات إظهاراً للبراعة في تلك الألعاب.

ووجد الاقتراح هوى لدى هاملت وتحدد موعد المباراة. ودعى جميع رجال

البلاط وسيداته لمشاهدتها.

وبإيعاز من الملك أعد لايرتس سيفا مسموما ليبارز به هاملت. وكانت المراهنات مرتفعة وحامية بين الحاضرين، لأن هاملت ولايرتس كلاهما كانا مشهورين بالتفوق والبراعة في لعب السيف.

وحين بدأت المباراة تناول هاملت سيفه من غير أن يفكر في فحص سيف غريمه لايرتس. فقد كانت القواعد تقضي في مثل هذه المبارزة الودية أن يكون السيف غير مشحوذ السن ولا مدبب الطرف. ولكن لايرتس استخدم سيفا مسنونا مشحوذا مدببا مسقيا بالسم.

وفي بداية المباراة ترك لايرتس لهاملت الفرصة كي يتفوق عليه قليلا ويكسب بعض النقط. وكان الملك يعرف المكيدة بحذافيرها فتعمد أن يهلل ويهتف لبراعة ابن أخيه ويدعو السماء أن تصونه وتحميه، ويشرب في صحته النخب تلو النخب، ويزيد المراهنة عليه ضعفا بعد ضعف.

ولكن بعد فترة قصيرة ظهرت الحمية على لايرتس فجأة وهجم هاملت هجمة شديدة بسلاحه المسموم. ولكن هاملت راغ من تلك الهجمة وانتهى الالتحام بأن أسقط سيف غريمه من يده فداس عليه بقدمه وألقى إليه بسيفه كما يحدث كثيرا في مثل تلك الالتحامات ثم حمي الصراع بينهما من جديد وجرح هاملت لايرتس بسيفه فأحاق به عاقبة غدره.

وفي تلك اللحظة بالذات أطلقت الملكة صرخة ذعر وصاحت أنها سقيت السم. والحقيقة أنها تجرعت من كأس كان الملك أعدها لابنها هاملت. مقدرا أن حرارة المباراة قد تجعله يعطش فيطلب كأسا يروي بها ظمأه. وفي هذه الكأس مزج الملك الغادر سما زعافا ليقضي به عليه على سبيل الاحتياط لفشل لايرتس.

وفات الملك أن يحذر الملكة من تلك الكأس. وفي أثناء انشغال الجميع بالمبارزة شربتها. فأحست بالسم فورا. وماتت في الحال وهي تصرخ بأنفاسها الأخيرة أنها سقيت السم.

وفي الحال برق ذهن هاملت أن هناك مكيدة خفية فصرخ بأعلى صوته يأمر بإغلاق الأبواب جميعها إلى أن يتبين الحقيقة المستورة.

ولم يشأ لايرتس أن تمضي الأمور إلى أبعد من هذا الحد وقد رأى تدبيره ينقلب عليه فصاح به ألا ينشد الفاعل لأنه هو ذلك الفاعل. ولما رأى حياته تتسرب من جسده خلال الجرح المميت الذي أصابه به هاملت من سيفه المسموم الذي أعد لاغتياله، اعترف اعترافا كاملا بالحيلة التي دبرها وكيف راح هو ضحيتها.

ثم أخبر هاملت أنه ما دام قد لمسه في أول المباراة وخدشه هذا الخدش الهين بطرف سيفه قبل أن ينزعه منه، فليس أمام هاملت سوى نصف ساعة على الأكثر يعيشها في دنيا الأحياء لأنه ما من ترياق يمكن أن ينجيه من فعل ذلك السم.

وبعد أن طلب لايرتس من هاملت الصفح والغفران لفظ نفسه الأخير، وآخر كلماته اتهام صارخ على مسمع من الجميع للملك كلوديوس بأنه سبب كل تلك النكبات ورأسها المدبر.

ولما رأى هاملت أن منيته قد دنت. وقد بقيت في السيف بقية من السم، انقض من فوره على عمه الغادر واخترق بسن السيف صدره عند موضع القلب، موفيا بهذه الطعنة الوعد الذي قطعه لشبح أبيه أن يثأر لمقتله.

وبعد أن اطمأنت نفسه للوفاء بعهده، بدأ هاملت يشعر بأنفاسه تضعف

وتتلاهث، وبالحياة تتسرب من جسده، فالتفت صوب صديقه العزيز هوراشيو الذي شهد مأساته الدامية من بدايتها إلى منتهاها. وبصوت ضعيف تقطعه حشرجة النزع راح يناشده أن يخصص حياته لرواية قصته هذه على سمع الزمن. ويتوسل إليه ألا يقتل نفسه لأنه رآه يهم بذلك حزنا على صديقه ورغبة في صحبة أميره إلى العالم الآخر.

ووعد هوراشيو أن يسجل مأساته تلك بحذافيرها لأنه عاصرها بنفسه وكان الشاهد الأمين لأطوارها جميعا دون الناس.

فلما اطمأنت نفس هاملت التي طالما عذبتها الهواجس المتضاربة والمسئوليات المتعارضة همد قلبه النبيل وسكن. وحسر هوراشيو والحاضرون جميعا رءوسهم ودموعهم تنهمر مدرارا واستودعوا روح أميرهم الصافي النفس بين يدي الملائكة الأطهار. فقد كان هاملت أميرا رقيق القلب مخلص المودة محبا. وكان جميع من عرفوه يحبون فيه صفاءه واستقامته وأنفته وكريم سجاياه. ويؤمنون أنه لو قدر لحياته أن تطول لكان أعظم وأنبل الملوك الذين حكموا الدنمارك.

عطيل

كان برايانتيو من أثرى أعضاء مجلس الشيوخ في دوقية البندقية. وكانت لهذا الرجل فتاة حسناء. واسم هذه الفتاة الرقيقة الوديعة هي ديدمونة. فكان من الطبيعي وقد جمعت النسب الرفيع والثروة الطائلة والشمائل الحلوة والجمال البارع أن يتهافت على طلب يدها خطاب كثيرون من الطبقة الرفيعة وأصحاب الثروة العظام.

وكان الأمر مفوضا إلى الفتاة لتختار من جملة هؤلاء الخطاب من يروقها. ولكنها كانت ذا حس مرهف وعقل مثقف فلم تنظر إلى الناس باعتبار اللون والشكل والأناقة، بل كانت ترى أن الأهم في الرجال على العقل والقلب والحمية. فعزفت عن جميع من يقاربونها في اللون والشكل والسلالة، ومنحت قلبها مراكشيا أقرب إلى السواد لم يكن من ذوي الأصول العريقة في البندقية أو دويلات إيطاليا. وإنما هو قائد من المرتزقة با ع ولاءه للبندقية وكسب لها معارك كثيرة وجاب آفاق الأرض في سفنها وحراسة متاجرها. وكان هذا المراكشي الأسود عطيل الذي يحبه برابانتيو لسحر حديثه وسلامة طويته ويدعوه كثيرا إلى بيته.

ولم تكن ديدمونة طائشة في اختيارها أو مدفوعة بهوى أعمى حين آثرت بحبها رجلا يستهوي الناس في بلدها بمظهره. هذا الأسود لم تكن تعوزه صفة من الصفات التي تكمل بها مروءة الرجال. فهو جندي من أشجع الجنود. دفعته شجاعته في حروب البندقية ضد الأتراك إلى رتبة القائد "الجنرال" وصار موضع ثقة الدولة.

ولا ينبغي أن ننسى ما في جعبة هذا الأسود المقدام من أحاديث شائقة عن البلدان التي زارها والمغامرات التي اقتحمها في عصر لم تكن طرائف الأنباء مبذولة فيه للسيدات في الطبعات الشعبية والصحف السيارة أو السينما والإذاعة. فكانت رواية اللسان هي المصدر الوحيد لتلك الموضوعات التي تعرف جميعا شغف السيدات والفتيات بالارتشاف منها.

وكان عطيل بارعا في سوق أحاديثه وتصوير تلك الأسفار والمآزق والمعارك والمشاهد الغريبة والعادات الشاذة. وفي ثنايا تلك الأحاديث تظهر جسامة الأخطار التي تعرض لها في البر والبحر. ومثل تلك الأخطار لا تخطئ أن تعطف قلوب السامعين عليه. فيغدو شيئا عزيزا عليهم.

وكم من دمعة ذرفتها ديدمونة حينما ذكر وقوعه في الأسر ذات مرة. وأي عذاب عاناه. وكيف بيع في سوق الرقيق. وأي عنت ومهانة قاساهما وهو راسف في العبودية إلى أن احتال لنفسه وتمكن من الفرار.

وكم من شهقة بدت من الفتاة الجميلة وهي تسمعه يصور عجائب المخلوقات في أفريقيا. وكيف تنبت رءوس سلالات من الزنوج هناك من تحت أكتافهم. وكيف يأكلون لحوم البشر ويلوذون بجبال تناطح رؤوسها السحب لهم فيها كهوف وسراديب حافلة بالأهوال.

فليس عجيبا بعد هذا كله أن تستأثر الجلسات والسهرات التي يتوسطها عطيل بانتباه الفاتنة الصغيرة ديدمونة، حتى أنها كانت إذا دعيت لبعض مهام البيت الكبير الذي تشرف عليه بعد وفاة أمها، كانت تتخلص من تلك المهام بأسرع ما يمكن كي تعود بأذن شرهة لالتهام كل ما ينساب من بين شفتي عطيل من سير وأقاصيص.

وفي ذات يوم احتال هذا القائد الناضج المجرب حتى انتزع منها في ساعة هدوء وصفاء رجاء وجهته إليه كي يقص عليها قصة حياته الشخصية من أولها إلى آخرها بالترتيب. تلك القصة التي سمعت أجزاء متناثرة منها في غضون مغامراته. وبطبيعة الحال بادر بالموافقة على ذلك الطلب. واستطاع أن يستنزف من عينيها دمعا مدرارا عندما تحدث إليها عما اكتنف حياته من آلام ومتاعب وحرمان.

ولما فزع من سرد قصة حياته كافأته على ذلك السرد بمجموعة عطرة من التنهدات. وأقسمت له بصوتها الرخيم ولثغتها الحلوة أن تلك الآلام والمخاطر الغريبة عصرت قلبها. وأنها ودت لو لم تسمعها. ولو أنها في الوقت نفسه تمنت على الله لو أنها كانت رجلا من معدنه. ثم شكرته قائلة:

– إن كان لك صديق. وعرفت أن هذا الصديق يحبني ويسعى إلى كسب فؤادي. فليس عليك إلا أن تعلمه كيف يسرد على سمعي قصة حياته. وسيكون ذلك كافيا ليعطف قلبي عليه.

ولم يكن من الممكن أن يجد تشجيعا بل مفاتحة من فتاة مثلها تجمع بن الخفر والصراحة. وفي حفل رائع من الجمال البديع والحسن الآسر وحمرة الخجل وانكسار الجفن. فأدرك عطيل ما ترمي إليه. وما كان له إلا أن يدرك ذلك. ففاتحها مطمئنا بحبه لها. وفي موجة هذه الفرصة الذهبية حصل من ديدمونة الكريمة القلب على موافقتها السرية على الزواج منه أن تقدم بطلب يدها من أبيها.

ولم يكن من المنتظر أن يسمح لون عطيل الداكن المثير للسخرية والزراية ولا ثروته المتواضعة جدا، أن يقبله برابانتيو صهرا له وزوجا لوحيدته.

أجل أن برابانتيو ترك الحرية المطلقة لابنته في اختيار زوجها. ولكنه كان

ينتظر منها أن تسلك مسلك عقيلات البندقية كلهن، فتختار زوجها من الطبقة الحاكمة بين أشرافها وهي طبقة أعضاء مجلس الشيوخ أو المرشحين للدخول في تلك الطبقة.

بيد أن أمل برابانتيو خاب في ديدمونة، لأن ديدمونة كانت قد أولعت بحب هذا المراكشي الأسود. ومنحته قلبها ومحاسنها وفضائلها وثروتها لما عرفته فيه من إقدام وبياض نفس تحت سواد جلده. وصارحت أباها أن هذا اللون الأسود الذي يعتبر حائلا منيعا يذوده عن أية سيدة شريفة محترمة بل ومن هن من دون ذلك أيضا من العامة، كان يبدو في نظرها أحب من كل الجلود البيضاء التي يتمتع بها جميع خطابها من أشراف البندقية.

وتزوجته ديدمونة سرا. ولكن هذا الزواج لم يلبث في طي الخفاء مدة طويلة. فوصل خبره إلى سمع برابانتيو العجوز. فثار الرجل وشعر بالإهانة ووصمة العار بين مواطنيه وزملائه الأشراف. ورفع أمام مجلس الشيوخ الذي هو عضو بارز من أعضائه دعوى يتهم فيها عطيل الأسود باستخدام السحر الأفريقي في الاستيلاء على عقل ابنته الشقراء ديدمونة إلى أن رضيت بالزواج منه بدون موافقة أبيها. ويزيد في موقف عطيل سوءا أنه خان بهذه الوسائل الدنيئة واجبات الضيافة، لأنه استخدمها في الأوقات التي كان فيها ضيفا على برابانتيو.

وفي نفس الوقت الذي رفعت فيه هذه القضية إلى مجلس الشيوخ حدث أن احتاجت دولة البندقية حاجة عاجلة ماسة إلى خدمات قائدها المراكشي عطيل. فقد جاءت الأنباء أن الأتراك أعداء البندقية الألداء قد جهزوا باستعدادات هائلة أسطولا كبيرا أخذ يتجه إلى جزيرة قبرص بغية استعادة هذا الموضع البحري الحصين من أيدي دولة البندقية التي كانت مسيطرة على هذه الجزيرة في ذلك الحين.

وفي تلك الساعة الحرجة من ساعات الدولة. وجهت الدولة أنظارها إلى عطيل الذي قرر المختصون جميعا أنه الرجل الوحيد الكفء لتقلد أزمة الدفاع عن جزيرة قبرص ضد الأتراك.

واستدعى القائد عطيل للمثول أمام حكام البندقية أعضاء مجلس الشيوخ. فتوجه إلى هناك بصفة مزدوجة متناقضة. فهو في الوقت نفسه المرشح الأول لمهمة قومية عظمى. ومتهم بإفساد أخلاق فتاة من الأشراف بوسائل شيطانية. وهي جريمة يعاقب عليها قانون البندقية بالعقوبة القصوى وهي الإعدام.

ووقف برابانتيو يعرض على المجلس الموقر دعواه. فكانت صفة هذا الشيخ وسنه العالية كفيلتين بإصغاء المجلس إليه بكل أناة وسعة صدر. بيد أن الوالد الحاقد أدار دفة الاتهام في اندفاع طائش ولم يقدم أدلة قاطعة محددة بل شبهات وقرائن استنتاجية غير قاطعة فلما دعي عطيل للدفاع عن نفسه لم يلجأ إلى أكثر من رواية أطوار حبه كما حدثت تماما خطوة خطوة. وفي فصاحة خالية من التزويق والاجتهاد البياني أو محاولة التأثير العاطفي. وكان يتكلم بصراحة وبساطة واستقامة من غير تحامل، مما أسبغ على أقواله لون الصدق. حتى أن الدوق الذي كان يرأس تلك الجلسة القضائية لم يمنع نفسه من التصريح بأن مثل تلك القصة كما رواها الآن عطيل عن حياته كفيلة أن تستميل ابنته نفسها. فليس عجيبا أن تكفي هذه القصة لاستمالة قلب ديدمونة من غير حاجة إلى تمائم سحرية أو حيل شيطانية فلم تكن تلك الحيل فيما يظهر إلا الوسائل الصريحة المخلصة التي يلجأ إليها ذوو الاستقامة من الرجال حين ينشدون حب ذوات الرقة من النساء.

ثم دعيت بعد ذلك ديدمونة لتدلي بشهادتها شخصيا أمام تلك المحكمة العليا. فلما حلفت اليمين قالت بكل طهارة وإخلاص:

– إني وإن كنت أدين لوالدي بوجودي في الحياة وتعليمي وتربيتي إلا أني أجسر

أن استميحه الإذن في الاعتراف بأن واجبا أسمى من ذلك الواجب يربطني بسيدي ومولاي زوجي. وهو واجب شبيه بالواجب السامي الذي ربط أمي وماتت وهي وفية به نحو أبي الواقف أمامكم. فما كانت أمي تتردد في تقديم واجبها نحو أبي زوجها على واجبها المقدس نحو أبيها.

فلما سمع عضو مجلس الشيوخ العجوز هذه الحجة المخلصة الطاهرة من قلب ابنته ثاب إلى الحق وتبخرت الحفيظة من نفسه ودعا إلى ذراعيه المراكشي الأسود معتذرا إليه عما اتهمه به. وأعلن أمام الأمر الواقع أنه يمنحه في تلك اللحظة يد ابنته رسميا. تلك الابنة التي لو أنه كان يملك منعها عنه لمنعها. ولكن لم يعد الأمر بيده.. واستطرد قائلا:

– إني لأحمد الله أنه لم يرزقني ابنة غير هذه. فإن سلوك ديدمونة الشائن كان حريا أن يعلمني القسوة والطغيان. وأن أسوم بناتي العذاب حتى لا يتمردن ويمرغن شيبتي في التراب.

وبعد تسوية هذا النزاع الفردي لم يعد هناك ما يحول دون اضطلاع عطيل بالمهمة الحربية الخطيرة التي ندبته كفايته الفذة لها.

وكان عطيل قد تعود متاعب الحياة العسكرية فغدت مألوفة له ألفة الطعام والراحة لغيره من الناس. فقبل تلك المهمة وتعهد بالدفاع عن قبرص.

ولما كانت ديدمونة تؤثر شرف زوجها مهما تعرضت حياته للخطر على الاستسلام لمناعم الحياة التي يعرفها الحديث والعهد بالزواج. فقد وافقت بكل سرور على سفره وسفرها معه.

وما إن نزل عطيل وزوجته أرض قبرص حتى وصلت الأنباء أن عاصفة عاتية شتتت الأسطول التركي ومزقته. وبهذا أصبحت الجزيرة بمنجاة من أي هجوم

بحري في الوقت الحاضر.

بيد أن الحرب الحقيقية التي كان مكتوبا على عطيل أن يخوضها كانت قد بدأت الآن. وأثبت الأعداء الذين تجمع حقدهم ضد هذه السيطرة الطاهرة، أن طبيعتهم الخسيسة أخطر بكثير من جيوش الغرباء من الأعداء المحاربين.

ولم يكن بين أصدقاء القائد المراكشي أحد أكثر تمتعا بثقة عطيل التامة من نائبه كاسيو. وكان ميخائيل كاسيو ضابطا شابا من أهالي فلورنسا. كثير المرح، مولعا بالمغامرات الغرامية، لبق الحديث سريع النكتة جميل المظهر. وهي كلها صفات محببة إلى النساء.

وكان جمال كاسيو وخفة ظله وبراعة حديثه عناصر يمكن أن تزعج غيرة رجل متقدم في السن، إلى حد ما مثل عطيل. تزوج بفتاة رائعة الجمال أصغر منه سنا بكثير.

بيد أن عطيل كان إنسانا نبيلا صافي النفس لا يعرف التواء الغيرة. وليس من أهل الوساوس والشكوك لأن سريرته خالية من سوء النية والخسة.

وكان عطيل قد استخدم صديقه الشاب الجميل كاسيو في مدة خطبته السرية لديدمونة بمثابة رسول أمين ينقل الرسائل الشفوية والكتابية، لأن عطيل كان يظن نفسه عاجزا عن تنميق العبارات بالأسلوب الناعم اللين الذي يحذقه الشبان الناعمون وتفتتن به الفتيات الصغيرات.

وكان كاسيو ينهض بهذه الأمانة التي تدل على صفاء نفس عطيل واستقامته وثقته خير قيام. حتى أنه يمكن القول أن ديدمونة الحسناء لم تكن تألف أحد أو تميل إليه بعد زوجها عطيل سوى الصديق الموثوق به منهما ميخائيل كاسيو. ولكن المسافة بين حبها لزوجها وحبها لذلك الصديق واسعة مترامية، كما ينبغي لكل زوجة عفيفة فاضلة.

ولم يغير الزواج العلني بعد ذلك شيئا من علاقتهما وصداقتهما لكاسيو. فكان يختلف كثيرا إلى بيتهما. وكان حديثه الطلق الخفيف المتدفق يطيب بطرافته لعطيل الذي كان بطبعه أكثر جدا ورزانة وتحفظا. ولكن الملاحظ أن أصحاب الجد والوقار يميلون كثيرا إلى من يخالفونهم في المزاج والطبع كأنهم يجدون فيهم ترويحا عما بأنفسهم.

وكثيرا ما كانت ديدمونة تقضي الوقت في الحديث والضحك والمباسطة مع الشاب كاسيو، كما كانت تفعل معه في المدة التي قضاها رسول غرام بينها وبين صديقه الكبير.

وكان عطيل قد رقى ميخائيل كاسيو أخيرا إلى رتبة نائب القائد مما يجعله أقرب الناس إلى شخصه. فنزلت الترقية نزول الصاعقة على رأس الضابط إياجو. وكان إياجو ضابطا قديما أكبر في السن من كاسيو وأقدم منه خدمة في الجيش. وكان يعتقد أنه أحق من كاسيو بذلك المنصب وكثيرا ما كان يهزأ بكاسيو الناعم المرح ويعتبره غير أهل إلا لصحبة النساء والجلوس إليهن. ويزعم أنه لا يعرف عن فن الحرب أو تعبئة الجيش للمعركة أكثر مما تعرفه تلك الأمور فتاة من اللواتي يشغف بالحديث معهن.

كان إياجو يكره كاسيو ويكره أيضا عطيل لأنه يحب كاسيو ويحابيه. بل وأكثر من هذا كان إياجو الشرير السيئ الظن، لأنه سيئ السريرة، يرتاب في أن هذا المراكشي الأسود عطيل مغرما بإميليا زوجة إياجو أكثر مما ينبغي.

ومن هذه الأوهام بدأ عقل إياجو الملتوي يدبر مشروعا فظيعا للانتقام الشامل يوقع في أحابيله كاسيو والمراكشي عطيل وديدمونة، بضربة واحدة تقضي على ثلاثتهم.

والحق أن إياجو كان رجلا محنكا بارع الحيلة. تعمق في دراسة الطبيعة البشرية. وخرج من ذلك الدرس الواعي، أن أشد الآلام الفظيعة التي تصهر عقل الرجل وقلبه بعذاب لا يدانيه أشد تعذيب للحسد، هو ألم الغيرة. فإن سمها أفعل وأمضى من سم الأفاعي، ونهشها أشد إيلاما وإيجاعا من نهش أنيابها.

فإن قدر له أن ينجح في إثارة غيرة عطيل من كاسيو. لاستطاع أن يحصل على انتقام فظيع ربما انتهى بمصرع كاسيو أو عطيل أو مصرعهما معا. فما كان يأبه بحياة أحد منهما.

وكان وصول القائد وزوجته إلى قبرص في الوقت الذي وصلت فيه الأنباء بتشتيت الطبيعة لأسطول الأعداء، فخلقت هذه الأنباء حالة فراغ من العمل وعطلة رخية في الجزيرة وثكناتها. فانصرف الجميع إلى النزهات والمآدب والمرح. وأخذ النبيذ يسيل من غير حساب في جزيرة اشتهرت بنبيذها الجيد. وأديرت الأكواب في كل مكان فلي نخب عطيل الأسود وزوجته الفاتنة الشقراء ديدمونة.

وفي الليلة التي نحن بصددها كان كاسيو هو المتولي قيادة الحرس. وكلفه عطيل أن يحول بين الجنود والإفراط في الشراب، لأن الجند إذا سكروا عربدوا وأغاروا على الأهالي فأفزعوهم ونفروهم من هذه القوات الجديدة التي نزلت بر جزيرتهم أخيرا.

في هذه الليلة بالذات بدأ إياجو تدبيره الخبيث العميق الملتوي. فتحت ستار الولاء للقائد ومحبته، راح يغري كاسيو بشرب نخب عطيل مرة بعد مرة وزجاجة بعد زجاجة. وهو ضعف وعيب كبير في أي ضابط يكون مكلفا بنوبة الحراسة.

وفكر كاسيو في بادئ الأمر أن يقاوم هذا الإغراء. ولكن إياجو كان بارعا في حيلته وفي تمثيل الظرف والاندفاع والمرح. وفي تملقه وتملق قدرته على تجرع

الخمر من غير أن يفقد حواسه.

ولما بدأ كاسيو يتأثر بنشوة الخمر انفلت عقال لسانه وراح يطري فضائل ديدمونة ويشرب في صحتها النخب تلو النخب. ويؤكد لإياجو أنها أجمل سيدة رآها في حياته وأكملهن من جميع الوجوه.

وأخيرا تمكن العدو الذي وضعه كاسيو بيده في فمه من الاستيلاء على عقله. وعندئذ لاحت الفرصة لإياجو فأشار خلسة إلى جندي كان قد أعده من قبل فاحتك بكاسيو. وعلى الفور جردت السيوف من إغمادها. ولما تدخل ضابط من أفاضل الضباط اسمه مونتابو كان يحكم الجزيرة قبل وصول عطيل لكي يهدئ النزاع ويفضه، أصيب في تلك المشاجرة بجرح.

وكان ذلك إيذانا باتساع دائرة الشغب. وأسرع إياجو الذي دبر المصيبة كلها فأذاع نوبة الفزع والإنذار من النفير. ومن جرس القلعة الذي لا يدقونه إلا لإعلان تمرد خطر أو هجوم مضاد. ولا يعقل دقه بسبب مشاجرة سكارى لا قيمة لها.

وتكفلت دقات جرس الفزع في إيقاظ عطيل الذي ارتدى ثيابه على عجل وأسرع إلى مسرح الحادثة وسأل كاسيو عن سببها.

وكان كاسيو في تلك اللحظة قد ثاب إلى صوابه وانجلى عنه تأثير الخمر بعض الشيء. بيد أنه كان في شدة الخجل من نفسه فلم يحر جوابا. وتظاهر إياجو الذي كان حاضرا بالرغبة عن عدم اتهام كاسيو أو الإيقاع به. بيد أن عطيل ألح في معرفة الحقيقة كما وقعت وطالبه بذلك. فسرد على مسامع القائد الموضوع بأسره بعد أن استبعد منه دوره الشائن طبعا في إغراء كاسيو بالشراب. وكانت حالة كاسيو لا تسمح بتذكر تلك التفاصيل من كثرة ما تجرع من الخمر.

وكان إياجو من البراعة في السرد بحيث تظاهر برغبته في التقليل من جرم كاسيو. وهو في الواقع يجسم ذلك الجرم.

وكانت النتيجة أن عطيلا الذي اشتهر طول حياته بتدقيقه في كل ما يتعلق بنظام الضبط والربط في الجيش، رأى نفسه مكرها على خلع كاسيو من وظيفة النائب التي رقاه إليها أخيراً.

وهكذا نجحت الخطوة الأولى من خطة إياجو ومكيدته. إذ أجلى منافسه عن رتبته. ولكن ذلك لم يكن كل ما يرمي إليه، لأنه سيعرف كيف يستفيد مستقبلا مما تم على يده في تلك الليلة.

وكانت هذه العقوبة العلنية الصارمة كافية لتبخير ما بقي من الخمر في رأس كاسيو. فارتمى على صدر صديقه المزعوم إياجو الذي تظاهر بالحزن على ما أصابه. وراح يتوجع ويسب نفسه لأنه نزل في ساعة طيش إلى درك الحيوان من كثرة الشراب.

وكان يحزنه أنه لن يستطيع بعد الذي حدث أن يطلب من القائد رد رتبته التي سحبت منه. فكيف يجسر أن يعترف له أنه كان سكران وهو الذي كلفه أن يرعى الجنود ويمنعهم من الإفراط في الشراب. أنه إذن جدير بالاحتقار والمهانة!

وحاول إياجو بالتظاهر الكاذب أن يخفف عنه وقع تلك الصدمة، مؤكدا له أن أي إنسان على قيد الحياة عرضة لأن يسكر في أية مناسبة وإن من واجبه الآن أن يحاول توجيه موقفه السيئ أحسن وجهة ممكنة. فقال:

– واعلم يا عزيزي كاسيو أن زوجة قائدنا هي القائد الحقيقي في الوقت الحاضر. وفي وسعها أن تصنع أي شيء بالمفتون عطيل. فمن الخير لك أن تتوجه إلى السيدة ديدمونة كي تتوسط لك عند زوجها. وإنها من الطيبة ورقة القلب

وحب الخير بحيث لن تتوانى في القيام بمسعى من هذا القبيل، يردك يا عزيزي كاسيو إلى الحظوة عند القائد. وأؤكد لك أن مودتكما ستكون أقوى وأمتن بعد هذا العارض الذي تهددها الليلة. فإن الصداقات تقوى بالصلح بعد التباعد.

ووجدها كاسيو نصيحة صائبة. وإنها لكذلك حقا لولا أنها حق أريد به باطل. تمهيدا لمكيدة ستظهر آثارها بعد قليل.

ونفذ كاسيو نصيحة إياجو فذهب وتوسل إلى السيدة ديدمونة التي كان من السهل إقناعها بأي عمل من أعمال الخير والمعروف. فوعدته السيدة أن تكون المحامية عنه لدى زوجها. ووعدته أكثر من ذلك أن تفضل الموت على التخلي عن الإلحاح في مسألته.

وكانت ديدمونة عند قولها فشرعت على الفور تلاحق عطيل بالصفح عن كاسيو ورده إلى حظوته. ومع أن عطيلا كان غاضبا أشد الغضب على كاسيو إلا أنه لم يستطع رفض طلبها لكثرة إلحاحها عليه.

وظل عطيل يطلب منها الإرجاء ويقول لها أنه لا يجدر به العفو بهذه السرعة عن مثل هذا الخطأ الجسيم. ولكنها أبت أن تقتنع وأصرت أن يصدر عفوه عنه في الليلة التالية مباشرة أو في الصباح الذين يليها على الأكثر.

وجعلت بعد ذلك تبين لعطيل إلى أن أي حد بلغ الندم والإذلال بالمسكين كاسيو.. وأن خطأه لم يكن يستحق كل هذا الزجر العنيف. ولما وجدت عطيلا لا يتزحزح عن رأيه صاحت به:

- ما هذا يا مولاي؟ أأحتاج إلى كل هذا الرجاء من أجل كاسيو.. من أجل ميخائيل كاسيو الذي كان يأتي ليستميل قلبي إليك.. وكم من مرة كنت أتحدث في حقك وأذكر بعض المذمة لك فلا يتردد في الوقوف في صفك

والدفاع عنه ونفي كل نقيصة عنك! إن الذي أطلبه منك هو بعض حقه عليك. وإنك إذ تفعله ترد بعض دينك. أما حين أريد أن اختبر حبي عندك فسأطلب منك شيئا أضخم من هذا.

وما كان لعطيل أن يرفض شيئا لمثل هذه المحامية التي تستخدم مثل تلك الحجة. وقصاراه أنه طلب من ديدمونة أن تترك له فسحة من الوقت ووعدها أن يعيد ميخائيل كاسيو إلى حظوته.

وحدث أن عطيلا وإياجو كانا يهمان بدخول الحجرة التي كانت ديدمونة جالسة فيها، في الوقت الذي كان فيه كاسيو، بعد أن فرغ من التوسل إليها كي تتوسط للصفح عنه يهم بالخروج من الباب الآخر. فانتهز إياجو هذه الفرصة وهمس بصوت منخفض كمن يناجي نفسه:

– هذه حركة لا تعجبني..

– ولكن عطيلا لم يلق بالا إلى ما قال. بيد أنه سيتذكر تلك العبارة فيما بعد حين تبتعثها عناصر أخرى من المؤامرة.

وبعد أن خرجت ديدمونة من الحجرة سأل إياجو القائد عطيلا كأنما يريد أن يريح باله شخصيا. إن كان كاسيو على علم بحبه حينما كان يتودد إلى ديدمونة في البندقية. فأكد له القائد ذلك. وأضاف أنه كثيرا ما كان رسول الغرام بينهما في تلك الفترة.

فلما سمع إياجو ذلك قطب ما بين حاجبيه وصاح:

– حقا؟

شأن من سمع شيئا فظيعا أكد له شكا سابقا. فكان هذا هو الذي ذكر عطيلا بالعبارة التي سمعه يقولها وهما داخلان حيث كانت ديدمونة وكاسيو معا.

وخطر لعطيل أن هناك ولا شك مغزى وراء تلك العبارة، إذ أنه كان يعتقد في إياجو الفضل والأمانة والاستقامة. فافترض أن لدى إياجو ولا شك مبررات خطيرة لهذه الإشارات والتلميحات. وطلب منه أن يقول بصراحة كل ما يعرفه ولا يتردد في التعبير عن آرائه ومعلوماته مهما بلغت من السوء. فقال إياجو.

– ربما كانت يا سيدي بعض الأفكار الخسيسة التي لا أساس لها قد تسربت إلى صدري. وأين هو القصر الذي يعز دخوله على الحشرات والهوام في بعض الأحيان؟

واستطرد إياجو بعد ذلك أنه لا يسره أن تسبب بعض هواجسه السخيفة واستنتاجاته الناقصة قلقا وتوجسا لعطيل العظيم. ذلك أن ما لديه من الخواطر ليس مما يثلج صدر عطيل. وإن صفحات كرام الناس النقية لا ينبغي أن تتعرض للتلويث على الشبهة الطارئة.

وبطبيعة الحال كانت كل هذه التحوطات مقصودة لإثارة استطلاع عطيل. وليبين له أنه متحرج جدا وحريص على سعادته وراحته. ثم استطرد بعد ذلك فحذر عطيلا من مغبة الغيرة الحمقاء على غير أساس فكان هذا التحذير وحده كفيلا بإثارة شكوكه. وقال عطيل:

– أعلم أن زوجتي جميلة وتحب السمر والمنادمة، عذبة الحديث مولعة بالغناء والتمثيل، وتعزف الموسيقى وترقص رقصا جميلا. ولكن حيثما تكون الفضيلة تكون هذه الصفات كلها فاضلة طاهرة. فلابد لي من الدليل قبل أن أظن بها الفسوق.

وهنا تتبدى مهارة إياجو، إذ أظهر على الفور سروره لأن عطيلا غير متلهف على إدانة زوجته إلا بدليل. وصارحه أنه لا يملك أي دليل عليها. وبصوت

منخفض متمهل طلب من عطيل أن يلاحظ سلوكها جيدا حينما يكون كاسيو حاضرا. وقال:

– ولكن إياك والغيرة يا مولاي. وفي الوقت نفسه إياك والتهاون فإني أنا أعرف طباع سيداتنا الإيطاليات أكثر مما تعرفها أنت وأعرف كثيرات من الزوجات في البندقية فيهن خفة ولهن أسرار تعرفها السماء ولكن لا سبيل إلى أن يعرفها أزواجهن. فيهن نزوات ورغبات عارمة تعرفها الخلوة ولا يعرف عنها البعول شيئا..

ثم نفخ في النهار فأشار تلميحا إلى أن ديدمونة خدعت والدها حين تزوجت عطيلا. وأنها كانت من البراعة في الخداع بحيث استغفلت هذا الشيخ من غير مجهود وكأنها لا تصنع شيئا. حتى اعتقد الشيخ أنه ما كان يستطيع ذلك أحد سوى الشيطان فاتهم عطيلا بالسحر!

وأثرت هذه الحجة في نفس عطيل أيما تأثير. وخطر لهذا الشرقي الأسمر أن من تخدع أباها وتستغفله ليس هناك ما يمنعها من أن تخدع زوجها.

ولما رأى إياجو وجه عطيل قد تغير أسرع يستغفره لأنه كدر خاطره. فتصنع عطيل عدم الاكتراث مع أنه كان يغلي في أعماقه كالبركان، وطلب من إياجو أن يتم حديثه. فواصل إياجو الكلام وهو يكرر الاعتذار كأنه لا يتكلم إلا على مضض ومكرها بسبب إلحاح عطيل.

واتجه إياجو بعد ذلك إلى الإيقاع بكاسيو. ولكن مع تصنع الاستياء لاضطراره للخوض في سمعة صديق يعزه كثيرا كما يزعم. قال:

– اسمح لي أن أذكرك يا سيدي القائد أن السيدة ديدمونة رفضت قبل فخامتك من الخطاب عددا كبيرا كلهم من بني جلدتها وطبقتها الاجتماعية

والمالية. ومن ذوي البشرة البيضاء مثلها. ثم تهافتت على الزواج منك أنت وأنت المراكشي الأسود الذي كان يوما من الرقيق. وذلك شذوذ يتنافى مع طبيعة النساء في الأحوال العادية ويدل دلالة قاطعة على أنها سيدة ذات إرادة صارمة وعناد شديد. ومن الجائز جدا بعد أن ذهبت فتنة الرغبة الأولى أن يذهب الشذوذ وتعود إلى الطبيعة الأصلية في الحكم والذوق والرأي. فتقارن بين نبيل في سنك ولونك ونسبك، وبين أولئك الشباب ذوي العود الريان والقد المياد واللون المشرق والشباب الريق والوسامة وبراعة الحديث وحسن الرقص والغناء من بني جلدتها وعشيرتها الطليان المحيطين بها هنا. فالرأي الذي أراه لك وقد وثقت بي وسألتني المشورة أن تماطل في تنفيذ العفو عن كاسيو، كي تنفسح أمام السيدة ديدمونة فرصة معاودة الرجاء واستعجال الحظوة، فيكون ذلك فرصة لك كي تراقب سلوكها ومقدار لهفتها وما وراء تلك اللهفة من مدى الصلة والنفوذ الذي لهذا الشاب الإيطالي على عواطفها.

وهكذا استطاع ذلك الخبيث الوغد أن يسمم أفكار عطيل الساذج. ويشوه كل كريم رقيق من خصال ديدمونة في عينيه. وأن يحيك لها من طيبتها وكرم نفسها حبالا يوقعها في شركها.

ويجب أن نذكر أن إياجو هو الذي دفع كاسيو إلى توسيط ديدمونة.. ثم ها هو ذا يتخذ من وساطتها حبلا يشنقها به!

ولم يفت هذا الماكر إياجو أن يتوسل بحرارة إلى عطيل قبل أن يفارقه أن يظل على اعتقاده البراءة والطهر في زوجته إلى أن يجد ضدها دليلا كافيا مقنعا على العكس!

ووعده عطيل أن يتذرع بالصبر. ولكن من تلك اللحظة لم يستطع المسكين أن يعرف طعم الراحة. وعجزت جميع العقاقير المنومة المعروفة في ذلك العهد أن

تنعم عليه بشيء من الرقاد الذي كان يهنأ به إلى الأمس. فإذا ذهب يلتمس السلوان في عمله الذي يعشقه وجده مسئما له مضجرا. فلا سرور له بعد اليوم في مهنة السلاح وفن الحروب. وقلبه الذي كان يخفق مع دقات الطبول ويرقص مع الرايات ويصهل مع الجياد المصطفة للقتال، لم يعد يحركه شيء من ذلك.

أخذته الوساوس والهواجس فكان يتذبذب بين الشك واليقين، ولكنه لا يطمئن على حال من القلق. يخيل إليه أحيانا أن زوجته مخلصة شريفة ثم لا يلبث أن يراها غير ذلك. ويخيل إليه أحيانا أن إياجو محق صادق النظرة. ثم يرتد فيراه نقيض ذلك. ويشتد عليه الألم والنكد فيصرخ متمنيا. أنه لم يعرف شيئا عن تلك الحقائق المخزية ولم تفتح عليها عيناه. فلا ضير عليها أن تحب كاسيو ما دام لا يعرف ذلك.

وفي إحدى تلك الأزمات اشتد صراعه النفسي فانقض ذات مرة على عنق إياجو وطلب إليه دليلا على خيانة ديدمونة وإلا قتله شر قتلة لتجنبه عليها بالباطل.وتصنع إياجو الاستياء لشك عطيل فيه ورميه إياه بهذه الرذيلة فسأل عطيلا بكل أناة:

– ألم يحدث لك يا سيدي أن رأيت في يد زوجتك منديلا مزركشا بحبات الفراولة؟

– رأيته طبعا وأعرفه جيدا. فأنا الذي أهديتها إياه. بل هو أول هدية مني إليها.

– لقد رأيت ميخائيل كاسيو في يومنا هذا يمسح وجهه بهذا المنديل بعينه.

ففارت مراجل غضب عطيل وصاح:

– لن يستريح لي بال حتى أنكل بهما تنكيلا لم يسمع به أحد.

وهذا أكبر دليل على أن الرجل الذي تعميه الغيرة تقنعه قرائن ليس لها أي وزن. فوجود منديل زوجته في يد كاسيو سبب كاف عند عطيل للحكم على أعز

أصدقائه وعلى زوجته بالموت من غير أية محاولة للتثبت من الكيفية التي وصل بها المنديل إلى يد كاسيو.

إن ديدمونة لم تعط شيئا من هذا القبيل لكاسيو. وما كانت هذه الزوجة الوفية لتخطئ مثل هذا الخطأ بإعطاء هدية زوجها إلى رجل آخر. بل أن كاسيو وديدمونة كانا بريئين من أية إساءة لعطيل. وإنما الوغد إياجو الذي لا تعرف مكائده حدا هو الذي دفع زوجته الطيبة دفعا كي تسرق المنديل من عند ديدمونة بعد أن أقنعها أن مراده كله نقل الزخرفة التي عليه ليصنع مثله هدية لها. وبعد ذلك أسقط إياجو المنديل في طريق كاسيو بحيث عثر عليه فأخذه وهو لا يدري منديل من هو.

وتوجه عطيل إلى زوجته وتصنع أنه أصيب بصداع. وهو شيء محتمل جدا في مثل حالته الانفعالية. ثم طلب منها أن تقرضه منديلها ليعصب به رأسه.

وأسرعت الزوجة المخلصة فأعطته منديلا من مناديلها فرفضه قائلا:

– ليس هذا، بل المنديل الآخر الذي أهديتك إياه إبان بداية حبنا.

– ولم تستطع ديدمونة أن تعثر على ذلك المنديل لأنه كان قد سرق منها فعلا.

فصاح عطيل:

– كيف حدث هذا؟ هذه غلطة كبيرة لأن هذا المنديل أعطته امرأة من أهل مصر لوالدتي. وكانت هذه المرأة عرافة تقرأ الغيب فأخبرت أمي أنها طالما احتفظت بالمنديل ستظل متمتعة بحب أبي. ومتى فقدته أو أعطته لأحد فسيتحول قلب أبي عنها ويكرهها بقدر ما كان متعلقا بحبها. فاحتفظت أمي بهذا المنديل إلى أن حضرها الموت. وفي ساعتها الأخيرة أعطتني إياه كي أهديه إلى زوجتي عندما أتزوج. وقد فعلت. فيجب أن تحرصي على هذا المنديل حرصك على

إنساني عينيك!

– ويحي! أهذا ممكن؟

– بل إنه لحق. فهو منديل سحري. عمره في الأرض مائتا ستة. وله خصائص غير طبيعية. سواء في الدود الذي شرنق حريره أو في الألوان التي صبغته بنقوشها. فإن هذه الأصباغ هي دم قلب عذراء من عذارى المومياء القديمة.

فركب الرعب المسكينة ديدمونة وكادت تموت من الخوف لما تبينت أنها فقدته وخشيت من عقاب زوجها الذي وقف يصرخ في وسط الحجرة يطلب منها أن تأتيه بالمنديل فورا. وحاولت المسكينة أن تشغل تفكيره بموضوعات أخرى. فلم تجد موضوعا تحدثه به فقالت:

– لا أظن اهتمامك بهذا المنديل إلا محاولة منك لستر موقفك وإبعادي عن الخوض مرة أخرى في موضوع كاسيو..

وأنشأت تثني على كاسيو الثناء المستطاب، بالطريقة التي توقعها إياجو من قبل. إلى أن طفح الكيل فانفجر عطيل كالبركان الثائر. فبدأت ديدمونة تظن بزوجها الغيرة.

ثم لم تلبث البريئة أن استبعدت هذا الظن بزوجها النبيل، لأنها لم تفعل في حياتها شيئا واحدا يبرر شكه في وفائها. ولامت نفسها لوما شديدا لأنها ظنت بعطيل العظيم مثل هذا الإحساس الوضيع.

وحاولت أن تعلل ثورته باضطرابات في الجزيرة أو أنباء مكدرة وردت من البندقية فكدرت مزاجه.. وقالت لنفسها:

– والرجال بعد ليسوا آلهة معصومين. ويجب علينا نحن النساء ألا ننتظر منهم دوام الترفق والتلطف كما كنا نعهد منهم أيام الخطبة وفي يوم الزفاف.

وبمثل هذه التعللات طمأنت نفسها على بواعث هياج عطيل حينما تركها وهو غاضب وانصرف.

ولما التقت ديدمونة بعطيل بعد هذا واجهها هذه المرة بالاتهام صراحة. فقال لها بلا مواربة أنها خائنة له منحت حبها رجلا آخر. ولكنه لم يعين اسم هذا الرجل.وانفجر العملاق الأسود باكيا. فتصدع قلب ديدمونة وصاحت:

– ويحي! يا له من يوم منكود! لماذا تبكي يا عطيل؟

فقال لها ذلك المحارب القديم الصلد على المكاره:

– كنت حريا يا ديدمونة أن أتجلد لكل مكروه وأصبر على كل شدة وضنك: على الفقر، وعلى العلة المقيمة، وعلى الذل. ولكن خيانتك هي التي استطاعت أن تحطم قلبي!

وراح بعد ذلك يصفها بأقبح النعوت ويصورها بأخس الصور ذات المظهر الخادع والمخبر القاتل. وتمنى على الله لو أن أمها لم تلدها أو لو أن اليوم الذي رآها فيه لم تشرق شمس صباحه!

ولما فارقها كانت هذه السيدة البريئة في حالة لا توصف من الغضب والدهشة والحيرة. حتى لقد هبط عليها عبء ثقيل من النوم كما يحدث للسيدات كثيرا إذا أصابهن الإرهاق.

ونادت وصيفتها وطلبت منها أن تعد لها فراشها وتبسط فوقه مفارش ليلة زفافها وهي تقول:

– إن الناس حينما يعلمون أطفالهم أن يلقنوهم الدروس، يفعلوا ذلك برفق ولين. وعطيل كان من الممكن أن يكون أباً لي في سنه هذه.. فماذا عليه لو ترفق في تعليمي ولم يغلظ لي؟

وأوت ديدمونة إلى فراشها وهي تتوقع أن يتبعها زوجها إليه كالعادة في كل ليلة. وسرعان ما استغرقت في النوم بسبب الصدمة التي حدثت لها فزلزلت حواسها.

وإذا بعطيل يدخل الحجرة وقد تجمعت سحب الشر في رأسه فزادت سواد نظرته وقطوب جبينه. فإن هذا المنكود حضر وفي نيته أن يقتل ديدمونة شر قتلة. ولكنه لما رآها نائمة على هذه الصورة لم تطاوعه يده على سفك دمها أو تشويه بشرتها البيضاء الصافية التي يبدو المرمر الناصع قاتما بجوارها!

ولكنه اقسم أن يقتلها. وإلا عاشت على حد قوله لتخدع مزيدا من الرجال كما خدعته!

ونازعه هواه وغلبه جواه فانحنى فوقها وقبلها من أعماق قلبه قبلته الأخيرة. ولكن حلاوة القبلة لم تجعله يحس بها قبلة ودع. فمال فوقها ثانيا يقبلها من جديد والدموع تتساقط من عينيه رغم إرادته.

وتجلد لتلك الدموع وراح يخادع نفسه في حقيقتها فيزعم أنها دموع القسوة ودموع النقمة وليست دموع الحب ولا دموع الرحمة!

واستيقظت ديدمونة على قبلاته. فشرعت عينيها تنظر إلى عطيل فرأته يعض بنواجذه على شفته السفلى ليمنعها من الارتجاف ويمسك الزفرات التي تعترض حلقه فلا تخرج من فمه. وعيناه تدوران في محجريهما في غضب وحيرة وجنون وكانت تعلم أنه متى كان على هذه الصورة فالأمر جلل ومصيبة فادحة.

وأمرها عطيل أن تنهض فتعد نفسها للموت. وأن تركع وتستودع الله روحها. فهو يريد قتل جسدها أما روحها الخالدة فلا يريد بها سوءا. وتوجهت إليه تلك الزوجة البريئة وهي مستسلمة لرحمته أن يترفق بها ويخبرها بذنبها. فإذا به يذكر لها

كاسيو. ومنديله الذي أهداه إليها فأعطته لكاسيو..

وهمت السيدة الطاهرة الذيل أن تبرئ ساحتها وتقيم البرهان على براءتها. وإذا بجنونه يجن فلا يريد أن يسمع مزيدا من الكلام. بل ينقض عليها ويخنقها بمفارش سريرها التي كانت مفارش عرسها إلى أن ماتت.

وفي تلك اللحظة جيء بكاسيو جريحا ينزف الدم من جراحه وكان إياجو قد رصد له بعض أتباعه ليقتله. ولم يفلح ذلك القاتل الأجير إلا في إصابة كاسيو بتلك الجروح غير القاتلة. فقتل إياجو ذلك الشخص حتى لا يشي بالمؤامرة.

ولكن ضبطت في جيوب ذلك القتيل خطابات ورسائل تثبت إدانة إياجو كما تثبت براءة كاسيو.

وخطر لكاسيو أن عطيلا هو الذي أوعز إلى إياجو أن يقتله. فحضر في تلك الساعة ودمه ينزف ليسأل عطيلا الصفح ويسأله أيضا عن جريرته التي استوجب بها منه هذا الغضب الشديد بحيث كلف إياجو بالتخلص منه!

وكان لهذا الاكتشاف وقع الصاعقة على عطيل. وتبين له بكل جلاء أنه لم يكن سوى قاتل وضيع. وأن زوجته البريئة المظلومة كانت وفية مخلصة له على الدوام.

وثقل الشعور بالذنب على نفس عطيل حتى أصبحت الحياة نفسها غير محتملة. فسقط على سيفه منتحرا على الطريقة الرومانية ثم ألقى بنفسه فوق جسد تلك التي وفت له واشترت مودته بالأهل والوطن فقتلها بيده على الظن.

وكان لهذا المنظر الأليم وقعه الحاسم على الحاضرين جميعا الذين ركبهم الفزع والاستقطاع. لأن عطيلا كان يتحلى بسيرة عاطرة في النزاهة والصدق. وكان من المعروف أنه قبل أن يتعرض لطريقة ذلك النذل الدساس الذي يتصنع الصداقة

والإخلاص، أخلص الأزواج وأشدهم تعلقا ورحمة بزوجته. ولئن لم يكن حكيما في حبه فقد كان صادقا فيه. ولئن انخدع في غفلة وحماقة فإن الدموع التي ذرفها ندما، ودمه الذي سفكه حزنا، خير كفارة تشفع له في ذلك الطيش.

ولم يجد خلفه في حكم الجزيرة شيئا يصنعه في تلك القضية الدامية سوى أن يأخذ بتلابيب إياجو ويسلمه لأشد ما يعرفه القانون من صرامة فأثبتت محاكمته مدى ما وصلت إليه حيلته الخبيثة من سعة وتشعب ومكر في غير رحمة أو وازع. وكيف أن الحسد كان يأكل قلبه فلا يفكر في دين أو خلق ولا يتورع عن شيء يشفي غليله من قوم كل ذنبهم لديه أنهم سعداء شرفاء ناجحون.

وصدر الحكم ضد إياجو أن يعذب حيا إلى أن يموت قطعة قطعة.

وأرخ الحاكم الجديد المأساة كلها بتفاصيلها وبعثها إلى حكومة البندقية مع رسالة ينعي إليها فيها بطلا من أشجع من عرفتهم ساحات الحروب ورجلا من أصدق ذوي العقول والقلوب.

ترويض النمرة

كاثارينا كاثارينا العاصية هي كبرى بنات باتستا أحد السادة الثراة من أعيان بادوا. كانت هذه السيدة ذات طبع جامح وصوت عال ولسان سليط. حتى أصبحت لا تعرف في بلدها بادوا إلا باسم العاصية أو النمرة.

وبطبيعة الحال لم يكن من المنتظر أن يقدم أحد من السادة في المدينة على التفكير في المجازفة بالزواج منها. بل كان ذلك من باب المستحيلات، ولذلك انصب اللوم على رأس الشيخ باتستا لإصراره على رفض طلبات كثيرين من الممتازين الذين تقدموا لخطبة شقيقتها الصغرى الجميلة الرقيقة الحاشية بيانكا..

وكانت حجة الشيخ في رفض خطاب بيانكا أنه لا ينوي التفكير في تزويجها قبل أن يتم نهائيا زواج أختها الكبرى. وبعد ذلك –لا قبله– لهم الحرية في التقدم لبيانكا. وسينظر في طلباتهم.

وحدث مع ذلك أن حضر إلى بادوا سيد اسمه بتروشيو، بقصد البحث عن زوجة مناسبة. فلما سمع أن كاثارينا جميلة وغنية لم يفت في عضده ما اشتهرت به من سوء الطبع. فقرر أن يتزوج من هذه الجامحة المشهورة، وأن يروضها فيجعل منها زوجة سلسة القياد دمثة الطبع.

والحق أنه لم يكن أحد من الناس كفئاً للتصدي لهذه المهمة العسيرة سوى بتروشيو، الذي كان طبعه في مثل جموح طبع كاثارينا.. وكان ذكيا وقاد القريحة سريع النكتة لا يبالي المشاكسة. ولكنه بجانب ذلك حكيم بعيد النظر صائب

الحكم يعرف كيف يتصنع الغضب والاندفاع، وهو في الحقيقة ساكن الباطن هادئ الأعماق. وكأنه يتسلى في سريرته بالضحك من تمثيله للجنون والجموح، وللعظمة والاستبداد. ولكن تلك الوسائل كانت هي الناجعة وحدها لقهر أساليبها الشيطانية وغضبها المرهوب الجانب.

بدأ بتروشيو بأن تقدم من الشيخ باتستا والد كاثارينا العاصية.. يستأذنه أن يخطب مودة كريمته الرقيقة كاثارينا على حد تعبيره عنها، لأنه كما زعم سمع بمحاسن خلقها وتواضعها ودماثة سلوكها وهو في بلدته فيرونا فحضر من هناك خصيصاً يلتمس محبتها.

ومع أن والدها الشيخ كان يتمنى من كل قلبه أن تتزوج كاثارينا لأنها معضلة حياته. إلا أنه وجد الشرف يقتضيه أن يصارح الرجل بشيء من حقيقة ابنته. لأنه يعلم أن تلك الحقيقة لن تلبث أن تبدو للخاطب المخدوع سافرة.

ولكن الوالد لم يكد يشرع في تبصير الخاطب بحقيقة العاصية، حتى اندفع معلم الموسيقى داخلا ليوفر عليه عناء الشرح، وهو يصرخ أن الرقيقة –جداً– كاثارينا كسرت العود على دماغه عندما نبهها إلى خطأ في أدائها. فلما سمع بتروشيو ذلك قال لأبيها:

– إنها فيما يبدو لي فتاة شهمة شجاعة. وقد زاد هذا من حبي لها وتشوقي للحديث معها.

ثم راح يستحث والدها الشيخ أن يجيبه إلى طلبه قائلاً:

– إني على عجل من أمري يا سنيور باتستا. وليس عندي متسع من الوقت كي أحضر كل يوم للتودد إلى ابنتك. إنك كنت تعرف أبي.. ووالدي توفى وتركني الوارث الوحيد لكل أراضيه وأملاكه. فأخبرني ماذا تعطيني مهرا لابنتك إذا

ظفرت بمحبتها؟

فبدا لباتستا أن هذه لهجة فيها جلافة لا تستساغ من خاطب يدعي حب الفتاة ورغبته في شخصها ومزاياها. بيد أنه كان متلهفا على تزويج كاثارينا بأي شكل. فأجابه:

– سأعطيها فوراً عشرين ألف ريال بمثابة مهر. ونصف ثروتي بعد وفاتي. فليس لي ورثة إلا هي وأختها الصغرى.

وهكذا تمت تلك الصفقة الغريبة بمنتهى السرعة. ودخل باتستا ليخبر ابنته العاصية بأمر ذلك الخاطب، ثم بعثها إلى بتروشيو كي تصغي بنفسها إلى تودده وخطبته.وفي هذا الوقت كان بتروشيو يدير في رأسه الطريقة التي سيتبعها في معاملة كاثارينا وطلب يدها.. ويقول لنفسه:

– سأقابلها بمرح ودعابة. فإن صرخت في وجهي سأقول لها أن صوتها شدو رخيم كغناء البلابل. وإذا تجهمت سأقول لها أن محياها صاف صفاء الورد غسله الندى. وإن صممت لا تنطق بكلمة سأثني على فصاحة لغتها. وإن أمرتني أن أتركها سأقدم لها الشكر كأنها أمرتني بالبقاء معها أسبوعا. لن أدعها تستثير أعصابي.

وبعد ذلك دخلت كاثارينا في تجهم، فبادرها قائلاً:

– سعدت صباحا يا كاثي، فهذا هو اسمك فيما سمعت؟

ولم يعجب كاثارينا ذلك السلام الفاتر المنطوي على الاستهانة فقال له باستعلاء:

– إن من يخاطبونني ينادونني باسم كاثارينا.

فرد عليها في الحال:

– كذابة! فإن اسمك الذي يدعونك به هو كاثي. كاثي فقط. وأحياناً أخرى كاثي العاصية. ولكنك مع هذا يا كاثي أجمل كاثي في العالم المسيحي. ولما سمعت يا كاثي بشهرة وداعتك والثناء على وقتك في كل بلد جئت إلى هنا كي أخطبك!

والحقيقة أن هذا الغزل الذي بدأ بينما كان من أغرب الغرائب، لأنها راحت تصرخ في وجهه بعبارات الغضب لتدله على أن وصف العاصية لحق بها عن جدارة واستحقاق. وفي الوقت نفسه استمر بتروشيو يثني على محاسنها وعذوبة ألفاظها وحلاوة صوتها وعباراتها.. إلى أن سمع صوت والدها قادماً، فقرر الإسراع ما استطاع وقال لها:

– اسمحي لي يا كاثارينا الحسناء أن ندع جانبا هذه الثرثرة الفارغة.. فإن والدك وافق على أن تصبحي زوجتي. وتم الاتفاق على مهرك. وسواء أردت أو لم تريدي فسوف أتزوجك!

ودخل باتستا، فبادر بتروشيو يخبره أن ابنته لقيته أكرم لقاء، وأنها وعدته أن تتزوجه يوم الأحد التالي!

وأنكرت كاثارينا هذا أشد الإنكار، وبعبارات لا تنقصها الحدة قالت:

– بل إني أفضل أن أراك يوم الأحد القادم مشنوقاً!

ثم انحت باللائمة على أبيها لأنه وافق على تزويجها من عتل مجنون سافل مثل بتروشيو!

وبكل بساطة طلب بتروشيو من أبيها أن يغضي عن ألفاظها العنيفة، لأنه اتفق معها أن تتظاهر أمامه بالنفور. وعندما يخلوان إلى بعضهما يجد منها كل محبة وإقبال وتعلق!

– هات يدك يا كاثي! سأذهب إلى البندقية لاشتري لك أجمل ثوب يصلح لزينتك في يوم زفافك. وأنت أيها الوالد أعد المأدبة وأرسل الدعاوى إلى من ستدعوهم إلى عقد القران. وسأحضر معي الخواتم الثمينة والأساور والثياب الفاخرة حتى تبدو عزيزتي في أبهى حلة. فقبليني الآن يا كاثي ما دمنا سنتزوج يوم الأحد!

* * *

وفي يوم الأحد اجتمع شمل كل المدعوين للقران، ولكنهم انتظروا طويلاً جداً إلى أن حضر بتروشيو. وأذل ذلك كاثارينا أمامهم وهي المتكبرة العنيدة فبكت خزيا لأنها ظنت بتروشيو يعبث بها.

وأخيرا ظهر بتروشيو. ولكنه لم يحضر شيئا من الطرائف ومعدات العرس الثمينة التي وعد بها كاثارينا. بل إنه نفسه لم يكن يرتدي ما يرتديه العرسان. بل كان في هيئة مضطربة غريبة، كأنه تعمد التقليل من قيمة الخطوة التي أقدم عليها. بل إن خادمه والحصانين اللذين حضرا عليهما في حالة زرية ملفتة للنظر.

ولم تفلح الحيلة في إقناع بتروشيو بتبديل ملابسه قبل الزفاف إذ قال:

– عجبا! إن كاثارينا ستقترن بي أنا لا بثيابي!

ولما وجدوا أنه لا فائدة من مناقشته ذهبوا إلى الكنيسة معه وهو على حاله التي وصل بها. واستمر هناك يتصرف بمنتهى الغرابة. فعندما سأله القسيس بكل وقار:

– هل رضيت كاثارينا زوجة لك؟

راح يقسم بصوت جهير غير لائق أن ذلك سيحدث. ودهش القسيس بحيث سقط الإنجيل من يده. فلما انحنى القسيس ليتناوله دفعه هذا العريس

المخبول دفعة قوية أسقطته هو وكتابه معا!

وظل طوال صلاة القران يسب ويلعن ويحلف بصورة مخيفة جعلت كاثارينا المشهورة بالجموح ترتعد خوفا مما ينتظرها على يد هذا المجنون!.

وبعد أن انتهت حفلة الزواج. وقبل أن يخرج الناس من الكنيسة صاح بتروشيا مصرا على إحضار النبيذ في الكنيسة. ثم شرب في ضجة صاخبة في صحة الحاضرين جميعا. ثم قذف بثمالة الكأس في وجه الشماس مباشرة. ولم يقدم تعليلا لهذا العمل الغريب سوى أنه لاحظ ما يعتري نمو شعر لحية الشماس من ضعف وتناثر لا يليق بمقامه. فثمالة الكأس ستنشط نمو لحيته في المستقبل!

فأيقن الناس من غير شك أن هذا الزوج هو أشد العرسان جنونا. وأن زواجه أجن زواج عرفوه. والحقيقة أن بتروشيو تصنع هذا الجنون حتى يهيئ لخطته وسائل النجاح. تلك الخطة التي رسمها لترويض زوجته العاصية النفور.

* * *

وأعد باتستا مأدبة قران فاخرة في داره تتفق ومكانته الرفيعة في المدينة وإكراما لصهره الجديد. ولكن بمجرد العودة من الكنيسة وضع بتروشيو يده على عاتق كاثارينا، معلنا عزمه على أخذ زوجته إلى البيت فوراً. ولم تستطع توسلات حميه، ولا كلمات الغضب من كاثارينا الثائرة، أن تحمله على تغيير رأيه لأنه أصر على التمسك بحق الزوج في التصرف في زوجته على الوجه الذي يروقه، ودفع كاثارينا في عجلة من بيت أبيها. وكان العزم والتصميم والجسارة بادية عليه بحيث لم يجرؤ أحد أن يوقفه.

وأركب بتروشيو زوجته المتكبرة فوق حصان هزيل حقير أعرج انتقاه خصيصاً لهذا الغرض. ولم يكن حصانه هو وخادمه بأحسن من حال حصانها. ورحل الثلاثة

على هذه الصورة مخترقين أوعر الطرق وأحفلها بالمستنقعات. وكلما تعثر حصان كاثارينا كان يثور ويصخب ويسب الدابة المسكينة، التي كانت تنوء بحمل العروس ولا تقدر على الزحف بها. فكان ذلك منه دليلاً حاسماً على أنه أكثر أهل الأرض جنونا.

* * *

وأخيرا جدا

وأخيرا، بعد رحلة مضنية، لم تسمع في خلالها كاثارينا شيئاً إلا صخب بتروشيو وسوء طبعه، وهو يصب غضبه على الخادم والجياد بكل فظاظة، وصل الثلاثة إلى داره في فيرونا.ورحب بتروشيو بعروسه ترحيبا لطيفا في دارها الجديدة. بيد أنه أصر ألا تحظى بشيء من الراحة أو الطعام في تلك الليلة!

كانت الموائد ممدودة وطعام العشاء موضوعاً فوقها. ولكن بتروشيو ادعى أنه يجد في كل طبق عيبا، ثم يقلب اللحم على الأرض ويدوسه بقدمه ويأمر الخدم بإزالته على الفور. وكلما فعل ذلك بطبق صاح:

–إن حبي لعزيزتي كاثارينا يجعلني أذودها عن أكل لحم غير حسن الطهو والتتبيل!

ولما صرحت كاثارينا بإعيائها وقامت من غير عشاء لتأوى إلى الفراش، اصطنع سببا راح يقذف الوسائد والأغطية في أرجاء الحجرة، بحيث اضطرت أن تجلس في مقعد ولا ترقد في السرير، وكما هفت إلى النوم أيقظها في الحال صوت زوجها الصاخب في ثورة سباب للخدم الذين لم يحسنوا إعداد فراش لزوجته!

* * *

وفي اليوم التالي تابع بتروشيو هذه الخطة بعينها. فهو يتحدث بأرق عبارة إلى عزيزته الغالية كاثارينا. ولكن كلما حاولت أن تأكل، وجد كل شيء يضعونه

أمامها غير لائق بها فيقذف الإفطار على الأرض كما فعل بالعشاء. وكاثارينا يمنعها ما درجت عليه من الكبرياء أن ترجو الخدم في أن يدسوا إليها شيئاً من الطعام في الخفاء. بيد أن الجوع عندما عضها بنابه تغاضت عن كبريائها وطلبت من خدم زوجها ذلك الطلب. وكان بتروشيو قد أصدر إليهم التعليمات فأجابوها أنهم لا يجسرون بأي حال من الأحوال أن يقدموا إليها أي شيء بغير علم مولاهم فقالت:

– آه هل تزوجني ليجيعني؟ إن المتسولين الذين يأتون إلى باب بيت أبي لا يحرمون من تقديم الطعام إليهم. فهل أصبحت أنا التي لم تعرف الحاجة يوماً إلى شيء ولم تضطر أبداً إلى طلب شيء وقد أعوزني الطعام، فأنا جائعة أشعر بدوار من قلة النوم. وأبقى ساهرة على أصوات اللعنات والسباب. وأشد ما يحيرني أنه يفعل ذلك تحت ستار حبه لي، زاعماً أنني إن نمت أو أكلت لكان ذلك معناه الموت السريع لي.

وقوطع كلامها بدخول بتروشيو. ولم يكن بطبيعة الحال ينوي أن يتركها تموت جوعا، لهذا كان قد أحضر لها معه قطعة صغيرة جدا من اللحم فقال لها:

– كيف حالك يا عزيزتي كاثي الجميلة؟ هاك يا حبيبتي ما يدلك على مبلغ تعلقي بك. لقد طهوت لك اللحم وتبلته بنفسي. ولا شك عندي أن هذه الرقة من جانبي تستحق منك الشكر. ماذا؟ ألا كلمة؟ إذن لن تظفري باللحم. ما دام كل تعبي من أجلك ليست له نتيجة!

وفي الحال أمر الخدم أن يأخذوا الطبق. وكان الجوع الشديد قد حطم كبرياء كاثارينا، فتغاضت عن الغضب الذي يغلي في قلبها وقالت:

– أرجوك أن تترك الطبق في موضعه.

ولكن هذا لم يكن كل ما قصد بتروشيو أن يصل إليه منها، فأجابها بمنتهى الغلظة:

- إن أحقر الخدمات تستوجب الشكر، ولهذا لن تلمسي اللحم قبل أن تشكريني.

فاضطرت كاثارينا أن تقول له على مضض:

- أشكرك يا سيدي!

وبعدها سمح لها أن تتناول تلك الوجبة الهزيلة قائلاً:

- كلي بمقدار فإن ذلك أجدى على صحتك يا عزيزتي الرقيقة كاثي! والآن يا حبيبتي سنعود إلى دار أبيك ونحتفل بزواجنا على أحسن وجه مستطاع، مرتدين الثياب الحريرية والمعاطف والخواتم الذهبية وأنواع الثياب، وأدوات الزينة من أفخر الأصناف.

وكي يبرهن لها على صدقه هذه المرة في هذه الوعود، نادى الخياط الذي كان قد أحضر ثيابا جديدة لها بأمر بتروشيو. وعندئذ تناول الزوج الماكر الطبق من تحت يدها قبل أن تأكل نصف ما فيه وأعطاه للخادم كأنها انتهت من أكلها.

والتفت بعد ذلك إلى الثياب وكانت جميلة حقاً، ولكنه راح يصرخ ويسب الخياط لفساد ذوقه وضيق المعاطف، ثم أمره بأخذها إلى دكانه لتوسيعها وتغيير طرازها. فقالت كاثارينا:

- سآخذ هذه المعاطف كما هي. فإن جميع السيدات الراقيات يرتدين هذا الطراز.

فأجابها بتروشيو بجفاء:

– وعندما تصيرين راقية تحصلين على مثلها. أما قبل ذلك فلا!

وكان القليل من اللحم الذي ازدردته كاثارينا قد رد إليها شيئا من حيويتها المنحطة فأجابته قائلة:

– أظن أن من حقي أن أتكلم، وسوف أتكلم، إنني لست طفلة. وكثيرون أفضل منك سمعوا ما عندي من كلام وهم صابرون فإن لم يعجبك أن تسمع ما أقول فسد أذنيك إن شئت. أما أنا فقد نويت الكلام.

ولم يكترث بتروشيو لأنه كان قد اكتشف طريقة جميلة لترويض زوجته أفضل من الاشتباك معها في مناقشة حول أي شيء. لهذا أجابها قائلاً:

– معك حق، هذا المعطف فاسد الذوق جداً كما تقولين وأنا أحببتك كثيراً عندما لم يعجبك!

– أحببتني كثيرا أو لم تحبني. أنا أحببت المعطف. وسأحصل عليه أو لا أريد معاطف!

– أتقولين أنك تريدين مشاهدة الرداء؟

وعندئذ نادى الخياط فشاهدت معه رداء رائعا كان قد صنعه لها. ولكن بتروشيو الذي كان ينوي حرمانها من كل شيء أعلن سخطه على ذلك الرداء قائلاً:

– رحمتك يا رب.. ما هذا الشيء؟ أتسمي هذا كما؟ إنه أشبه بنصف مدفع ومتعرج من أعلى ومن أسفل مثل فطيرة التفاح!

– لقد صنعته يا سيدي كما أمرت على حسب موضة الموسم.

أما كاثارينا فقالت. إنها لم تشاهد في حياتها رداء أبدع تفصيلا من هذا الرداء

وأحكم صنعة. وكان هذا هو كل ما ينتظر بتروشيو أن يسمعه منها ليصرخ فيسب الخياط ومساعديه بأفحش الألفاظ والإشارات وطردهم من الحجرة. وكان قد رتب معهم الأمر سراً بحيث يتقاضون أجورهم ولا يضيع عليهم شيء من حقوقهم من غير أن تعلم كاثارينا. ثم عاد إليها قائلاً:

– والآن تعالى يا عزيزتي كاثي نذهب إلى بيت أبيك في ثيابنا هذه الحقيرة التي نرتديها الآن ما دام هؤلاء المغفلون لا يحسنون صنع الثياب التي تعجبك!

وبعد ذلك أمر بتروشيو بإعداد الجياد. وهو يؤكد لهما أنهما سيصلان إلى بيت أبيها في وقت الغداء لأن الساعة لم تزل السابعة صباحا.

وهنا يجب أن نذكر أن الساعة عندما قال ذلك لم تكن السابعة صباحا حقا بل كان الوقت ظهرا. فعجبت كاثارينا وأرادت أن تنبهه إلى ذلك بشيء من الرفق خوفا من ثوران مزاجه الناري.

– إني أجسر يا سيدي أن أؤكد لك أن الساعة الآن الثالثة بعد الظهر لا السابعة صباحا. وأن وقت العشاء لا الغداء سيكون قد حان قبل أن نصل إلى بيت أبي..

بيد أن بتروشيو كان يرمي إلى إخضاعها إخضاعا تاما، بحيث لا تحاول الاعتراض على أي شيء يقوله قبل أن يأخذها إلى بيت أبيها. فكأنه أصبح لديها السيد المطلق لكل شيء، حتى على الشمس. فهو الذي يحدد الأوقات والساعات على هواه. فقال لها:

– إن الساعة هي ما يحلو لي أن أقرره. وليكن هذا مفهوما قبل أن نتحرك من هنا. وما دمت مثابرة على معارضة كل كلمة أقولها أو عمل آتي به. فسوف لا أسافر اليوم. وعندما أسافر لن يكون ذلك إلا حينما تصبح الساعة كما أقول

أنا لا كما تقول المزولة أو الشمس.

وهكذا اضطرت كاثارينا أن تقضي يوماً آخر في المران على عادة الطاعة العمياء التي تعلمتها حديثا، وظل بتروشيو مثابرا على تلك الخطة إلى أن ألغى كبرياءها إلغاء تاما. وأصبحت لا تجسر على الإتيان بإشارة أو التلفظ بكلمة تدل على أية معارضة لما يقول أو يفعل مهما كان ذلك غريبا.

ولما تم له ذلك، سمح لها بتروشيو أن تذهب إلى بيت أبيها. وفي خلال تلك الرحلة نفسها كانت معرضة في كل لحظة لردها إلى البيت عند أية إشارة تبدو منها لا تروق لدى بتروشيو،لدرجة أنه أشار وقت الظهر أثناء الطريق إلى قرص الشمس الساطع في وسط السماء وقال:

– ما أبدع ضياء القمر هذا المساء!

فلما لمحت له من طرف خفي أن هذا قرص الشمس. ثار صائحا:

– أقسم بابن أمي الذي هو أنا أن هذا القرص سيكون القمر أو النجوم أو أي شيء أعنيه أنا قبل أن أتحرك خطوة واحدة أخرى نحو بيت أبيك!

وتصنع العودة من حيث أتى. فإذا كاثارينا التي لم تعد العاصية بل المطيعة الخاضعة تتوسل إليه قائلة:

– أرجوك يا سيدي أن نمضي في طريقنا ما دمنا قد وصلنا إلى هذه المسافة. وأتعهد لك أن يكون ما تراه فوقنا شمسا أو قمرا أو كوكبا أو مذنبا أو مسرجة أو شمعة على حسب ما يتراءى لك. وسأوافق على كل ما تقرره من غير مجادلة.

وكان هذا ما يريد بتروشيو أن يصل إليه. ولكنه أراد أن يصل إلى برهان عملي فقال:

– قلت لك أن هذا هو القمر!

– وإنه القمر فعلا!

فثار ثائره وصاح بحنق:

– بل تكذبين! هذه هي الشمس المباركة.

– إذن تكون الشمس المباركة. ولكنها لا تكون الشمس حينما تقول أنت أنها ليست الشمس، فأي اسم تطلقه عليها سيكون هو اسمها أيضا لدى كاثارينا.

وعندئذ فقط سمح لها بالاستمرار في السفر!

* * *

وانتهز أول فرصة في الطريق ليعقد لها امتحانا جديدا في الطاعة. فلما قابلا شيخا طاعنا في السن بلحية كثة حياه وخاطبه قائلا:

– طاب صباحك يا سيدتي الشابة!

ثم التفت إلى كاثارينا وسألها إن كانت رأت في حياتها شابة أنضر حسنا من هذه. ثم راح يتغزل في بياض وجنتي الشيخ وحمرتهما. ويقارن بين عينيه وبين نجمين لامعين في السماء. ومرة أخرى خاطب الشيخ قائلا:

– ما أجملك أيتها الفتاة. طاب صباحك مرة أخرى!

ثم التفت إلى زوجته الخاضعة وقال لها:

– هيا عانقيها يا عزيزتي كاثي تحية لجمالها!

فلم تتردد كاثارينا الخاضعة اللطيفة في الصدوع بأمر زوجها واعتناق رأيه والموافقة على قوله وخاطبت ذلك الشيخ الدميم الملتحي قائلة:

– أيتها الفتاة الكاعب الناهدة الصدر! إنك جميلة ناضرة حلوة! إلى أين أنت

ذاهبة وأين تقطنين؟ ما أسعد أبويك أن تكون لهما ابنة في مثل جمالك.

وإذا ببتروشيو يصرخ في وجهها قائلاً:

– هل أصاب عقلك مس يا كاثي؟ أرجو ألا يكون قد أصابك الجنون. فهذا الذي أمامك رجل مسن متغضن الوجه له لحية وجسم ذابل، وليست فتاة ناضرة جميلة كما تزعمين!

وبكل رقة قالت كاثارينا:

– عفوك يا سيدي الشيخ الغريب. إن الشمس أزاغت بصري حتى أصبحت أرى كل ما تقع عليه عيني أخضر اللون. وإني الآن أتبينك والدا صالحا وقورا. والتمس منك أن تغفر لي خطئي السخيف.

وقال بتروشيو للشيخ الغريب:

– أرجو أن تسامحها يا سيدي. وقل لنا إلى أين أنت مسافر فإنه سيسرنا أن نصحبك في الطريق؟

– سيدي وسيدتي: لقد استغربت كلامكما في البداية أن اسمي هو فنشنتيو. وأنا مسافر إلى بادوا لأزور ابنا لي يعيش هناك.

فعرف بتروشيو أن هذا الرجل هو الشيخ والد ليشنتيو. وهو شاب كان قد تقدم لخطبة بيانكا ابنة باتستا الصغرى. فأدخل بتروشيو السرور على قلب الشيخ بأن أخبره بالثروة الكبيرة التي تنتظر ابنه من ذلك الزواج. وأتم الثلاثة الرحلة معا إلى بيت باتستا حيث كانت هناك حفلة كبيرة وجمع حاشد لمناسبة الاحتفال بزواج بيانكا وليشنتيو، لأن باتستا وافق على هذا حتى يمكن أن تثبت زوجته أنها أطوع من الآخرين.

* * *

وبمجرد دخولهم دعاهم باتستا لحضور مأدبة الزواج. وكان في استقبالهم أيضاً العروسان الجديدان، وعروسان آخران. وإذا ليشنتيو زوج بيانكا وهورتنسيو العريس الآخر لا يكتمان الإشارة إلى ما يتوقعانه من بوادر سوء خلق كاثارينا زوجة بتروشيو. أخذ الاثنان يتفاخران بحسن حظهما لأن الله رزقهما زوجتين دمثتي الخلق. وجعلا يضحكان ويتندران بالأزواج المنكوبين بزوجات سليطات اللسان سيئات الطبع.

ولم يكترث بتروشيو لهذا التهكم إلى أن انسحبت السيدات كلهن بعد العشاء وتركن المجال للرجال كي يسمروا على كئوس الشراب. وعند ذلك رأى باتستا حماه يشترك في الضحك والهزء منه. ولما أكد بتروشيو أن زوجته يمكن أن تثبت أنها أطوع من الآخرين، صاح والد كاثارينا:

– إن الحق أولى أن يقال يا ابني بتروشيو! لقد تزوجت أشد نساء الأرض تنمراً وعصيانا، تزوجتها على عيبها.

فقال له بتروشيو بكل هدوء:

– وأنا أؤكد لك العكس. وحتى نحسم هذا الخلاف وأؤكد لكم صدق قولي سيرسل كل منا في طلب زوجته الآن. والزوجة التي تكون أسرع من غيرها في تلبية طلب زوجها بالحضور تكون أشدهن طاعة. ويربح زوجها الرهان الذي نتفق عليه.

ولم يتردد العريسان الآخران في الموافقة على هذا الاقتراح لشدة وثوقهما من النتيجة. واقترحا أن يراهن كل منهم بعشرين ريالاً فقال بترشيو ساخرا:

– هذا مبلغ يصح أن أراهن به على صقر صيدي أو كلبي! أما زوجتي فأراهن على طاعتها وخضوعها بعشرين ضعفا. وعندئذ اتفق الثلاثة أن يراهن كل

منهم بمائة ريال. ثم أرسل ليشنتيو أولا خادمه يرجو بيانكا أن تحضر إليه. ولكن الخادم عاد وقال له:

– سيدي، إن سيدتي تقول لك أنها مشغولة الآن مع السيدات ولا تستطيع الحضور.

فصاح بتروشيو مستغربا:

– ما هذا يا ليشنتيو! أهذا جواب ترد به زوجة محترمة على زوجها؟ إنها مشغولة عن الحضور إليه عند طلبه!

فضحك الاثنان منه مقهقهين وقالا له سنرى أي رد ترد به كاثارينا المشهورة في دعوتك وكيف سيكون أسوأ من هذا الرد.

وحل دور هورتنسيو فأرسل إلى زوجته قائلا للخادم:

– توسل إلى زوجتي أن تأتي إلي!

فصاح بتروشيو مستغربا:

– يتوسل.. إذن ستحضر مادام سيلح.

فأجابه هورتنسيو قائلاً:

– ولكني أعتقد أن زوجتك يا سيدي لن يحضرها أي توسل.

ولكن كم كانت دهشة هورتنسيو عندما عاد الخادم إليه وقال له:

– سيدي: إن سيدتي تقول لك أنك لابد تريد أن تجعلها موضوع فكاهة أو ما إلى ذلك. وهي مشغولة مع السيدات فإن كنت تريدها حقا اذهب إليها!

فصاح بتروشيو:

– وهذا الرد أسوأ وأسوأ!

ثم نادى خادمه وقال له:

– اذهب الآن إلى سيدتك وقل لها إني آمرها أن تحضر الآن!

وقبل أن يعبر الحاضرون عن تخمينهم لجوابها، إذا بوالدها باتستا يصيح بمنتهى الدهشة:

– وحق السيدة العذراء المقدسة ها هي ذي كاثارينا قادمة!

وإذا بها تدخل فعلا وتقول لزوجها بكل امتثال وخضوع:

– ما هي إراداتك يا سيدي التي بعثت من أجلها في طلبي؟

– أين أختك وزوجة هورتنسيو؟

– جالستان للسمر بجوار المدفأة.

– اذهبي احضريهما حالا!

فخرجت كاثارينا على الفور لتنفذ أمر زوجها فصاح ليشنتيو

– إن كان في الدنيا عجب فهذا هو العجب.

أما والد كاثارينا فكان في غاية السرور لهذا التغير الذي طرأ على ابنته العاصية وقال:

– إني أشد على يدك مهنئا يا ولد بتروشيو! لقد ربحت الرهان. وابتهاجا ببراعتك في إصلاح هذه المعوجة قد زدت مهرها من عندي عشرين ألف ريال أخرى، كما لو كانت عروسا جديدا وابنة ثالثة عندي. وذلك حق في الواقع فإنها تغيرت وأصبحت امرأة لم تكن موجودة من قبل!

فقال بتروشيو:

– بل إني سأقيم أدلة جديدة على استحقاقي للرهان. وأطلعكم على مزيد من

دلائل خلقها الحميد وطاعتها الكاملة.

وعندئذ دخلت كاثارينا ومعها السيدتان. فاستطرد بتروشيو قائلا للشابين الآخرين:

– انظر ها هي ذي قادمة ومعها زوجتاكما كالأسيرتين.

والتفت بعدها إلى كاثارينا قائلا:

– يا كاثارينا. إن هذا المعطف لا يلائمك. فاخلعيه ودوسيه بقدميك!

وفي الحال خلعت كاثارينا معطفها الفاخر وألقته على الأرض. فصاحت زوجة هورتنسيو مرتاعة:

– رباه! لا يحق لي أن آسف على شيء ألقاه من زوجي مادمت لم أصل إلى هذا الحد من الذل والسفاهة!

وأما شقيقتها بيانكا فقالت:

– يا للعار! أي طاعة حمقاء هذه التي تدينين بها؟

فرد زوج بيانكا عليها قائلاً:

– تمنيت على الله أن تكوني على شيء من حماقتها. فإن تعقلك يا عزيزتي الحسناء بيانكا كلفني بعد العشاء مائة ريال!

فصاحت بيانكا في وجهه قائلة:

–وهذا من غفلتك أيها التعس، ما دمت اعتمدت على خضوعي الأعمى وأنا لست عمياء.

فقال بتروشيو لزوجته:

– إني أكلفك يا كاثارينا أن تخبري هاتين العنيدتين بما صح عندك من واجب

الزوجة الفاضلة نحو سيدها ومولاها زوجها!

وكم كانت دهشة الحاضرين جميعا عندما راحت هذه العاصية المتنمرة الشهيرة تكشف عن مدى تغيرها وصلاح أمرها، فتتحدث بطلاقة عجيبة متينة عن فضائل واجب طاعة الزوجة الصالحة طاعة عمياء لكل ما يراه زوجها أو يقوله أو يفعله. وكيف مارست تلك الطاعة بغير تفكير وبخضوع تام لمشيئة بتروشيو!

وأصبحت كاثارينا مشهورة مرة أخرى في بادوا كلها، لا مثل شهرتها السابقة بالعصيان والتنمر وسوء الطبع وسلاطة اللسان، بل أصبحت شهرة كاثارينا أنها أشد الزوجات طاعة، وأتمهن خضوعا لزوجها في إيطاليا بأسرها.

صاع بصاع

كان يحكم مدينة فيينا دوق اسمه فنشنتيو. وكان هذا الدوق رحيم القلب رقيق الطبع لين الجانب إلى درجة أنه كان يترك الحبل على الغارب لرعاياه يخرقون القوانين أو يتجاهلونها من غير عقاب.وكان هناك على الخصوص قانون يظهر أن وجوده في فيينا أصبح معدوماً أو منسيا تمام النسيان لكثرة ما خالفه الناس، ومع ذلك لم يضعه الدوق موضع النفاذ طيلة مدة حكمه.

وهذا القانون يقضي بعقوبة الإعدام ضد أي رجل يعيش في فيينا مع امرأة ليست زوجته الشرعية.وترتب على تهاون الدوق في تنفيذ ذلك القانون تهاوناً تاما أن أصبح نظام الزواج المقدس ساقط الاعتبار. وصارت ترفع إلى الدوق في كل يوم شكاوى مرة من أولياء أمور فتيات فيينا، أن بناتهم سقطن في حبائل الإغراء فخرجن على طاعتهم ورحن يعاشرن جهارا رجالا من العزاب من غير عقد شرعي.

واستولى الحزن على الدوق الطيب القلب من جراء نمو الفساد واستفحاله بين رعاياه.ولكنه وجد من الصعب عليه أن يغير من طبعه تغييرا مفاجئا، فينقلب من التساهل الذي طالما أظهره إلى الصرامة التي يقتضيها مثل ذلك الانحراف الخطير. وخشي أن يسيء رعاياه تفسير التغير الذي يبديه في سياسته فيعتبرونه من أهل الطغيان ونزوات الجبروت المتقلبة.

وفكر الدوق في حيلة. فقرر أن يتغيب عن دولته زمنا، وأن ينيب عنه شخصاً يخوله سلطاته الكاملة التي يرسمها القانون. ويتولى هذا النائب تطبيق

القانون المهمل على أولئك المحبين الفاسقين، من غير أن يلحظ الرعايا أية غرابة في تقلب سلوكه نحوهم.

وكان انجليو رجلا مشهورا بالقداسة في فيينا، لما عرف عنه من حياته الجد والاستقامة التامة. فاختاره الدوق ليقوم بتلك المهمة وينوب عنه في حمل أعباء الحكم مدة غيابه.

ولما أفضى الدوق إلى اسكالوس كبير الأشراف في بلاطه ومستشاره الأول بما يدور في رأسه، قال أسكالوس:

– إذا كان في فيينا يا مولاي رجل جدير بهذا الشرف العريض، فهو بلا شك اللورد أنجيلو.

وعلى هذا الأساس رحل الدوق عن فيينا متظاهراً برغبته في القيام برحلة إلى بولندا، وترك أنجيلو نائبا عنه مدة غيابه. بيد أن غياب الدوق كان في الحقيقة من قبيل التمويه. إذ عاد سرا إلى فيينا وقد تخفى في زي الرهبان وفي مراده أن يراقب خلسة تصرفات أنجيلو الذي يبدو للناس من القديسين.

وحدث في بداية تولي أنجيلو سلطاته الجديدة نائباً عن دوق فيينا أن سيدا من أعيان فيينا اسمه كلوديو تمكن من غواية فتاة حسناء فأخرجها عن طاعة والديها لتعاشره معاشرة الأزواج بلا زواج كما كان شائعا في المدينة إذ ذاك.

وفي الحال أصدر نائب الدوق أمره بالقبض على كلوديو وإيداعه السجن. وبناء على القانون القديم الذي طال إغفاله أمر أنجيلو أن يقطع رأس كلوديو.

وقامت ضجة كبيرة في فيينا لاستصدار عفو عن الشاب كلوديو الذي كان من أبرز وجهاء فيينا وأجمل شبابها. وتدخل اللورد اسكالوس بنفسه –وهو المستشار الأول للدوق– للتوسط في ذلك العفو!

– إن هذا الشاب العريق النسب كان أبوه رجلا شريفا فاضلا من أصدقائي. ومن أجل خاطره أتوسل إليك أن تعفو عن زلة الابن.

فأجابه أنجيلو قائلاً:

– ينبغي ألا نجعل من القوانين فزاعات للعصافير. فإن الناس متى فطنوا إلى أنها ظل قائم لا حياة فيه ولا قدرة استهانوا به، كما تستهين الغربان بالفزاعات بعد حين فتحط عليها بدلا من أن تفزع منها. لهذا يا سيدي لا مناص أن ينفذ حكم الموت في كلوديو.

* * *

وزار لوشيو صديق كلوديو في السجن حيث قابله، فقال له كلوديو:

– أتوسل إليك يا لوشيو أن تؤدي لي هذه الخدمة. اذهب إلى أختي ايزابيلا التي تنوي في هذا اليوم أن تدخل دير القديسة كلير. وأخبرها بالخطر الذي يتهددني. وتوسل إليها أن تحاول الاتصال بالنائب الصارم المتزمت، وأن توطد علاقتها به. فإن لي أملا كبيراً في براعتها في الحديث وذلاقتها في الإقناع. ثم إن في أحزان الحسان بلاغة صامتة تحرك قلوب الرجال حتى ولو كانت صلدة كالحجارة.

وكان إيزابيلا أخت كلوديو قد قررت دخول الدير في ذلك اليوم فعلا بصفة تلميذة راهبة وفي نيتها بعد انتهاء مدة التلمذة أن تصبح راهبة بصفة نهائية.

وجلست ايزابيلا إلى راهبة تسألها عن قوانين الدير والرهبنة لتتعلمها منها وإذا بهما تسمعان صوت لوشيو يدخل من أبواب الدير صائحاً:

– السلام على أهل هذا المكان!

– من المتكلم؟

– فأجابتها الراهبة:

– هذا صوت رجل يا عزيزتي ايزابيلا اذهبي إليه واسأليه عن مراده. فذلك مسموح به لك. أما أنا فلا. لأنك عندما تترهبين يجب ألا تحدثي رجلا إلا بحضور مشرفة. وفي هذه الحالة يجب ألا تكشفي وجهك للرجل. وإن كشفت له وجهك وجب عليك ألا تتكلمي!

– وهل ليس لكن معشر الراهبات امتيازات أخرى؟

– وهل هذه غير كافية؟

– عفوك. لم اسأل وأنا استقلل هذه الامتيازات. بل وأنا أتمنى مزيدا من الحجر على تصرفات راهبات القديسة كلير!

وعندئذ ارتفع صوت لوشيو مرة أخرى، فقالت الراهبة:

– اذهبي إليه أرجوك وكلميه.

فخرجت إليه ايزابيلا فقال لها بلهجته المرحة المتحررة:

– السلام لك أيتها العذراء. فأنت ولا شك عذراء ما دام لك هذان الخدان الأحمران. أتستطيعين أن تجمعيني بالتلميذة الراهبة إيزابيلا الجميلة أخت المسكين كلوديو المنكوب؟

– ولما هو مسكين ومنكوب؟ إني أسأل لأني أنا أخته إيزابيلا.

– أيتها الآنسة اللطيفة الحسناء. أخوك يحييك على لساني. إن لسانه معتقل معه في السجن.

– واها لي! ولماذا؟

فأخبرها لوشيو بطريقته الخاصة كيف أغوى شقيقها فتاة ولهذا سجنوه.

وعندئذ صاحت إيزابيلا:

– أخشى أن تكون هذه الفتاة بنت عمي جولييت!

والحقيقة أن جولييت لم تكن بنت عمها. وإنما جرت عادتهما على ذلك لأن صداقتهما ترجع إلى أيام المدرسة. ولما كانت إيزابيلا تعلم أن جولييت تهوى كلوديو. فقد خشيت أن تكون انزلقت بسبب حبها له إلى تلك الزلة. وصاح لوشيو بخفته:

– هي بعينها ولحمها وجسمها.

– المسألة هينة. فليتزوجها أخي.

– أخوك كان يتمنى ذلك. ولكن نائب الدوق الغبي مصر على معاقبته بزلته. والعقوبة هي الإعدام. وسينفذون الحكم ما لم تتدخلي بصلواتي وتوسلاتك اللطيفة لدى العم أنجيلو. وهذا هو موضوع سفارتي بينك وبين أخيك المسكين.

– وا أسفاه! وماذا أستطيع أنا له؟ أشك في قدرتي على تحريك قلب أنجيلو بالعطف عليه.

– إن شكوكنا يا سيدتي خيانة لأمانينا. فهي تجعلنا نفقد ما كان يمكن أن نكسبه، لأنها تمنعنا من محاولته. اذهبي إلى اللورد أنجيلو! فإنه عندما تتوسل العذارى راكعات باكيات، يهتز الرجال ويسخون كالإلهة.

– سأرى ماذا أستطيع أن أفعل. ولن أنتظر إلا ريثما أحيط الرئيسة علما بالموضوع ثم أذهب إلى أنجيلو. سلم على أخي. وقل له أني سأرسل إليه في الليل البشارة بنجاحي في مسعاي.

وأسرعت إيزابيلا إلى القصر حيث ألقت بنفسها تحت قدمي أنجيلو.

– إني جئت متوسلة لفخامتك، إن راق لفخامتك أن تسمعني.

– وما هو التماسك؟

فأفضت إليه بملتمسها بالعفو عن حياة شقيقها بأشد العبارات حرارة. ولكن أنجيلو قال:

– لا حيلة في الأمر. صدر الحكم بإعدام شقيقك، ولابد أن يعدم.

– إنه قانون عادل ولكنه قاس، رحم الله أخي إذن!

وهمت بأن تنصرف. بيد أن لوشيو الذي كان في صحبتها قال لها:

– لا تنفضي يدك بهذه السهولة. ارتمي على ركبتيك وتعلقي بثوبه. إنك كنت فاترة جدا في توسلاتك، فلو كان ما تلتمسينه إبرة لما كانت حماستك أقل من ذلك.

وعادت إيزابيلا فارتمت تحت قدميه وتعلقت بثوبه. فقال أنجيلو:

– فات الأوان! بل لم يفت. فإن الذي ينطق بكلمة يملك أن يسحبها. وصدقني يا مولاي أنه ما من شيء يزين كبراء الأرض، لا تاج الملك، ولا سيف النائب، ولا عصا الماريشال، ولا رداء القاضي، كما تزينهم صفة الرحمة أضعاف ذلك كله.

– أرجوك أن تنصرفي.

ولكن إيزابيلا استمرت في توسلاتها:

– لو كان أخي في مكانك وكنت أنت في مكان أخي لكان من الممكن جدا أن تزل مثله. ولكن من المؤكد أنه لو كان في موضعك لما قسا عليك مثل قسوتك عليه. وإني أتمنى على الله لو كانت لي سلطاتك، وكنت أنت إيزابيلا.

فهل كانت الأمور تجري على هذا المنوال؟ كلا. بل كنت أريك كيف يجب أن يكون القاضي وكيف تكون حال السجين؟

– اهدئي بالاً أيتها الشابة. فالقانون هو الذي أدان أخاك لا أنا الذي أدنته. فلو أنه كان قريبي أو أخي أو ابني لما تغير الوضع ولجرى عليه ما يجري الآن. غدا لابد أن يموت.

– غدا! بهذه السرعة.. ارحمه! ابق عليه! إنه لم يتأهب بعد للموت. إننا حين نقتل لنطبخ لا نقتل الطيور إلا في الأوان المناسب من عمرها. فلا تذبح الأفراخ الهزيلة. فهل يستساغ أن نخدم السماء بقرابين نحن لا نكن لها من الرعاية مثل الذي نكنه لما نقدمه لأنفسنا من ذبائح؟ تريث يا مولاي الرحيم وفكر قليلا. فإن أحدا لم يمت بمثل ذنب أخي، وما أكثر من اقترفوا ذلك الذنب مع ذلك. فأنت أول من أصدر مثل ذلك الحكم. وهو أول من يطبق عليه. فعد يا سيدي إلى نفسك. وأطرق هنالك بابها واسأل قلبك ما الذي يعرفه عن مثل جريرة أخي. فإن اعترف لك قلبك بمثل زلته الطبيعية ولو بالرغبة والميل. فليس لك حق أن ترفع صوتاً بإدانة أخي أو على الأقل لا تهدر حياته.

وكان لكلمات إيزابيلا الأخيرة من الأثر في نفس أنجيلو أكثر من كل ما سبق، لأن جمال إيزابيلا وهي تتوسل كان قد حرك في أعماق قلبه رغبة دنسة. وراح في داخل سريرته يداعب أفكارا ليست بعيدة الشبه بالجريمة التي اقترفها كلوديو. فجاءت كلمات إيزابيلا في أوانها، فجعله الصراع الداخلي يشيح عنها، فصاحت به:

– يا مولاي الرحيم، لا تشح بوجهك عني. واسمع كيف يمكن أن أرشو ذمتك. فعد بوجهك إلي.

فدهش أنجيلو عندما سمع كلمة الرشوة وصاح:

-كيف تفكرين في رشوتي؟

- نعم أفكر في رشوتك وسأرشوك بالنعم التي تسبغها عليك السماء لا بكنوز الذهب ولا بتلك الأحجار البراقة التي يرتفع ثمنها وينحط تبعاً لأهواء البشر. بل بالصلوات الحارة التي ترتفع إلى السماء قبل شروق الشمس، من قلوب فاتنة باعت الدنيا واشترت الآخرة.

- حسنا. تعالى غدا وسنرى.

فتركته إيزابيلا وهي مسرورة بهذا النصر الذي حصلت عليه بمد أجل أخيها يوما آخر وفتح باب الأمل في العفو عنه. ولهذا هتفت:

- فليحفظ الله علاك وشرفك! صان الله شرفك!

فلما سمع أنجيلو هذا الدعاء غمغم لنفسه:

- أمين. صانني الله منك ومن فضيلتك. ولكن ما هذا؟ هل أحببتها حتى استعذبت حديثها وطلبت أن تحضر غدا لأملأ عيني من وجهها ويكون إفطاري من عينيها؟ ما الذي يدور في نفسي؟ حقا أن الشيطان عدو البشرية اللدود لا يقتنص القديسين إلا بشباك القديسات. لم يحدث من قبل أن امرأة فاجرة حركت قلبي. أما هذه الفاضلة العفيفة فتهزني هزا.. أنا الذي كنت قبل الآن ابتسم متعجبا حينما أسمع برجال استرقهم الهوى وعلقت قلوبهم بالحسان.

* * *

وفي تلك الليلة تعذب أنجيلو بصراعه النفسي أكثر مما تعذب السجين المحكوم عليه بالموت، زار الدوق - متخفيا في زي راهب- الشاب كلوديو وراح يعده لملاقاة ربه بالوعظ والصلاة ويلقنه كلمات الاستغفار...

أما أنجيلو فظل يتوجع من وسوسة نفسه ورغبته الآثمة. وبات يفكر كيف يغوي إيزابيلا الطاهرة عن طريق الشرف والطهر. ثم ينقلب نادما مستفظعا جريمته تلك. ولكن نواياه الشريرة تغلبت في النهاية. حتى عول أن يرشو الحسناء العفيفة ليستولي على عفافها برشوة ضخمة هي حياة شقيقها كلوديو.

فلما حضرت إيزابيلا في الصباح أمر أنجيلو بإدخالها بمفردها وعندئذ صارحها أنها إن قبلت أن تمنحه شرفها العذري وتزل معه كما زلت جولييت مع كلوديو، فسوف يمنحها حياة أخيها. لأنه يحبها.

– إن أخي كان يحب جولييت جدا ومع هذا عاقبته بالموت.

–ولكن كلوديو سوف لا يموت إذا أنت وافقت أن تزوريني خلسة تحت جنح الليل كما تسللت جولييت ليلا من دار أبيها لتلقي كلوديو.

– إنني مستعدة أن أضحي في سبيل أخي بما كنت أبذله في سبيل نفسي. ولكني أظنك تقول لي ذلك لتختبر عفتي فقط.

– اقسم لك بشرفي أنني جاد فيما قلته.

– ويا له من قسم بشرفك، له كل القيمة وأنت تتحدث عن هذا المراد!

– إني أطالبك يا أنجيلو أن توقع الآن العفو عن أخي وإلا سأملأ أسماع الناس بحقيقتك.

– من ذا الذي سيصدقك يا إيزابيلا. فإن اسمي النظيف وذيلي العفيف وحياتي المستقيمة ستكون حجة ضد اتهاماتك. ليس أمامك من سبيل لافتداء أخيك إلا بالرضوخ لرغبتي. أو يموت غدا. أما أنت فقولي ما تشائين، فإن بهتاني سيكون أرجح من صدقك. وإني أمهلك إلى الغد لتراجعي نفسك.

* * *

وخرجت إيزابيلا وهي تتساءل، من يصدقها فعلا إن قالت الحقيقة؟ فقصدت إلى السجن حيث وجدت أخاها يتحدث إلى الدوق الذي كان قد زار في زي الرهبان، صديقتها جولييت وبذلك استطاع أن يحمل العاشقين على إدراك مدى إثمهما.

وكانت جولييت قد توسلت إلى ذلك الراهب المجهول أن يصدقها حين اعترفت له أن اللوم يقع عليها أكثر من كلوديو. وأنها رضخت له عندما راودها عن عرضها بطيب خاطر وهي تعلم ما هي مقدمة عليه، لأنها كانت تهواه من زمن وترغب في معاشرته.

ودخلت إيزابيلا وأخاها مختل بذلك الراهب فطلبت الإذن لها بالانفراد بأخيها برهة. فانسحب الدوق ولكنه طلب من السجان أن يخفيه في مكان يستطيع أن يسمع حديثهما.

وأخبرت إيزابيلا شقيقها أن يستعد للموت في الغد. فسألها بلهفة.

– ألا من حيلة؟ ألا من وسيلة؟

– بلى. هناك وسيلة ولكنك إن وافقت عليها فكأنك تعريت من شرفك لتعيش عريانا من الستر.

– خبريني ما هي؟

– لا أريد أن أقول لك فإني أخشى عليك من الفتنة. فتنة سنوات قليلة أو كثيرة تضيفها إلى عمرك فتكون أغلى في نظرك من الشرف والسمعة. فلا تخف الموت يا أخي. فإن الحشرة التي نسحقها بقدمنا تجد من عذاب الموت ما يجده أشد الرجال.

– أتظنيني طفلا أو جبانا؟ لماذا هذا التحميس. اعلمي أني ألقى الموت حين

ينبغي، لقاء المستهام.

- اعلم إذن أيها الأخ الكريم أنك ستموت وقد انبغي الموت! أتصدق يا أخي كلوديو أن هذا المتظاهر بالقداسة نائب الدوق راودني عن نفسه كي يمنحني حياتك؟ لو أنه طلب حياتي لبذلتها كما أبذل إبرة بغير مبالاة.

- شكرا لك يا أختاه. إني مستعد أن أموت غدا. فلئن كان الموت مروعا. فإن العار شيء كريه. كريه نعم ولكن الحياة جميلة. ألا يمكن يا أختي أن نحتال بطريقة أتجنب بها الموت؟ دعيني أعيش.

- بالإثم والعار؟

- إن الإثم الذي تنقذين به حياة أخ ستعده السماء فضلاً لك.

- يا لك من جبان لا مبدأ له! يا لك من وغد خسيس! أتشتري الحياة بعار شقيقتك؟ سحقا لك! كنت أظنك على شيء من الشرف.فترى أنه لو كانت لك عشرون رأساً تبذلها على عشرين نطعا لاستهنت بذلك قبل أن تدفع بأختك إلى مهاوي العار.

- أتوسل إليك ألا تنصرفي هكذا. اسمعيني!

بيد أن توسلاته إلى أخته دفاعا عن ضعفه وخوره قوطعت بدخول الدوق فجأة وهو في زي الرهبان طبعا، قائلا:

- لقد سمعت حديثكما يا كلوديو. وأنا واثق أن أنجيلو ليس في نيته الاعتداء على عفتها. وإنما كل مراده أن يمتحن تلك العفة. وأنا واثق أيضاً أن رفضها واستنكارها نزل عليه بردا وسلاما. فلا أمل إذن أن يعفو عنك. فاترك التعلق بالأوهام وانفق ساعاتك الباقية في الصلاة والاستعداد للقاء الله.

فاستغفر كلوديو أخته عن ضعفه. ثم عاد إلى زنزانته مهموما وقد زادت عليه

وطأة الموت الرهيب بوطأة الضمير.

* * *

ولما أصبح الدوق وإيزابيلا وحدهما أثنى على تمسكها بالفضيلة والعفة، ومجد الخالق الذي منحها مع الجمال الطهارة والعصمة.

فقالت:

– كم أنتم مخدوعون جميعا في أنجيلو. ولو أن دوقنا الطيب عاد واستطعت أن أكلمه لكشفت له القناع عن حقيقة هذا النائب.

– كل هذا جائز. ولكن أنجيلو في هذه الظروف يستطيع أن ينكر التهمة. ومع هذا فإني أعتقد أنك لو اتبعت إرشاداتي لأنقذت أخاك من قانون قاس من غير أن تلوثي شرفك.

– إني مستعدة أن أصنع أي شيء مهما كان عسيراً بشرط ألا يتعارض مع الشرف.

– أنت جريئة القلب. وهذا شأن الأطهار الشرفاء دائماً. فهل تعرفين ماريانا شقيقة فردريك القائد الذي غرق في البحر منذ زمن؟

– سمعت بهذه السيدة وسمعت عنها ثناء كثيرا.

– إنها زوجة أنجيلو. ولكن مهر زواجها كان في السفينة التي غرقت بأخيها. ففقدت في يوم واحد أخاها ومحبة خطيبها الذي رفض إتمام الزواج بعد أن غرق مالها. وزعم أنه اكتشف فيها ما يثلم الشرف فتركها لدموعها بلا رحمة. وكان من الواجب أن يقضي هذا الجور على حبها لأنجيلو. ولكن العكس هو الذي حدث. فازدادت ماريانا تعلقا بزوجها الغادر.

وبعد ذلك أوضح لإيزابيلا خطته، وتتلخص في التوجه إلى أنجيلو لتقول له أنها وافقت على رغبته. وتتسلل إليه في نصف الليل لتحصل على العفو. وسيتعهد أن تذهب ماريانا في ثيابها لتقضي الليل مع أنجيلو وتأتيها بالعفو. والظلام سيمنعه من تبين الحقيقة ثم أضاف فقال:

-... ولا تخافي يا ابنتي أن يكون في ذلك إثم. فإن أنجيلو تزوجها بشرع الكنيسة. ولكنه رفض أن يعاشرها بعد إفلاسها.

فراق هذا المشروع لإيزابيلا. وتوجه الراهب المزعوم ليمهد الأمر لدى ماريانا. وكان قد زارها في ثياب الرهبان واعترفت له قبل ذلك بحقيقة قصتها. فكان ذلك أول شعاع من النور عرف في ضوء الدوق حقيقة معدن نائبه المتظاهر بالقداسة.

ولما كانت ماريانا تثق في هذا الراهب الطيب. فقد فرحت لتدبير رجل الله ذلك التقريب الذي تتمناه بينها وبين حبيب قلبها الهاجر.

* * *

ولما عادت إيزابيلا بعد مقابلتها لأنجيلو توجهت إلى بيت ماريانا حيث ضرب لها الدوق موعدا لمقابلته هناك. فاستقبلها وسألها عما فعلته مع النائب أنجيلو، فقالت له:

- يمتلك أنجيلو بستانا يحيط به سور من الطوب. وفي الجهة الغربية من هذا البستان كرم. ويفضى إلى هذا الكرم باب. وهذا المفتاح الذي أعطانيه أنجيلو أفتح به بوابة الكرم. أما هذا المفتاح الصغير فأفتح به بابا صغيرا يفضي من الكرم إلى البستان. وقد وعدته أن أذهب في نصف الليل لزيارته هناك. وأخذت منه وعدا مؤكدا بضمان حياة أخي. وقد أعاد علي مرتين وصف الطريق.

– وهل لم يتفق معك على علامة أخرى يجب أن تراعيهاماريانا؟

– كلا. لا شيء كل ما هناك أنني سأذهب في الظلام وقد نبهته أنني سوف لا أمكث طويلا لأن خادما سيأتي معي. وهو يعتقد أنني ذاهبة لزيارة شقيقي خلسة.

–وعليك يا سيدة ماريانا أن تقولي لأنجيلو عندما تهمين بمغادرته بصوت منخفض ناعم "والآن تذكر أخي".

* * *

وفي تلك الليلة توجهت ماريانا إلى مكان اللقاء المعين. وإيزابيلا تعتقد أن هذه الحيلة ستنقذ شرفها وحياة أخيها في آن واحد. ولكن الدوق لم يكن مطمئنا على حياة أخيها لسوء ظنه بأنجيلو. فذهب في منتصف الليل إلى السجن. وكان هذا لحسن حظ كلوديو. لأنه لولا ذلك كان حكم الإعدام سينفذ قبل الفجر. وبعد دخول الدوق إلى السجن بقليل وصل إلى المأمور أمر من أنجيلو بتنفيذ الحكم وإرسال رأسه إليه في الخامسة صباحاً.

واستطاع الدوق أن يقنع المأمور بعدم التنفيذ، وأن يرسل إلى أنجيلو رأس سجين حضرته الوفاة في السجن ذلك اليوم. ولكي يحمل المأمور على الاقتناع أبرز له خطابا بخط الدوق وختمه يأمر كل إنسان بطاعة الراهب حامل تلك الرسالة فظن مأمور السجن أن هذا الراهب رسول سري من الدوق يحمل أوامره أثناء رحلته. فلم يعدم كلوديو، وقطع رأس الميت وبعث به إلى أنجيلو.

وجلس الدوق بعد ذلك فكتب باسمه الحقيقي خطابا إلى أنجيلو يخبره فيه أن ظروفا طارئة حالت بينه وبين إتمام رحلته، ولهذا سيصل إلى فيينا في صباح اليوم التالي، وطلب إلى أنجيلو أن يلقاه عند مدخل المدينة ليسلمه سلطاته. وأمر أن

يطوف المنادون بين الناس أن كل من له ظلامة من الرعية يستطيع أن يعرض مظلمته على سمو الدوق في الشارع الرئيسي عند أول دخوله المدينة.

* * *

وفي الصباح الباكر حضرت إيزابيلا إلى السجن فوجدت الدوق في انتظارها بثياب الرهبان وقد عزم أن يكذب عليها لغرض في نفسه. فلما سألته:

– هل أرسل أنجيلو أمر العفو عن كلوديو؟

– أنجيلو يا ابنتي خلص كلوديو من هذا العالم الحقير. قطعت رأسه وأرسلت إلى النائب قبل الفجر!

فصاحت إيزابيلا ولطمت خديها وناحت على شقيقها وهي تلعن أنجيلو. فأخذ الراهب يحاول تعزيتها. ثم أخبرها بقرب عودة الدوق. وبالكيفية التي تستطيع بها عرض مظلمتها ضد أنجيلو في الطريق العام. وأوصاها ألا تكترث ولا تخاف إذا بدت الأمور في أولها ضد مصلحتها. فنهاية التحقيق لابد أن تنصفها.

وبعد أن زود إيزابيلا بكل هذه التعليمات ذهب إلى بيت ماريانا ولقنها ما ينبغي أن تفعله أيضاً.

وأخيراً خلع الراهب ثياب الكهنة وارتدى الأردية الملكية. وعلى هذه الصورة دخل مدينة فيينا بين هتاف رعاياه وتهليلهم. حيث استقبله أنجيلو وسلمه السلطات المخولة له حسب الأصول.

وبعد ذلك ظهرت إيزابيلا مقرحة العينين من الدموع وصرخت في الطريق متظلمة تطلب العدل من الدوق:

– أنصفني يا مولاي! أنا شقيقة كلوديو الذي حكم عليه بالإعدام لإغوائه فتاة. وتوسلت إلى اللورد أنجيلو ليعفو عن أخي. ولا حاجة بي يا مولاي أن أذكر

لك كيف توسلت وركعت وكيف زجرني فذلك شيء يطول شرحه. ولكن النتيجة كانت أشأم مما يتصوره العقل ويجسر على التفوه به اللسان. فإن أنجيلو لم يقبل أن يعفو عن أخي إلا إذا أبحته عرضي. وبعد أخذ ورد طويلين بيننا تغلبت عاطفة الإخوة على تمسكي بالعفاف وأبحته نفسي. ولكن في الصباح التالي نكث أنجيلو وعده وأرسل إلى السجن يطلب رأس أخي.

وتصنع الدوق أنه لا يصدقها. وقال أنجيلو:

– إن حزنها لوفاة أخيها بحسب العدل والقانون سبب اختلالا في عقلها. فخيل إليها هذا الهذيان.

وعندئذ بدأ فصل آخر في المكيدة إذ تقدمت ماريانا وقالت للدوق:

– يا مولاي النبيل. كما أن النور يشرق من السماء والحق يصدر عن النفس، والصدق والعقل يصدران عن الحق، والحق هو قوام الفضيلة. كذلك أنا يا مولاي زوجة هذا الرجل أنجيلو. وأنا أشهد أن هذه الفتاة كاذبة، لأن الليلة التي تزعم أنها قضتها مع أنجيلو، كنت أنا أقضيها معه في بيته القائم في بستانه. وإني أناشد الله إن كنت صادقة أن يتركني أنهض بسلام. وإن كنت كاذبة أن يمسخني على الفور حجرا.

وعندئذ طولبت إيزابيلا ببرهان على صدقها. فاستشهدت بأقوال الأب الراهب لودوفيك، وهذا هو الاسم الذي كان الدوق اتخذه وهو متنكر على هيئة الرهبان.

واستبشر أنجيلو من تضارب الأقوال بين المرأتين. فتصنع الألم وقال للدوق:

– لقد لبثت إلى الآن متغاضيا عما قيل. ولكن صبري فرغ يا مولاي. وأعتقد أن هاتين المرأتين من أدوات مضلل يتآمر على سمعتي. فاسمح لي يا مولاي أن

أمحص هذه المؤامرة.

– بكل سرور. ولك أن تعاقب الجناة أي عقاب يرضيك.

– وأنت يا لورد أسكالوس اذهب مع اللورد أنجيلو. وعاونه في كشف هذه المؤامرة، والتنقيب عن ذلك الراهب الذي أوعز إلى هاتين المرأتين بتشويه سمعته. ومتى عثرت عليه يا أنجيلو فعاقبه بما تشاء. أما أنا فأستأنف مسيري. وأترككما لا تبرحان إلى أن تجلوا الحقيقة.

ثم استأنف الدوق سيره وترك أنجيلو بعد أن عينه قاضيا في قضيته، فصار هو الخصم والحكم.بيد أن غيبة الدوق لم تطل إلا ريثما خلع ثيابه الملكية وارتدى زي الرهبان ثم تقدم بين يدي أنجيلو واسكالوس.

وكان اسكالوس الطيب القلب يظن أنجيلو بريئاً مما نسب إليه. لذلك قال للراهب المزعوم:

– هل أوحيت إلى هاتين المرأتين يا سيدي أن تسيئا إلى سمعة اللورد أنجيلو؟ أريد جوابا صريحا.

– وأين هو الدوق؟ إنه هو الذي يجب أن يسمعني.

فقال اسكالوس:

– إن الدوق هو نحن. سلطته مخولة لنا. فنحن الذين سنسمعك. فتكلم بالصدق والحق.

– ومن يتكلم بالصدق لا يبالي في الحق شيئا. إنني ألوم الدوق لأنه تنكب العدل إذ ترك قضية إيزابيلا في يد خصمها الذي اتهمته!

ثم استطرد الراهب يندد بكثير من المظالم التي رآها أثناء جولاته في فيينا.

وكان جريئا في كلامه شديدا. حتى أن اسكالوس هدده بالتعذيب لتطاوله على الدولة وانتقاده تصرفات الدوق. وأمر به أن يزج في السجن.وكم كانت دهشتهم جميعا حين رأوا هذا الراهب المزعوم يخلع عنه زي الرهبان ليروا فيه الدوق بلحمه ودمه.

وأول ما فعله الدوق أنه توجه بالخطاب إلى إيزابيلا:

– تقدمي يا إيزابيلا. إن راهبك صار الآن أميرك. ولكني لم أغير نيتي مع تغيير ثوبي. فما زلت مخلصا في خدمتك.

– ملتمسي الوحيد أن تعفو عني يا مولاي. لأني وأنا رعيتك استخدمت وأزعجت سموك من غير علم.

– بل أنا الذي أسألك الصفح لأني لم أوقف إعدام أخيك.

فإن اللورد لم يشأ حتى في تلك اللحظة أن يخبرها أن أخاها على قيد الحياة. لأنه أراد أن يختبر أولا معدنها بذلك الاختبار القاسي.

وأما أنجيلو فأدرك أن الدوق لم يغادر فيينا. وأنه كان مطلعا على أفعاله الخبيثة، لهذا قال له:

– لن أزيد موقفي سوءا يا مولاي بالمكابرة وأنا أعلم أنك كنت ترقب سلوكي في غيابك. فلا تطل يا مولاي عاري. وليكن اعترافي هو محاكمتي. إني أعترف حتى لا يكون هناك محل لفضيحة المحاكمة. وكل الذي ألتمسه أن يصدر حكمك بالإعدام الناجز فورا.

– إن أغلاطك واضحة يا أنجيلو. ولهذا نأمرك أن تلقي حتفك على النطع نفسه الذي أعدم فوقه كلوديو. وبنفس السرعة التي استخدمت معه. وأما ممتلكاتك فإنا نخلعها على ماريانا أرملتك لتحصل بها على زوج أفضل منك!

فركعت ماريانا وقالت للدوق:

– مولاي. لا رغبة لي في خير منه ولا أفضل. لا أريد سواه. وأتوسل إليك يا إيزابيلا أن تضمي صوتك لصوتي! أعيريني ركبتيك! أركعي معي وناشدي الأمير رحمته وصفحه أكن مدينة لك طوال حياتي!

فقال الدوق عندئذ:

– إنك تكلفين إيزابيلا أمرا عسيرا. فلو ركعت معك تطلب العفو عن حياة أنجيلو، فإن روح أخيها ستنزعج لذلك وتهب من مرقدها الأخير!

ولكن ماريانا استمرت تناشد إيزابيلا:

– اركعي يا إيزابيلا، أركعي فقط ولا تتكلمي، سأتكفل أنا بالكلام.

فقال الدوق:

– إنه سيموت من أجل كلوديو.

وإذا بإيزابيلا تركع أمامه وتقول:

– أرجوك يا مولاي الرحيم أن تعتبر كأن أخي لم يزل على قيد الحياة. وأنا شخصيا أعتقد أنه كان مخلصا في حكمه إلى أن وقع نظره علي. فهو لم يحكم إلا بمقتضى القانون، وأخي اقترف حقا ما استوجب به العقوبة.

وكان خير جواب يستطيعه الدوق على هذا التوسل النبيل من جانب إيزابيلا بالصفح عن عدوها، هو أن يبعث في طلب كلوديو من السجن حيث كان راقدا لا يدري شيئاً عن مصيره المعلق.

ثم قال الدوق لإيزابيلا:

– أعطني يدك يا إيزابيلا. فمن أجل عفوك عن كلوديو. وبمجرد أن تقبليني زوجا

سيكون كلوديو لي أخا.

وأدرك أنجيلو على الفور أنه نجا ما دام الدوق قد اتجه هذا الاتجاه. فلما رأى الدوق عينيه تشرقان بالسرور قال:

– وأنت يا أنجيلو اجتهد أن تحب زوجتك. فإن توسلاتها هي التي حصلت لك على العفو. إنك حقا سيدة نادرة المثال يا ماريانا! أنا الذي تلقيت اعترافها بصفتي راهبا يا أنجيلو وأضمن لك عفتها وطهرها.

وأمر الدوق بعد ذلك كلوديو أن يتزوج جولييت. وأعلن خطبته لإيزابيلا التي أسرت بخلقها وجمالها لبه.

ولما كانت إيزابيلا لم تتخذ المسوح رسميا فلها الحرية أن تتزوج. وهذا ما أعلنته بكل سرور.

ولما أصبحت إيزابيلا دوقة فيينا استطاعت بقدرتها الصالحة أن ترد نساءها إلى التمسك بالعفاف والفضيلة، من غير حاجة إلى ذلك القانون الغاشم.

الليلة الثانية عشرة

سباستيان وأخته فيولا شقيقان توأمان من سادة مسالينا. وكانا موضع العجب منذ صغرهما ذلك التشابه التام إلى درجة التطابق فلولا اختلاف ثيابهما لما استطاع أحد أن يميز بينهما.

كانت ولادتهما في ساعة واحدة. وكذلك تهددهما خطر الموت في ساعة واحدة إذ تحطمت سفينة كانا مسافرين عليها على شواطئ إيلليريا. إذ قامت زوبعة عاتية قذفت بالسفينة فوق صخرة. ولم ينج من الموت المحقق إلا عدد ضئيل من ركابها.وتمكن ربان السفينة وبعض البحارة الذين نجوا من ركوب زورق إلى البر. واحضروا معهم فيولا. وبدلاً من أن تبتهج المسكينة بنجاتها من الهلاك أخذت تنتحب لفقدان شقيقها. فجعل الربان يسري عنها مؤكدا لها أنه لمح شقيقها حينما انقسمت السفينة يربط نفسه إلى شراع قوي حمله الموج إلى بعيد.

ووجدت فيولا شيئا من العزاء في هذا الأمل. ثم شرعت تفكر كيف تستطيع الحياة بمفردها وهي آنسة ضعيفة بعيدة عن وطنها. وسألت الربان هل يعرف شيئا عن بلاد ايلليريا فقال:

– أعرفها جيدا يا سيدتي، لأني ولدت على مسيرة ثلاث ساعات من هذا الموضع الذي نقف فيه الآن.

– ومن الذي يحكمها؟

– الدوق أورسينو. وهو رجل شريف النفس وشريف المقام.

– لقد سمعت أبي يتحدث عن الدوق أورسينو وأنه كان أعزب!

– وهو لم يزل كذلك إلى الآن. أو هكذا كان على الأقل إلى نحو شهر مضى فيما أعلم. لأني منذ شهر تقريباً كنت هنا وسمعت شائعة تتناقلها أفواه الناس أنه يخطب ود حسناء اسمها أوليفيا. وهي فتاة فاضلة كريمة ابنة كونت توفي منذ سنة عنها وعن شقيق يرعاها. فلم يلبث الشقيق أن مات فحزنت عليه أوليفيا حزنا شديدا وكرهت الحياة وحرمت على نفسها مقابلة الرجال وصحبتهم.

ولما كانت فيولا تشعر بمثل ذلك الحزن لفقدان أخيها، فقد رغبت في أن تعيش مع هذه السيدة التي حزنت ذلك الحزن الشديد على موت أخيها. وطلبت من الربان أن يبذل وسعه كي يقدمها إلى أوليفيا مبدية عزمها الصادق على الإخلاص في خدمتها.

واعتذر الربان بعجزه عن ذلك، لأن السيدة أوليفيا لا تسمح لأي شخص بدخول بيتها منذ وفاة أخيها، حتى ولا الدوق نفسه.

وعندئذ فكرت فيولا في خطة أخرى أدارتها في رأسها. وهي أن تتخذ زي الرجالا وتخدم الدوق أورسينو بمثابة وصيف. وكان ذلك تفكيرا غريبا منها إذ ليس من المألوف أن ترغب فتاة في الحياة مع الرجال باعتبارها رجلا أو غلاماً. بيد أن وضع فيولا الخاص وتجردها من الحماية في تلك الغربة وهي صغيرة السن بارعة الجمال، جعلها تلتمس الأمان لنفسها في ذلك السلوك.

ولما كانت قد لمست في الربان الأمانة والطيبة والاهتمام براحتها، فقد باحت له بفكرتها. وعلى الفور أبدى استعداده لمساعدتها. وأعطته فيولا نقودا يشتري لها ثيابا لائقة. وأوصته أن ينتقي لها القماش والألوان وطراز التفصيل من نفس الأنواع التي كان يرتديها شقيقها التوأم سباستيان.

ولما ارتدت فيولا ذلك الزي الرجالي بدت نسخة طبق الأصل من ذلك الأخ. وكان ذلك هو الأساس لسلسلة من الأخطاء الغريبة إذ صار الناس يخلطون بينهما، لأن سباستيان قد تمكن من النجاة أيضاً.

ولما كانت للربان بعض علاقات ببلاط الدوق فقد استطاع أن يقدم فيولا إلى الدوق أورسينو تحت اسم مستعار من أسماء الرجال هو سيزاريو.

ودهش الدوق وسر سرورا بالغا بلباقة هذا الغلام الجميل في اللفظ ورشاقته في الحركة والإيماء. فجعل سيزاريو من بين وصفائه المقربين. وتلك هي الوظيفة التي كانت فيولا راغبة في الحصول عليها.

واجتهدت فيولا في القيام بواجبات وظيفتها الجديدة، وأبدت حضور ذهن وإخلاصا تاما لمولاها حتى أصبحت بعد مدة وجيزة أقرب أتباعه إليه. فصرح أورسينو لسيزاريو بقصة حبه كاملة. وكيف أن السيدة أوليفيا التي استأثرت بقلبه ترفض مقابلته. وإن ذلك أثر في حالته النفسية فكره الصيد ورياضات الميدان. وأصبح يقضي وقته في الخمول والاستماع للأدوار الموسيقية الناعمة المخنثة وأغاني الحب الملتهبة المتأوهة. وابتعد عن مصاحبة الحكماء والعلماء والأشراف الذين كان يخالطهم قبل ذلك دائماً.

ووجد الدوق في عطف غلامه الذكي سيزاريو وحسن فهمه راحة لنفسه فصار يلازمه طول النهار ولا يجد السرور والعزاء إلا في صحبته وحديثه.

وبطبيعة الحال بدأ رجال البلاط القدامى ينظرون باسترابة وحسد إلى ذلك الدخيل الطارئ والعشير غير اللائق لمولاهم الدوق.

* * *

وإنه لأمر شديد الخطر للعذارى الصغيرات السن أن يمسين موضع السر

والنجوى للدوقات الشبان ذوي الوسامة والجمال. وهذا ما اكتشفته فيولا بعد قليل. فكل ما كاشفها الدوق من عذابه في حب أوليفيا، بدأت تشعر به في حبها له. وأخذها العجب الشديد كيف أن أوليفيا لا تهتز عواطفها لهذا الشاب الذي ليس له نظير. والذي تعتقد أنه ما من أحد يراه إلا ويشعر له بأعمق عواطف الإعجاب.

وبلباقة أشارت فيولا لأوسينو أنه من المؤسف أن يتعلق بسيدة بلغت هذا المبلغ من العمى عن مزاياه الجليلة. وأضافت:

– لنفرض يا مولاي أن سيدة أحبتك كما تحب أنت أوليفيا. ولعل مثل هذه السيدة موجودة فعلا. فإذا لم تستطع أن تبادلها الحب. ألست جديرا أن تصارحها بذلك. وأليست جديرة أن تكتفي بذلك الجواب؟

بيد أورسينو لم يقتنع بهذا الرأي. وأكد لها بكل شدة أنه لا يمكن لامرأة أن تحب مثل حبه:

– فما من امرأة رزقها الله قلباً كبيرا يتسع لكل ذلك الحب. فليس من العدل يا سيزاريو أن تقيس بحبي لأوليفيا حب أية سيدة لي.

وبطبيعة الحال لم يقتنع سيزاريو بهذا الرأي. لأنه يعرف أن قلبه الذي هو قلب فيولا حافل بحب أورسينو بما لا يقل عما يحمله قلب أورسينو لأوليفيا. ولهذا قال:

– ولكني أعرف يا مولاي..

– ما الذي تعرفه يا سيزاريو؟

– أعرف بوجه اليقين التام أي حب تستطيع المرأة أن تشعر به نحو الرجال. فالنساء يا مولاي أوتين من صدق القلب مثلما أوتينا. فقد كانت لأبي بنت

وكانت تحب رجلا مثلما كنت أنا جدير أن أحبك يا مولاي لو أنني كنت امرأة!

– وما هي قصتها يا سيزاريو؟

– قصة ساذجة بيضاء يا مولاي. كتمت حبها. فجعل الكتمان يأكل خميلة خديها كما تتغذى الدودة على البرعم من داخله. وكانت تشرد صامتة في اكتئاب وصبر لا مزيد عليهما.

– وهل قتل الحب هذه الفتاة؟

وأجابت على هذا السؤال إجابة ملتوية بأن راحت تتحدث عن وصف عذابها وهي تعني التعبير عن حبها هي لأورسينو، فقصة أختها قصة مخترعة لتبليغ الدوق عواطفها من تحت ستار.

* * *

وأثناء الحديث دخل أحد رجال الحاشية وكان الدوق قد أرسله إلى أوليفيا برسالة، فقال له:

– يا مولاي. لم تسمح لي السيدة بالدخول. بيد أنها بعثت مع وصيفتها بهذا الرد: "إنها ستقضي سبعة أعوام تتمشى في حجرتها مقنعة متشحة بالسواد تروي بدموعها ذكرى وفاة أخيها الأليمة".

فلما سمع الدوق ذلك الكلام قال:

– عجبا! إن التي يبلغ من رقة قلبها أن تفي هذا الوفاء لحب أخ مات. ما أجدرها أن تبدع في الحب عندما يلمس السهم الذهبي فؤادها!

ثم التفت نحو فيولا، وقال:

- لقد صارحتك يا سيزاريو بجميع أسرار قلبي. فاذهب أيها الشاب الكريم النفس إلى بيت أوليفيا. ولا تسمح لهم بردك عن الدخول. وقف ببابها وأخبرها أنك لن تبرح مكانك ولو مت جوعا إلى أن تأذن لك بالمثول أمامها.

- وإن أذنت يا مولاي فماذا أقول؟

- عندئذ أفض في شرح مكنونات حبي لها. وأسهب في بيان تعلقي بهواها. وأني أراك تصلح لحمل رسالة قلبي لشبابك الناضر، لأنها قد تكون أكثر إقبالا على الإصغاء لك مما لو كان الرسول أكبر سنا وأهيب مقاما.

* * *

وتوجهت فيولا كما أمرها الدوق. ولكنها لم تكن راضية كل الرضا بطبيعة الحال عن تلك المهمة المحرجة، لأنها ستقوم بالتودد إلى سيدة وإقناعها أن تصبح زوجة للرجل عينه الذي تريد هي أن تتخذه زوجا. بيد أنها ما دامت قد قبلت المهمة فمن الأمانة والولاء أن تؤديها أحسن أداء.وتناهى إلى سمع أوليفيا أن شابا يقف ببابها ويلح إلحاحا شديدا في الدخول إليها. وقالت لها الخادم:

- أخبرت هذا الشاب أنك مريضة فقال أنه يعلم ذلك ولهذا جاء ليتحدث إليك. فقلت له أنك نائمة. فأبدى أنه يعلم ذلك أيضا وأنه مهما يكن الأمر لابد أن يتحدث إليك. فماذا نقول له يا سيدتي؟ لأنه فيما يبدو لا يريد أن يرضخ للرفض. ومصمم على أن يكلمك شئت أم أبيت!

فعجبت أوليفيا وشاقها أن تعرف من هذا الرسول اللحوح. فسمحت له بالدخول وألقت على وجهها نقابها الأسود. وهي موقنة أن الرسول يحمل إليها رجاء آخر من توسلات أورسينو.

ودخلت فيولا وقد اتخذت سمت الرجولة بأقصى استطاعتها وتصنعت

أسلوب الوصفاء من أهل البلاط في تنميق الحديث ثم قالت للسيدة الملثمة:

– يا ذات الجمال الباهر والحسن النادر أتوسل إليك أن تخبريني هل أنت حقا ربة هذه الدار، لأني لا أريد أن أبذل كلماتي لأحد سواها. ففضلا عن أن هذه الكلمات ضيفت بإتقان وإمعان، فقد بذلت جهدا ومشقة في حفظها عن ظهر قلب!

– ومن الذي أرسلك يا سيدي؟

– لا أستطيع أن أقول شيئاً غير الذي أمرت بحفظه. وهذا السؤال ليس وارداً في الدور الذي عهد إلي أداؤه!

– وهل أنت ممثل يا سيدي؟

– ليس تماما، ومع هذا فأنا لست الشخص الذي يؤدي الدور!

وكانت فيولا تعني بذلك طبعا أنها امرأة وليست الرجل الذي تظهر بمظهره أمام الناس!

وكررت فيولا السؤال على أوليفيا هل هي ربة الدار أم لا؟ فلما أجابت أوليفيا بالإيجاب. شعرت فيولا برغبة ملحة في التطلع إلى وجه غريمتها في حب أورسينو. وكان شوقها لذلك الوجه أشد من شوقها لأداء الرسالة المعهودة إليها. فقالت:

– سيدتي الفاضلة. دعيني أرى وجهك.

ولم يقع هذا القول الجريء على أوليفيا وقعا سيئا، لأن تلك الحسناء المتكبرة التي ذهب لديها عبثا طول تحبب الدوق أورسينو إليها، شعرت للوهلة الأولى بالعشق لهذا الغلام المتواضع القدر والمكانة المسمى سيزاريو. ومع هذا قالت:

– وهل أنت مكلف من سيدك بمباحثات تجريها مع وجهي؟

ثم نسيت ما نذرته من لبس اللثام الأسود سبعة أعوام فأماطته عن وجهها قائلة:

– هأنذا رفعت الستار لأظهر الصورة. فكيف تراها؟ أليست متقنة الصنع يا سيدي؟

– إنها تحفة من تحف الجمال. فالحمرة والبياض مزجتهما على خديك يد الطبيعة الصناع. إنك وربي أشد نساء العالمين قسوة إن كنت تنوين حقا إهداء هذه المحاسن كلها إلى القبر من غير أن تتركي للدنيا نسخة منها.

– أواه يا سيدي. لن أظل على هذه القسوة. وللعالم أن يحتفظ بصورة من هذا الجمال. لها شفتان حمراوان وعينان رماديتان من فوقهما هدبان. وعنق وذقن وهلم جرا. فهل بعثك سيدك إلى هنا كي تطري جمالي؟

–إني أراك على حقيقتك. إنك شديدة الكبرياء ولكنك جميلة وطيبة. ومولاي يحبك. ومثل ذاك الحب لا يستحق إلا الإجابة بمثله حتى ولو كنت ملكة متوجة على عرش الجمال. فإن أورسينو يحبك حب متعبد مدرار الدموع تهزه التأوهات والزفرات كأنها قصف الرعود وألسنة النيران!

– إن مولاي الدوق يعرف رأيي جيدا. فأنا لا أستطيع أن أحبه. ولكن لا شك في فضله وعفته. وأعرف له نبله وسمو مقامه ورفيع شأنه وناضر شبابه. والناس جميعا يشهدون له بالتبحر في العلم وحسن الذوق وعلو الأدب وكمال المروءة والإقدام. ولكني مع هذا كله لا أحبه ولا أستطيع أن أحبه. وكان في استطاعته أن يفطن إلى تلك الحقيقة منذ زمن بعيد.

– لو كنت أنا الذي أحبك كما يحبك مولاي. لبنيت لنفسي عشا أمام أبوابك

أظل أنادي منه باسمك. وأنظم الأشعار في الشكوى من أوليفيا وأتغنى بها في سكون الليل. فيرن اسمك بين الجبال والوديان حتى يتداعى الصدى في كل مكان بهتاف واحد هو أوليفيا. وما كنت لأتركك تستريحين ليلا أو نهارا إلى أن تأخذك الرأفة بي.

– إن ذلك كثير. ولكن هل أستطيع أن أعرف نسبك يا سيدي؟

– إن نسبي أعظم من ثروتي. ومع هذا فثروتي لا بأس بها. فأنا سيد شريف المولد.

وأدركت أوليفيا أنها تورطت أكثر مما يجب فقالت بجفاء:

– عد إلى سيدك وقل له إنني لا أستطيع أن أحبه. وقل له ألا يرسل لي أحدا بعد ذلك من طرفه اللهم إلا أن أحببت أنت يا سيدي أن تأتي لزيارتي مرة أخرى لتخبرني كيف وقع على نفسه جوابي؟

وانصرفت فيولا بعد أن ودعت أوليفيا باسم القاسية الحسناء.

وبعد انصراف فيولا جعلت أوليفيا تكرر لنفسها عبارات ذلك الوصيف الجميل عندما سألته عن نفسه. ثم قالت:

– اقسم أنك شريف النسب. فلسانه الفصيح، ووجهه المليح، وقده الرشيق، وإيماؤه الأنيق، وبديهته السريعة، وتلميحاته البديعة. ذلك كله ينم عن أصله العريق وسلالته الصريحة.

ثم تمنت لو أن سيزاريو كان هو الدوق. ثم فطنت إلى مدى اندفاعها في حب وصيف للدوق الذي رفضته. فلامت نفسها على ذلك ولكن من قبيل اللوم الهين اللين الذي يؤاخذ الناس به أنفسهم على أخطائهم.

وسرعان ما نسيت السيدة أوليفيا عدم التكافؤ بين مقامه ومقامها وثروته وثروتها. بل سرعان ما نسيت ذلك التحفظ الأنثوي الذي يزين المرأة أكثر مما

تزينها الجواهر والحلي. فقررت أن تخطب ود ذلك الشاب سيزاريو وتنشد محبته صراحة. فأرسلت وراءه خادما بخاتم من الماس، على زعم أنه تركه لديها هدية من الدوق أورسينو. وفي أملها أنه سيفهم من ذلك التحايل المفضوح أنها تريد إهداءه هذا الخاتم الثمين كناية عما تضمره له.

والواقع أن تلك الهدية جعلت فيولا تستريب في الأمر، لأنها تعلم أن الدوق أورسينو لم يرسل معها أي خاتم هدية لأوليفيا. ثم تذكرت أن محيا أوليفيا كان ينم عن الإعجاب بها. فأدركت أن محبوبة مولاها قد وقعت في شراك حبها. فقالت:

– وا أسفاه! إن السيدة المسكينة كأنما أحبت حلما لا حقيقة له. إن التنكر شيء منكر. فها هو ذا قد دفع أوليفيا إلى أن تحس نحوي بزفرات الجوى التي أشعر أنا بها نحو أورسينو.

* * *

وعادت فيولا إلى قصر الدوق أورسينو. فسردت على مسامع مولاها ما انتهت إليه سفارتها من الفشل. وكررت عليه رغبة أوليفيا ألا يزعجها الدوق بمزيد من الرسل والسفراء.

بيد أن الدوق وجد في مجرد تمكن سيزاريو من مقابلة فاتنته ما يبشر بالنجاح. فسولت له نفسه الأمل في أن لباقة سيزاريو الأريب ستمكنه مع الزمن من إقناع أوليفيا بشيء من اللين والرأفة. ولهذا أمر سيزاريو أن يعود إلى أوليفيا في اليوم التالي.

وكي ينفق فسحة الوقت إلى اليوم التالي في شيء من السلوى. أمر أن ينشد المنشدون له قصيدة قديمة من قصائد الحب، كان يطمئن كثيرا إلى ما فيها من صفاء وصدق وبساطة وحزن.

وكانت هذه القصيدة تسيل رقة وكآبة، بحيث صورت لفيولا حبها اليائس وعذاب قلبها المكتوم. ففاضت تلك الكآبة على وجهها بأبلغ صورة. ولحظ ذلك الدوق أورسينو فقال لها:

- أراهن بحياتي يا عزيزي سيزاريو أنك على حداثة سنك عرفت الحب وغررت بك عينك فاسترقتك لوجه مليح. أليس كذلك يا غلام؟

- عفوك، لا يخلو الأمر من شيء من ذلك.

- وأي طراز من النساء هي؟ وما عمرها؟

- مثل عمرك. ولونها مثل لونك يا مولاي!

فابتسم الدوق من سذاجة الغلام الجميل الصغير السن الذي عشق امرأة أكبر منه بكثير، ولونها أسمر كلون الرجال. وهو لا يعلم أن فيولا لا تعني في الحقيقة سواه. ولا تقصد امرأة تشبهه.

* * *

ولما توجهت فيولا في زيارتها الثانية لأوليفيا. لم تجد أية صعوبة في الحصول على إذن للدخول إليها. فالخدم هم أسرع الناس إلى إدراك شعور سيداتهم نحو رسول جميل تتبسط نفوسهن لتلقيه والتحدث إليه. فبمجرد وصول فيولا فتحت الأبواب على مصراعيها. وأدخل الوصيف إلى حجرة أوليفيا بمظاهرة من الاحترام والحفاوة.

ولما قالت فيولا لأوليفيا أنها جاءت هذه المرة أيضا لتتكلم باسم الدوق، قالت أوليفيا:

- لقد رغبت إليك ألا تتحدث أبدا عنه. ولكن إن كنت تريد الكلام في موضوع آخر لعله يهمك، فإني أوثر سماعك على سماع الموسيقى التي تعزفها أفلاك

السموات.

وكان هذا كلاما واضحا جدا، بيد أن أوليفيا لم تجدر مندوحة من زيادة الإيضاح لما رأته من تغابي الغلام الجميل. فكاشفته بحبها له في غير مواربة.

ولما رأت الاستياء والارتباط يظهران على وجه فيولا قالت:

– لم أر في حياتي نفورا كهذا يبدو بمثل ذلك الجمال في التواء شفتيك بالازدراء والاستنكار! أي سيزاريو! أقسم لك بورود الربيع، وبحق عذريتي وشرفي، أقسم بالحق أني أحبك إلى درجة أنني بالرغم من كبريائي لا أجد حيلة أو وسيلة لكتمان عشقي!

بيد أن غزل السيدة الصريح ذهب هباء. وأسرعت فيولا بالخروج من عندها وهي تتوعدها ألا تحضر أبدا للكلام باسم أورسينو. وكل ما استطاعت أن تظفر به أوليفيا جوابا على توسلاتها الحارة، هو تصميم فيولا الذي عبرت عنه بقولها:

– لن أحب امرأة ما حييت.

* * *

ولم تكد فيولا تغادر دار أوليفيا حتى واجهتها مشكلة عويصة. ذلك أن سيدا من الخطاب الذين رفضتهم أوليفيا فيما مضى سمع تهامس الناس بإقبال هذه السيدة على رسول الدوق. فتحداه هذا الخاطب المنبوذ ودعاه للمبارزة انتقاما منه وغيظا.

فماذا تفعل فيولا المسكينة؟ إنها تبدو في مظهر الرجال. ولكن قلبها قلب امرأة لا شك في ذلك. وإنها على حد تعبيرها تفزع من النظر إلى سيف التشريفة الذي تحمله بحكم المنصب!

ولما رأت فيولا الرجل المخيف يتقدم نحوها وقد شهر سيفه في يده. خطر لها

أن تعترف له أنها امرأة. ولكن قبل أن تقدم على ذلك بعث الله لها من جنبها الفزع وعار الفضيحة على السواء. فإذا بعابر سبيل يقف بينهما وكأنه صديقها المخلص منذ زمن بعيد، وقال ذلك الرجل لخصمها المناجز بكل عزيمة:

- إن كان هذا الشاب أساء إليك. فأنا متحمل تبعة إساءته. وإن كنت أنت المسيء إليه. فسأتحداك للمبارزة عنه.

وقبل أن يتسع الوقت أمام فيولا لشكره على كريم حمايته، أو لتسأله عن السبب الذي دعاه للتدخل مجازفا بحياته. إذا بضباط العدل يهجمون عليه. ويقبضون على ذلك الغريب باسم الدوق ليحاكم على جريمة اقترفها منذ سنوات. فالتفت الغريب إلى فيولا قائلا:

- لقد حل بي هذا بسبب البحث عنك. والآن تحتم عليّ الضرورة أن استرد منك كيس نقودي. وأني لآسف لعدم اتساع الفرصة لخدمتك أكثر من أسفي لما حل بي. أني أراك مذهولا من الدهشة ولكن هون عليك!

والحقيقة أن كلمات الرجل أدهشت فيولا. وصارحته في الحال أنها لم تتشرف بمعرفته من قبل. وأنها بالتالي لم تتسلم منه كيس النقود الذي يتحدث عنه. بيد أنها من أجل ما صنعه معها من المعروف وما أظهره من الشعور قدمت إليه مبلغا صغيرا من المال هو تقريبا كل ما كانت تحمله معها. فإذا الغريب يرد عليها بعنف ويتهمها بالجحود والخيانة. وخاطب الناس المجتمعين قائلا:

- إن هذا الشاب الذي ترونه أمامكم هنا أنا الذي انتزعته من بين أنياب الموت. ومن أجله وحده حضرت إلى ايلليريا وتعرضت لهذا الخطر.

بيد أن الضباط لم يأبهوا كثيرا لما يقوله هذا السجين وأسرعوا يدفعونه أمامهم إلى السجن قائلين له:

– وما لنا نحن وهذا كله؟ هيا أمامنا.

وفيما هو مبتعد يدفعونه أمامهم صاح بفيولا:

– أهذه هي عاقبة صداقتي؟ أهكذا تتخلى عن صديقك يا سباستيان؟

فلما سمعت فيولا الرجل يناديها باسم سباستيان، أوشكت أن تلحق به لولا أن الضباط أسرعوا. ولكنها أدركت أن هذا التخبط نتج لدى الرجل من خلطه بينها وبين شقيقها التوأم. فانتعشت لديها الآمال في وجود شقيقها على قيد الحياة مادام هذا الرجل يزعم أنه أنقذه من الموت.

والحقيقة أن الرجل كان صادقا فيما زعمه. فهذا الغريب اسمه أنطونيو وهو ربان سفينة. وهو بعينه الذي انتشل سباستيان من لجة البحر في سفينته بعد أن كاد يهلك بين الأمواج وهو مربوط إلى الشراع.

ووجد أنطونيو في قلبه ميلا شديدا إلى سباستيان فقرر أن يصحبه أينما ذهب. ولما أعرب الشاب عن رغبته في مشاهدة بلاط الدوق أورسينو، فضل أنطونيو ألا يفارقه وجاء معه إلى ايلليريا، مجازفا في ذلك بحياته لو ضبط هناك لأنه قبل سنوات كان أثناء معركة بحرية قد أصاب بجرح بالغ ابن أخي الدوق أورسينو. وهذه هي الجريمة التي ألقى عليه القبض بسببها الآن.

* * *

وكان أنطونيو وسباستيان قد نزلا إلى الشاطئ قبل التقاء أنطونيو بفيولا بساعات قلائل. فأعطى أنطونيو كيس نقوده لسباستيان كي يستخدم ما فيه بكامل حريته أن أعجبه شيء في المدينة وأراد شراءه. وقال لسباستيان أنه سينتظره في الفندق.

ولما طالت المدة وانقضى الموعد المحدد لعودة سباستيان ولم يعد، جازف

أنطونيو بالخروج ليبحث عنه. ولما كانت فيولا ترتدي ثيابا كثياب سباستيان. وكان شكلها يشبه شكل أخيها تماما. فقد جرد أنطونيو سيفه ظنا منه أنه يدافع عن صديقه الذي أنقذه من الموت سابقا. فلما رأى سباستيان –على حسب اعتقاده أنه هو– يتنصل منه وينكر معرفته ويرفض أن يعطيه كيسه، دهش دهشة عظيمة وصار له العذر أن يتهمه بالجحود.

فأسرعت فيولا بعد انصراف أنطونيو إلى مسكنها خشية التعرض لدعوة أخرى للمبارزة. ولكنها لم تكد تنصرف حتى خيل لخصمها أنه رآها تعود. مع أن الذي عاد في الواقع هو شقيقها سباستيان. لما أبصره الرجل يقترب منه صاح به:

– هل عدت ثانية يا سيدي؟ إذا خذ هذا!

وهجم على سباستيان فصفعه. ولم يكن سباستيان جبانا فرد له الصفعة مع الفوائد والمصاريف، وجرد سيفه.

وكان من أوقف المبارزة في هذه المرة سيدة غريبة على سباستيان تماما. ذلك أن أوليفيا خرجت من بيتها بعد أن أقلقها الحب.

فأخطأت وظنت أن سباستيان هو حبيبها سيزاريو. فدعته للذهاب معها إلى بيتها، وأظهرت له عظيم أسفها لما تعرض له من أجلها.

ومع أن سباستيان دهش من تلطف السيدة أكثر مما أدهشته فظاظة ذلك الخصم الغريب، إلا أنه ذهب معها بكل سرور إلى بيتها. وسرت أوليفيا جدا لما وجدت من ظنته سيزاريو أسهل انقيادا وأكثر إقبالا عليها واستجابة لهواها. فهذا الوجه الذي هو وجه سيزاريو تماما ليست فيه أية مسحة للغضب أو الازدراء كتلك التي كست وجه سيزاريو عندما كاشفته بحبها.

لم يظهر سباستيان أدنى اعتراض للتعلق الذي أبدته هذه السيدة به وأسبغته

عليه. بل تقبل ذلك عن طيب خاطر. وكل ما هناك أنه دهش في أعماق نفسه. وخطر له أن أوليفيا سيدة ليست في كامل قواها العقلية.

وفي الوقت نفسه لاحظ أنها تملك بيتا بديعا، وتأمر وتنهي وتصرف شئونها وشئون أتباعها بكل رزانة وحصافة. وأن كل ما فيها جميل ومعقول ما عدا هذا الحب الذي صبته على رأسه صبا. فلم يجد بأسا في تقبل ذلك الحب.

وأوليفيا من جهتها ابتهجت بهذا التغير الذي طرأ على سيزاريو. وخشيت أن يغير رأيه فيعود إلى نفوره. فاقترحت عليه أن تدعو قسيسا موجودا في ضيافتها بالدار فيعقد زواجهما في الحال.

ووافق سباستيان على هذا الرأي. وعقد لهما القسيس على عجل. وبمجرد الانتهاء من مراسم الزواج استأذن سباستيان من عروسه أن يغيب برهة قصيرة، ريثما يبلغ صديقه أنطونيو الذي ينتظره في الفندق بالحظ الحسن الذي صادفه.

وفي هذه الأثناء حضر أورسينو بنفسه لزيارة أوليفيا. وفي لحظة وصول موكبه أمام باب دارها جاءه رجال الضبطية القضائية بسجينهم أنطونيو ليقضي فيه قضاءه وكانت فيولا في معية الدوق أورسينو مولاها.

وبمجرد أن وقع نظر أنطونيو على فيولا التي لم يزل يظنها سباستيان. صرخ أنطونيو يروي للدوق كيف أنقذ ذلك الفتى من الهلاك في البحر. وسرد بجميع التفاصيل كل ما صنعه من المعروف مع سباستيان. ثم ختم شكواه منه بقوله أن له ثلاثة أشهر لم يفارق هذا الشاب الجاحد ليلا ولا نهارا!

ولكن في هذه اللحظة خرجت السيدة أوليفيا من دارها. فلم يعد في مقدور الدوق أورسينو أن يصغي لقصة أنطونيو وقال:

– ها هي ذي الكونتس قادمة. ها هي ذي السماء تسير على الأرض! أما أنت

أيها الرجل فكلامك كله هذيان مجانين. فطيلة هذه الشهور الثلاثة وهذه الكونتس سرعان ما قدمت للدوق مبررا لاتهام سيزاريو بالجحود والخيانة كما اتهمه بهما أنطونيو. ذلك أن كل كلمات الملاطفة التي استطاع الدوق أن يسمعها من أوليفيا كانت غزلا صريحا منها في معبودها سيزاريو!

ولما وجد الدوق أن وصيفه أحرز تلك المكانة العالية في قلب أوليفيا توعده بجميع ألوان العذاب التي يستطيعها انتقامه العادل. ولما تهيأ للانصراف نادى فيولا أن تتبعه قائلا:

– هيا يا غلام معي. فقد طابت نفسي للشر!

ومع أن ثورة الغيرة التي تجلت لدى أورسينو كانت حرية أن تجعله يقتل فيولا فورا. إلا أن شدة حب فيولا له تغلبت على خوفها. فقالت له بكل ثبات:

– أني استقبل الموت بابتهاج ما دامت فيه راحة مولاي.

بيد أن أوليفيا ما كانت لتفقد زوجها بهذه السهولة فصرخت:

– إلى أين أنت ذاهب يا عزيزي سيزاريو؟

فأجابتها فيولا قائلة:

– أني ذاهب وراء من أحبه أكثر من الحياة!

فأسرعت أوليفيا تمنع الموكب من المسير وتصرخ في الدوق أن سيزاريو هو زوجها بشريعة الله. ثم أرسلت فدعت القسيس الذي شهد أمام الدوق أن السيدة أوليفيا تزوجت منذ أقل من ساعتين من هذا الشاب!

وعبثا صاحت فيولا تحتج أنها لم تتزوج أوليفيا. فإن شهادة السيدة وشهادة القسيس حملتا أورسينو على الاعتقاد أن وصيفه سلبه الكنز الذي كان عنده

أغلى من الحياة نفسها.

ولكن الدوق العاقل أدرك أنه أمام الأمر الواقع ولا حيلة له في تغيير ما حدث. فودع أوليفيا وزوجها الخائن الصغير وهم بالانصراف وهو يحذر فيولا ألا تريه وجهها بعد ذلك وإلا قتلها.

وفي هذه اللحظة بالذات حدثت معجزة!

فقد رأى الجميع سيزاريو آخر يظهر ويخاطب أوليفيا باعتبارها زوجته. وكان هذا السيزاريو الآخر هو سباستيان الزوج الحقيقي لأوليفيا.

وبعد أن زالت صدمة الدهشة الأولى التي نتجت عن مشاهدة شخصين لهما الوجه نفسه والصوت نفسه والثياب نفسها. أخذ كل من الشقيقين يسأل الآخر. لأن فيولا كانت لا تكاد تصدق أن شقيقها حي. ولأن سباستيان لم يعرف كيف يفسر عثوره بشقيقته التي ظنها غرقت وهي في ملابس الرجال. ولكن فيولا لم تلبث أن أقرت أنها شقيقته فيولا متنكرة في زي الفتيان!

ولما تم جلاء كل هذه الأخطاء التي تسبب فيها التشابه المطلق بين التوأمين. ضج الجميع بالضحك حتى السيدة أوليفيا التي وقعت في حب امرأة مثلها! ولم تظهر السيدة أوليفيا تأففا من هذا البدل الذي منحها حقيقة رجل وراء مظهر الرجال الذي أحبته في فيولا. بل أنها ابتهجت لزواجها من الأخ الذي يصلح لها بدلا من الأخت التي ما كانت لتصلح.

* * *

وأما عن الدوق أورسينو فقد تبخر كل أمل له في الزواج من أوليفيا. وكأنما تبخر الحب نفسه مع تبخر الأمل. وانحصر اهتمامه كله في تابعه الجميل سيزاريو الذي انقلب فتاة حسناء.

وتذكر الدوق كيف كان يعجب دائما لجمال وصيفه الرائع. ثم تذكر كيف أن هذا الوصيف كان يكرر عليه دائما أنه يحبه. فكان يظن ذلك من ألفاظ المجاملة ومبالغة من الفتى في الولاء. أما الآن فقد أدرك المغزى الحقيقي لتلك العبارة. واتضحت في ذهنه كثير من ألفاظ سيزاريو التي كان يحسبها ألغازا.

وعندئذ قرر أن يتخذ فيولا زوجة له. فقال لها وهو تحت تأثير العادة القديمة في مخاطبتها:

– والآن أيها الفتى سيزاريو. لقد قلت لي ألف مرة أنك لن تحب امرأة مثل حبك لي. ولأجل الخدمات الصادقة التي أديتها لي. ولما ثبت لي من إخلاصك لمولاك. فستكون منذ الآن زوجة سيدك ودوقة شرعية لزوجك أورسينو.

ولما أدركت أوليفيا أن أورسينو قدم القلب الذي طالما رفضته بفظاظة إلى أخت زوجها فيولا. دعتهما لدخول دارها. وعزمت عليهما بتقديم خدمات القسيس الذي أتم عقد زواجها على سباستيان في الصباح كي يعقد زواج الدوق أورسينو على فيولا.

وهكذا تزوج الشقيقان التوأمان في يوم واحد كما ولدا في يوم واحد، وكما تعرضا للغرق في يوم واحد. فكانت تلك العاصفة التي فرقتهما ثلاثة أشهر هي السبب أو الوسيلة في صعود نجمهما واكتمال سعدهما. إذ أصبحت فيولا زوجة لأورسينو دوق ايلليريا. وأصبح سباستيان زوج الكونتس النبيلة الجميلة الغنية السيدة أوليفيا.

متلاف أثينا

كان تيمون سيدا في القمة بين نبلاء الأقدمين، ورث ثروة طائلة. وكان سخيا جوادا لا يعرف لسخائه حدا. ولم تكن ثروته لينضب معينها رغم سخائه، لو ظلت في حدود المعقول أو شبه المعقول. لولا أنه كان يلقيها على جميع صنوف الناس وطوائفهم وطبقاتهم. لم يكن يغدقها على الفقراء فقط. بل أن كبار الأشراف كانوا لا يأنفون أن يسلكوا أنفسهم في عداد أتباعه والمحسوبين عليه. فمائدته مبسوطة على الدوام لكل من يرغب في أفخر المآكل. وأبواب بيته مفتوحة لجميع الغادين والرائحين في أثينا.

وكان لهذا الكرم العظيم والثراء الواسع أثرهما في إخضاع جميع القلوب لمحبته. فأصبحت نفوسهم ميالة إلى خدمته سواء في ذلك المتملق الذي وجهه كالمرآة تعكس صورة مزاج مولاه، إلى الشكوكي الخشن الطباع الذي يتظاهر بكراهة الناس وعدم الاكتراث بزخرف الحياة ولذاتها. فظرف هذا الرجل كان كفيلا بالقضاء على كل مقاومة في قلب المستريب وكاره البشر. حتى كان الواحد منهم يعتقد نفسه أسعد الناس إن عاد بعد التمتع بجوده وبذخه ظافرا بإيماءة من تيمون أو تحية.

وحينما كان الشاعر العظيم ينظم قصيدة ويلتمس تقديمها يزكيها لدى الناس. لم يكن ليجد تزكية لها أفضل من إهدائها إلى تيمون. فيضمن لها بذلك الرواج والانتشار وكثرة البيع، فضلا عن نفحة مالية كبيرة من هذا الراعي الفذ للفنون، ورخصة بالدخول يوميا إلى بيته والتمتع بمكارم مائدته وشرف مجالسته.

وحينما يرسم الرسام صورة ويريد بيعها بربح كبير، كان يأخذها إلى تيمون

وهو يتصنع الرغبة في استشارته في أمر مزاياها. فكان هذا يكفي جدا ليقدم هذا النبيل الجواد على شرائها فورا.

وإذا كان لدى الجوهري حجر كريم، أو لدى التاجر قماش فاخر نادر، ويعجزان عن بيعهما لغلو ثمنهما، فإنهما يجدان في بيت تيمون سوقا نافقة لا شك فيها، أبوابها مفتوحة لا تريد بائعا. وسيشتري تيمون الحلية أو الثوب بأضعاف ثمنهما ثم يشكرهم أيضاً لأنهم أتاحوا له فرصة اقتناء ذلك الشيء الجميل.

فلا عجب بعد ذلك أن تغص الدار بأشياء لا لزوم لها ولا نفع إلا أن تهيئ الأبهة والزينة والفخامة. وأصبح وقت تيمون مشغولا على الدوام بهذا الزحام من الزوار المتسكعين والشعراء الكذابين والرسامين والتجار الغشاشين، واللوردات والسيدات، ورجال البلاط المحتاجين لقروض أو هبات. وكلهم يملئون أذنيه بالتملق. وكأنه صنم كبير يرفعون إليه القرابين والبخور. ويضفون القداسة على كل شيء يخصه حتى الركاب الذي يمتطي به جواده: فمن يسمعهم يحسبهم لا يتنسمون الهواء إلا بفضل جوده وكرمه.

وكان من بين هؤلاء الأتباع شبان من سلالات الأشراف لا تضاهي مواردهم مكانتهم ولا تسمح لهم بالتبذير في النفقة. فركبتهم الديون وسجنهم دائنوهم إلى أن استنقذهم ووفى ديونهم عنهم اللورد تيمون. فلزموا بعد ذلك بطانته. وتركهم ينفقون عن سعة من خزائنه وكأنها أموالهم الخاصة.

ومن بين هؤلاء شاب اسمه فنتيديوس، كان مدينا للمقرضين بمبالغ طائلة. فتولى تيمون دفع ديونه عنه منذ مدة وجيزة. وآخر مبلغ دفعه مقداره خمسة دنانير.

ولعل أعجب من تعج بهم الدار الكبيرة هم طائفة أصحاب التحف والهدايا

فإنهم يحسبون من حسن الطالع لو أن تيمون راق في نظره كلب أو حصان أو تحفة رخيصة مما لديهم. فإنهم يبادرون بعدها إلى إرسال الشيء إليه مع رسالة شكر لأن هذا الشيء المتواضع راق في نظر السيد العظيم مع أنه ليس جديرا بمقامه. فيكون الرد من تيمون عبارة عن هبة مالية ضخمة تساوي القيمة الحقيقية مائة مرة. فإن هذه الهدايا المجانية كانت تجارة مقنعة لهؤلاء المستغلين الخبثاء.

ومن هذا القبيل ما أرسله إليه أخيرا اللورد لوكيوس وهو عبارة عن أربعة جياد بيضاء كاللبن لها سروج من الفضة. بعد أن لاحظ ذلك اللورد الماكر ثناء تيمون عليها. وكذلك أرسل لوكولوس سربا من كلاب الصيد سمع تيمون يثني على خفتها ورشاقتها وسرعتها.

وتقبل تيمون هذه الهدايا بنية صافية وهو لا يدري نية السيدين الخبيثين. ورد لهما الهدية في قالب ماسات فاخرة تساوي قيمة الهديتين أكثر من عشرين مرة.

وكثيرا ما كان هؤلاء الخبثاء يعمدون إلى وسيلة أخرى لابتزاز أموال تيمون فيبدون الإعجاب بجوهرة ثمينة أو أي شيء غالي الثمن من ممتلكاته. وبسلامة نية لا يتردد تيمون في إرسال الشيء الثمين إلى من أعجب به مع خطاب تحية.

وعلى هذا النحو أرسل تيمون جواده الأشهب الذي يركبه بنفسه إلى أحد هؤلاء السادة النفعيين لمجرد أنه أبدى إعجابه بذلك الحيوان الأصيل الجميل. فتيمون كان يجد لذة كبرى في البذل والمنح. حتى لم يكن يتردد أن يهب الممالك لهؤلاء الأصدقاء المزعومين من غير تردد ومن غير ضن أو ضجر.

وليس معنى هذا أن كل ثروة تيمون كانت تذهب في كل الأغراض السخيفة السطحية البهاء، بل كان ينتظر كل فرصة للقيام بأنبل الأعمال. ومن ذلك أن خادما أحب يوما بنت أحد أغنياء أثينا ولكنه يئس من زواجهما لما بينه وبينها من

فرق كبير في الثروة يوازي المهر الذي حدده والد تلك الفتاة لها.

ولكن الغالب في معظم الأحيان أن الأوغاد والسفلة هم الذين كانوا ينتفعون بطيبة هذا السيد المعطاء وجوده. لمجرد أنهم كانوا يحفون بشخصه صدق أنهم كانوا يخلصون له الحب. ولأنهم يهشون له ويتملقونه أعتقد أن تصرفاته حقا موضع الإعجاب من العقلاء والصالحين. فاستغلق الأمر على تيمون وأصبح عاجزا عن التمييز بين الصديق المخلص والمرائي المداهن. فاستخفه السرور لكثرة عدد أصدقائه. وجعل لهم التصرف الكامل في ماله كأنهم أخوة أشقاء.

ولا شك أن أموال تيمون مهما كثرت لم تكن لتحتمل كل هذا الإنفاق والتبذير. ولكن من الذين كان جديرا أن ينبهه إلى ذلك؟ أهم إخوان الصفاء المداهنون المتملقون؟ أن لهم مصلحة كبرى في قفل عينيه عن الحقيقة حتى يظل في غفلته.

وكم حاول فلافيوس وكيل أعماله وناظر زراعته أن يوضح له حقيقة الموقف ويضع أمام عينيه حسابات إيراداته ومصروفاته. وجعل المسكين يتوسل إليه باكيا أن يتبين حقيقة حاله. فكان تيمون يصرفه ويعيره أذنا صماء ويخوض في حديث آخر.

وكان ذلك الخادم الأمين فلافيوس شديد الحزن على مصير مولاه. يعلم ما ينتظره من هؤلاء الأصدقاء حين ينتهي سيده إلى الإفلاس. يترك الولائم والمآدب الصاخبة الماجنة وينفرد بنفسه في حجرة قصية ليبكي فتسيل دموعه لتنافس في جريانها تدفق الخمر المعتقة من دنان مولاه المتلاف. إذ كان يتوقع تبخر هؤلاء المرائين من حول سيده عند أول نذير للفاقة.

ولكن تيمون اضطر أن يفتح أذنيه مرغما بعد وقت قصير حين أعوزه المال،

فطلب من فلافيوس أن يبيع جزءا من أراضيه فقال له فلافيوس أنه طالما حاول أن يطلعه على الحقيقة فلم يتح له الفرصة. وتلك الحقيقة هي أن معظم أراضيه بيع فعلا أو رهن. وإن كل ما يمتلكه الآن لا يفي بنصف ديونه.

واستولت الدهشة على تيمون فأجاب مذهولا:

– ولكن أملاكي كانت تمتد من أثينا لاكيدايمون.

– مولاي الطيب: إن العالم ليس إلا شيئاً محدودا. فلو أنه كان ملكك بأسره وأخذت توزعه على الناس بهذه الطريقة لنفذ!

وراح تيمون يعزي نفسه بأنه لم ينفق ثروته الواسعة في الملذات الوضيعة والفجور. بل على أصدقاء فضلاء.

ولما رأى وكيله الأمين يبكي حزنا على حاله أخذ يهون عليه ويؤكد له أن مولاه لن تعضه الحاجة بنابها ولن يعوزه المال وله هذا الجيش الجرار من الأصدقاء النبلاء. وليس عليه سوى أن يبعث إلى أي إنسان ممن تنعموا بعطاياه فيطلب منه ما يشاء. وكما ترك الآخرين يتصرفون في أمواله كأنها أموالهم فمن حقه أن يتصرف في أموالهم كأنها أمواله الخاصة!

وبدأت التجربة...

وبوجه يطفح بشرا وسرورا لثقته من النتيجة أرسل رسولا إلى أول ثلاثة من الأصدقاء النبلاء الذين طالما تمتعوا بجوده وبره. وهم اللورد لوكيوس واللورد لوكولوس واللورد سمبرونيوس الذين تقلبوا في هداياه زمنا طويلا. وأرسل كذلك إلى فنتيديوس الذي افتداه من السجن بالأمس القريب ثم ورث بعد ذلك من أبيه ثروة طائلة يطلب منه أن يرد إليه الفدية التي دفعها عنه.

ولم يخامر الشك أن النبلاء الثلاثة الأغنياء سوف يبعثون إليه بمبالغ طائلة من

غير حساب.

وكان اللورد لوكولوس هو أول من وصل إليه الرسول. وكان هذا الرجل قد حلم في منامه بطشت وإبريق من الفضة الخالصة. فلما قيل له أن رسولاً حضر إليه من عند تيمون خطر له أن الرسول أحضر إليه الهدية التي حلم بها. فلما فهم حقيقة المسألة. وعرف أن تيمون بحاجة إلى نقود. ظهر المعدن الحقيقي لهذا الرجل وانكشف الوجه الحقيقي لصداقته. إذ راح يصرخ في وجه الرسول مندداً بسفاهة مولاه. وأنه طالما توقع ببعد نظره أن يصل إلى الدمار والخراب. وأنه ذهب مراراً ليتغدى على مائدة تيمون كي يخبره خصيصاً بهذا الرأي وينصحه بالاقتصاد والاعتدال. ولكن مولاه كان غير مستعد لسماع النصيحة.

وكان صحيحاً أن لوكولوس تغدى معظم الأيام على مائدة تيمون. واستغل كرمه أسوأ استغلال. ولكنه كاذب في زعمه أنه نصحه أو نبهه أو حذره. وإنما هي فرية يغطي بها خسته أتبعها بخسة أخرى حين قدم الرشوة للخادم كي يقول لسيده أنه لم يجد لوكولوس في داره.

ولم يكن الرسول الذي ذهب إلى اللورد لوسيوس أكثر توفيقاً من زميله الذي أوفد إلى لوكولوس. فإن لوسيوس الذي يدين بلحمه وشحمه لموائد تيمون وهداياه الثمينة لما رأى الريح تغيرت اتجاهها، والينبوع المتدفق نضب معينه، لم يصدق في أول الأمر أن ذلك ممكن. فلما أكد له الخادم ذلك، تظاهر بالأسف الشديد. وأعلن أنه لا يستطيع أن يمد تيمون بشيء من المال لأنه اشترى صفقة ضخمة في اليوم السابق استنفدت كل موارده.

وكان بطبيعة الحال كاذباً فيما ادعاه. فهو لم يشتر شيئاً وإنما هي حيلة للتخلص من القيام ببعض واجبه نحو هذا الصديق النبيل الذي طالما دفع له ديونه ودفع له في كثير من المرات مرتبات خدمه وأجور العمال الذين بنوا له داره الفخمة.

وأما سمبرونيوس وسائر من بعث إليهم تيمون برسله فردوه رداً لطيفا في الشكل قبيحا في الموضوع. وحتى فنتيديوس الذي أصبح من كبار الأغنياء بعد وفاة أبيه رفض أن يدفع ما عليه من الفدية التي لولاها لبقى في السجن أمدا طويلا.

وهكذا وجد تيمون نفسه مقفرا من الأصدقاء بقدر ما كان محاطا بهم أيام رخائه. وإذا الألسنة نفسها التي كانت تلهج بالثناء عليه وابتزاز عطاياه، وقد انقلبت أشد نشاطا في المجاهرة بلومه والتنديد بسفاهته وحمقه. مع أنه لم يظهر شيئاً من الحماقة إلا في انخداعه بنفاقهم الرخيص وودهم الزائف.

وأصبح قصر تيمون خاليا يتحاشى الناس المرور به. ولا يطرق بابه أحد من مئات الذين لم ينقطعوا عنه ليلا أو نهارا. وحل محل هؤلاء الضاحكين المبتهجين الأكلين الشاربين جيش من الدائنين المتأففين يطالبون بالديون وفوائدها في غلظة، فقلوبهم كأنها قدت من الصخر لا تقبل المماطلة أو التأجيل.

لقد غدا قصر تيمون سجنا له. لا يجسر على الدخول أو الخروج تحاشيا للقاء هؤلاء الدائنين من التجار والمقرضين. فلو أنه أراد أن يفي بتلك الديون من قطرات دمه لما كفى دمه كله لهذا الجبل المتراكم.

وفي هذه الحالة السيئة بل الموئسة تلفتت عيون الناس جميعا بالدهشة نحو اللورد تيمون. لأنهم رأوه مرة أخرى يقيم وليمة فاخرة ويدعو إليها ضيوفه المألوفين من الأشراف والسيدات العاليات المقام وكل من له خطر أو شهرة في أثينا.

وحضر اللورد لوسيوس ولوكولوس وفينتيديوس وسمبرونيوس وسائر من إليهم من أفراد الحاشية القديمة. وكم كان حزنهم عندما خيل إليهم أنهم اكتشفوا أن

إفلاس تيمون لم يكن إلا ادعاء لا أساس له، كان الغرض منه وضع محبتهم موضع الامتحان.

وندموا ندما شديدا لأنهم لم يفطنوا إلى حقيقة الخدعة في أوانها وإلا لتمكنوا من اكتساب مودته بالبخس من التضحية أو المجاملة. ولكنهم في الوقت نفسه سروا سرورا عظيما لأن الينبوع الذي طالما فاض عليهم لم ينضب معينة كما توهموا.

لهذا كله أقبلوا على الدار وهم يحتجون ويبدون الأسف والخجل. وكل منهم يذكر عذره ويقسم على صدقه. بيد أن اللورد تيمون طلب منهم ألا يلقوا بالا إلى مثل هذه التوافه لأنه نسي المسألة كلها.

ولم يستطع هؤلاء الأوغاد الذين أبوا عليه العون في شدته أن يتعففوا عن الحضور إلى مأدبته وقد عادت إليه حالة اليسار فهم أشبه بطيور الصيف التي تقبل مع الشمس وتختفي باختفائها ثم تعود بعودتها في غير خجل.

وقدمت الصحاف الشهية بين أنغام الموسيقى العذبة. وأخذوا يتعجبون من أنفسهم كيف أن مفلسا استطاع تدبير كل هذه النفقات. بل أن بعضهم بهرته الفخامة فظن نفسه في حلم.

وكانت الصحاف في ذلك العهد تقدم في المآدب مغطاة. وبإشارة متفق عليها كشف الصحاف فإذا بشيء يتفق مع حالة تيمون الجديدة. فلم يكن ثمة إلا شيء من الدخان وماء ساخن. وهي وليمة تليق بهؤلاء الأصدقاء المزيفين الذين لا يعدو إخلاصهم إلا أن يكون دخانا وقلوبهم إلا أن تكون ماء.. وصاح تيمون بضيوفه: "العقوها أيها الكلاب!".

وقبل أن يفيقوا من دهشتهم نفض الماء في وجوههم وقذف وراءهم الأطباق

وهم يفرون منصرفين في اضطراب وفوضى، ويصيح في ظهورهم:

– أيها المموهون الكذابون. أنكم ذئاب ناعمة ودببة باسمة، إخوان بطون وغربان جيف!

وفي هرولتهم نسي بعضهم معطفه وبعضهم حليه لشدة إسراعهم في النجاة من هذا المجنون الهائج ومن لسانه اللاذع.

وكانت هذه آخر وليمة أقامها تيمون. فهي بمثابة وداعه لأثينا ولمجتمع الناس، لأنه بعد ذلك اليوم هجر أثينا إلى الغابات. واستدبر بظهره الناس والبشرية كافة. وهو يدعو الله أن تندك جدران تلك المدينة الحقيرة. وأن تسقط أسوارها وتنهدم بيوتها على رءوس سكانها وتنتشر الأوبئة بين أبناء آدم جميعا، وتغشاهم الحروب والفاقة والغلاء والوباء. ولاسيما الاثينيين منهم سواء منهم الشيوخ والشباب والعلية والسفلة. لاذ تيمون وهو في هذه الحالة بالغابات المجاورة لأثينا وهو موقن أنه سيجد أشد الشباع ضراوة أرفق به من الناس. وهناك خلع عنه ثيابه فأصبح عريانا كي يباعد بينه وبين آخر مظهر يربطه بالناس والمجتمع. ثم احتفر كهفا ليعيش فيه وحيدا منعزلا كما تعيش الوحوش. لا يأكل إلا من الجذور البرية ولا يشرب إلا الماء. يفر من وجه بني جلدته فرار السليم من الأجرب ويفضل على ذلك اللقاء بينه وبين الناس أن يسلك نفسه في عداد الضواري لأن صحبتهم في رأيه أسلم عاقبة وأهون ضررا.

ويا له من تغير كبير طرأ على اللورد تيمون الثري الوجيه الوسيم الضاحك السن المضياف فإذا به تيمون العاري كاره البشر!

أين الآن من كانوا ينافقون؟ أين الآن أتباعه وحشمه وحاشيته؟ إن وصيفه الآن هو الهواء الطلق. وثيابه الآن هي الشمس. أنه لن يشعر بالملق من ريح

الشتاء الباردة ولا بالمجاملة من أوراق الخريف المتساقطة. ولن تلعق يده هنا ألسنة الدواب لأنها لا تعرف الملق والنفقا مثل بني آدم.

وذات يوم إذ هو يحفر الأرض بحثا عن جذر جاف يقتات به، إذ بمعوله يرتطم بشيء ثقيل. فأخذ يستخرجه فإذا به ذهب خالص. وإذا هناك كومة كبيرة من ذلك الذهب كان بعض البخلاء ربما دفنها هناك في وقت من أوقات الذعر والخطر، وفي نيته أن يعود إليها فيستخرجها من مكمنها عند الأمان. ولم يخبر بموضعها أحدا من الناس. خشية السرقة والاختلاس. فلبثت هناك مطمورة لا نفع فيها ولا ضير منها تحت أطباق الثري كأنها بعض الحصى والحجارة. إلى أن قيض لمعول تيمون أن يرتطم بها مصادفة فأخرجها من الظلمات إلى النور.

كانت هناك كمية ضخمة من الكنوز في هذا المكان. فلو أن تيمون كان على نهجه القديم في التفكير والسلوك. لجلبت له تلك الكنوز جيوشا من الأصدقاء الزائفين والمرائين المتملقين. ولكن تيمون كان قد سئم زخرف هذا العالم المزيف. فبدأ لعينيه بريق الذهب كأنه السم وكاد يعيده إلى بطن الأرض لولا أنه تذكر ما يجلبه الذهب على الجنس البشري من كوارث لا حد لها.

فالذهب هو الذي يستثير في الناس السرقات ويدفعهم إلى القتل. فطاب له وهو الذي يحقد على الجنس البشري كله أن يتصور المصائب التي يمكن أن تنبت من هذه الكومة من الذهب!

ومر بالقرب من كهف تيمون في الغابة نفر من الجنود. اتضح أنهم جزء من جيش القائد الأثيني السبيادس. وكان هذا القائد قد كسب النصر فيما مضى لمدينة أثينا وحقق لها المجد. ثم تنكرت له المدينة الجاحدة حتى تملكه الغيظ فسار على رأس جيشه المنتصر لا ليدافع عن أثينا بل ليهاجمها.

وسر تيمون كثيرا بهذه النية لدى السبيادس. فأغدق عليه الذهب ليدفع منه رواتب جنوده. ولم يطلب من السبيادس أجرا ولا ثوابا سوى الوعد متى انتصرت جيوشه أن يسوي مدينة أثينا بوجه الأرض. وأن يحرق ويذبح ويقتل جميع سكانها. لا يبقي على شيخ أو عجوز من أجل شعره الأبيض فكل عجائزها مرابون. ولا يبقي على أطفالها لأن هؤلاء الأبرياء في الظاهر متى شبوا عن الطوق صاروا شياطين في الغدر والخيانة. ولا تأخذنه شفقة بأصوات العويل والنحيب والزفرات من العذارى والأمهات. بل يأخذ الجميع أخذ عزيز مقتدر فيسحقهم سحقا ويمحقهم محقا.

ولم يكتف تيمون في دعائه بذلك بل أردف هذا الرجاء بأن دعا الآلهة بعد أن تنصر السبيادس ويتم فناء أثينا، وأن تقضي على السبيادس وجيشه أيضا، لأنه يكره الناس جميعا أثينيين وغير أثينيين!

وإذا هو في تلك الحالة من الغيظ والحقد. وقد أصبح أشد ضراوة من بعض الأوابد والضواري، إذا به يفاجأ يوما بظهور رجل يقف بباب كهفه متأملا متعجبا. وكان هذا الرجل هو فلامنيوس وكيل دائرته الأمين وناظر زراعته ومدير أملاكه الذي دفعه إخلاصه لمولاه في وقت محنته أن ينقب عنه في أرجاء الأرض كي يعرض عليه خدماته.

وما إن وقع نظر هذا الخادم الأمين على مولاه وقد أصبح في هذه الحالة الزرية، عريانا كما خرج من بطن أمه، يعيش حياة الوحوش كأنه أطلال قصر كان فخما أنيقا شاهقا يوما من الأيام. حتى وقف المسكين مذهولا لا يقدر على الكلام مذعورا لا يدري في يقظة هو أم في منام. فلما وجد السبيل إلى لسانه بعد ذلك، تعثرت الكلمات في حلقه بدموعه التي انهمرت ونشيجه الذي ارتفع، حتى أن تيمون وجد صعوبة كبيرة في التعرف على هذا الإنسان الذي أخلف ظنه

السيئ في البشر وجاء يبحث عنه ليعرض عليه خدمته في وقت الضيق. ولما كان هذا الشخص على صورة البشر فقد تبادر إلى ذهنه أنه مخادع غشاش خائن. وأن دموعه هذه تمويه وتزييف.

بيد أن الخادم جعل يقسم، ويؤكد صدقه وإخلاصه له حتى اضطر تيمون أن يعترف بينه وبين نفسه أن العالم لم تزل فيه بقية من الخير. وأن هناك إنسانا واحداً أمينا شريفا على الأقل.

ومع هذا فإن صورته البشرية كانت تجعل تيمون لا يستطيع التطلع إلى وجهه من غير نفور واشمئزاز ولا يستطيع أن يسمع ألفاظه تخرج من شفتيه من غير امتعاض وغضب. حتى اضطر هذا الإنسان الأمين الوحيد أن يرحل لأن مظهره البشري لم يشفع له عند تيمون قلبه النبيل.

ولبث تيمون بمفرده بعد رحيل فلامنيوس. ولكن وحدة تيمون لم تلبث طويلا حتى تعكرت مرة أخرى لا برجل متواضع المكانة مثل فلامنيوس بلا بزوار من طبقة أخرى.

وجلية الأمر أن أشراف أثينا الجاحدين ندموا ندما شديدا على ما سلف منهم في حق تيمون النبيل. لأن السبيادس راح يدق أسوار مدينتهم كأنه الوحش الهائج. وجيوشه تحاصرها وتتهددها بالخراب والتدمير. فتذكر أشراف أثينا ما كان لتيمون من مهارة حربية وقدرة على الدفاع والهجوم ووجدوا أن هذا القائد المحنك هو وحده الذي يستطيع صد هجمات السبيادس الصاعقة.

وتألفت لجنة من أعضاء مجلس الشيوخ ووجهاء أثينا. لتسافر كوفد إلى حيث يقيم تيمون. وحضر الوفد في وقت محنتهم إلى ذلك الذي تنكروا له في محنته. جاءوا يطلبون الوفاء ممن غدروا به والإخلاص ممن فرطوا فيه وأقبلوا عليه

يتوسلون باكين مستغفرين أن يعود لينقذ المدينة التي نبذته نبذ النواة وضنت عليه ببعض ما قدمه لها مجده وجاهه.

عرضوا عليه الأموال والضياع والقوة والسلطان تعويضا عما أصابه من ضرر. وجعلوا أنفسهم وأموالهم وأولادهم عبيدا لإحسانه وخدما يأتمرون له.

بيد أن تيمون العريان كاره البشر لم يعد هو اللورد تيمون السخي الكريم القلب واليد الرقيق الحاشية درع أثينا في الحرب وتاجها في السلم. فتيمون ليس يعنيه اليوم في كثير أو قليل أن يقتل السبيادس مواطنيه أو ينهب أثينا الجميلة ويقتل شيوخها وأطفالها. بل إنه حري أن يبتهج لذلك.

وقد صارحهم تيمون بهذا وكاشفهم أنه لا يجد عنقا واحدا مهما كانت مكانته في أثينا أغلى من أن تناله الخناجر أو تقطعه السكاكين التي يشهرها أحط الجنود المهاجمين قدرا.

وكان هذا هو الجواب الوحيد الذي قذف به الباكين الساجدين تحت أقدامه. ولما هم هؤلاء الشيوخ بالانصراف مهزومين متعثرين في خيبتهم وحسرتهم استوقفهم تيمون قائلا:

– ما زالت لمواطني أهل أثينا بقية من كرامة عندي. ولهذا لا أضن عليهم بالوسيلة الوحيدة التي أملكها لدفع عار الهزيمة عنهم قبل أن يواريني الموت.

فتجدد الأمل لدى أعضاء الوفد واشرأبت أعناقهم وأرهفت آذانهم وقد توقعوا أن يدب الحنان في قلبه فيعود معهم. وإذا به يقول:

– إن بالقرب من كهفي شجرة عالية كنت أنوي أن أقطعها قريبا. ولكني أدعو كل من يسمو بنفسه عن عار الهزيمة أن يحضر إلى هنا ويتذوق شيئاً من ثمار هذه الشجرة قبل أن أقطعها.

وكان تيمون يعني بهذا الكلام أنه يدعوهم أن يشنقوا أنفسهم منتحرين إن أرادوا النجاة من غضب السبيادس.

وكانت هذه آخرة تحية يلقي بها تيمون إلى مواطنيه وإلى الجنس البشري، لأنه بعد أيام قلائل مر الجنود بساحل البحر القريب من الغابة فرأوا قبرا على حافة الماء فوقه هذه الكتابة: "هنا يرقد تيمون كاره البشر الذي كره الأحياء جميعا وهو حي. واستنزل وهو ميت البلاء والوباء على جميع الأحياء".

ولا يدري أحد كيف انتهت حياة تيمون. هل انتحر أم مات ميتة طبيعية. ولكن ذكرى صلابته وعناده وعبرة حياته بقيت من بعده مثلا حيا لما ينبغي أن يلقاه الزيف والنفاق من احتقار.

بركليس

حكم بركليس أمير صور على نفسه بالنفي من إمارته من تلقاء نفسه، حتى يجنب رعاياه تلك العقوبات الفظيعة التي تهددهم بها الأنطاكي ملك أنطاكية الواسع النفوذ، انتقاما من بركليس لأنه كشف النقاب عن فعلة شنعاء كان الأنطاكي قد اقترفها سرا.

وترك بركليس حكومة شعبه في يد وزيره القادر الأمين هليكانوس ثم أبحر من صور إلى أن تهدأ ثائرة الأنطاكي.

وكان أول موضع وجه إليه بركليس شراعه في رحلة منفاه هو طرسوس. ولما كان قد سمع أن طرسوس تعاني في ذلك الوقت مجاعة. أخذ معه رصيدا كبيرا من المئونة لتخفيف المجاعة. ولما وصل إلى هناك وجد المدينة قد بلغت مبلغا كبيرا من الضنك. وأنه جاء إليها وكأنه رسول من السماء بتلك المساعدة غير المنتظرة وتلقاه كليون حاكم طرسوس بالشكر الوافر والثناء الجزيل.

ولم تكد تنقضي بضعة أيام على حلول بركليس بطرسوس حتى جاءته الرسائل من وزيره الأمين أن إقامته في طرسوس غير مأمونة لأن الأنطاكي عرف مقره وبعث مندوبين سريين للقضاء على حياته. فركب بركليس سفينته على الفور بين دعاء أهالي طرسوس له لأنه فرج كربتهم وأشبعهم بعد جوع بفيض من كرمه.

* * *

ولم تبعد سفينته كثيرا عن طرسوس حتى صادفتها زوبعة عاتية هلك الجميع فيها ما عدا بركليس الذي قذفت به الأمواج وهو عار فوق شاطئ مجهول. وبعد

أن تجول هناك قليلا التقى بجماعة من صيادي السمك الفقراء دعوه إلى أكواخهم وقدموا له الملابس والطعام.

وأخبر الصيادون بركليس أن بلدهم هذا هو بنتابوليس. وأن ملكهم هو سيمونيدس الملقب بالصالح لحبه للسلام وفعل الخير. ومنهم أيضا عرف بركليس أن للملك سيموندس ابنة شابة جميلة وأن اليوم التالي هو عيد ميلادها. ولهذا ستعقد في القصر مباريات يتنازل فيها الفرسان والأمراء لإظهار بأسهم ومهارتهم وللظفر بمحبة تايزا الأميرة الجميلة.

فلما سمع منهم بركليس ذلك تحسر في نفسه على فقدان حلة درعه الجيدة. وإلا لاستطاع المشاركة في تلك المبارة مع هؤلاء الفرسان البواسل. وإذا بصياد يقدم من البحر ومعه حلة درع تصيدتها شباكه. فإذا بها حلة درع بركليس. ففرح بركليس فرحا شديدا واعتبر ذلك آية من القدر على العناية به وتوجيهه إلى طريق الظهور في ذلك البلاط الغريب.

وفي اليوم التالي لبس بركليس تلك الدرع التي ورثها عن أبيه واتجه إلى قصر الملك سيمونيدس حيث أتى بالأعاجيب المدهشة في المباريات والمناورات، وهزم بكل سهولة جميع الفرسان الشجعان والأمراء البواسل الذين نازلوه على حب تايزا.

وكانت العادة في المباريات التي تعقد تكريما لأميرة أن يفوز الرابح الأخير بتقديرها ومودتها تضفيها عليه علنا. ولم تخالف تايزا في ذلك اليوم تلك القاعدة فمنحت بركليس عنايتها وتوجته بإكليل النصر ونادت به ملك ذلك اليوم. فتعلق بركليس بحب الأميرة الفاتنة منذ وقع نظره عليها.

* * *

وأظهر الملك الصالح سيمونيدس رضاه عن بسالة بركليس ومزاياه النبيلة. والواقع أنه كان مثقفا في جميع الفنون كامل الخلق. حتى أن الملك سيمونيدس مع جهله بحقيقة مقامه الذي كان بركليس يخفيه خوفا من بطش الأنطاكي ويزعم نفسه أحد أشراف صور.. إلا أن سيمونيدس لم يتردد في قبول هذا الشاب المجهول زوجا لابنته لما رأى قلب الابنة مال إليه بصفة نهائية.

وسعد بركليس في غربته بالزواج من تايزا بضعة شهور إلى أن تلقى معلومات سرية أن الأنطاكي مات. وأن شعب صور سئم طول غيابه فهددوا بالثورة وتحدث فيما بينهم بتنصيب هليكانوس وزيره على عرشه.

وكان هليكانوس نفسه هو الذي أرسل تلك الأنباء لشدة وفائه لمولاه ورغبته في ذلك المنصب السامي فألح بركليس أن يعجل بالعودة ويسترد عرشه.

وكان مفاجأة سارة جدا للملك الطيب سيمونيدس أن يكتشف أن زوج ابنته الذي ظنه فارسا مغمورا هو أمير صور المشهور. ثم أسف لأن ذلك سيترتب عليه أن يفارقه صهره وابنته التي كان يخشى عليها من أخطار البحر. وألح بركليس على تايزا أن تبقى في قصر أبيها ولكن الأميرة أصرت على ملازمة زوجها وأن تقوم على خدمته طول مدة رحلته.

ويظهر أن البحر كانت بينه وبين بركليس المسكين عداوة. لأن زوبعة هائلة ثارت فذعرت تايزا ومرضت. ثم خرجت من قمرتها إحدى المراضع واسمها ليكوريدا تحمل إليه طفلا حديث الولادة وأخبرته أنه كل ما تبقى له لأن تايزا ماتت في المخاض.

ويعجز اللسان عن وصف حزن بركليس في ذلك الموقف. وراح يعاتب الآلهة عتابا من أروع ما نظمه الشعراء. وأقبلت ليكوريدا تحاول أن ترده إلى الصبر

والتجلد من أجل الطفل الذي تركته أمه وديعة غالية في عنقه.

واستمرت العاصفة عاتية لا تهدأ. ومن تقاليد البحارة ومعتقداتهم الراسخة أن غضب البحر لا يمكن أن يزول وفوق سطح السفينة جثة ميتة. فتقدموا إلى بركليس يفاتحونه في إلقاء جثة زوجته في البحر.

وثار بركليس وبذل كل ما في وسعه ليحول دون ذلك ولكن البحارة أصروا. فاضطر إلى أن ينزل على إرادتهم. وذهب إلى حجرة أميرته المسكينة ليتزود منها بنظرة الوداع الأخيرة. ووقف يناجيها مناجاة تتقطع لها القلوب وأحضروا لها صندوقا بطنوه بالحرير فوسد فيه أميرته ونثر فوقها العطول الزكية ووضع بجوارها جواهرها الثمينة وورقة تنوب عن لوحة القبر كتب فيها بخط يده ملخص ترجمة حياتها ويدعو كل من يعثر على الصندوق إن قذفته الأمواج إلى أي شاطئ أن يكرم تلك الجثة بالدفن. ثم تولى بيديه قذف التابوت إلى اليم.

لما سكنت العاصفة أمر الملاحين بالعودة إلى طرسوس لأن الطفل لا يستطيع الصمود في البحر إلى أن يبلغوا صور فقد انتوى أن يترك الطفل عند حاكم طرسوس ليرعاه.

* * *

وفي الفجر التالي لإلقاء تايزا في البحر كان أحد نبلاء أفسس الأجلاء وأطبائها المعدودين واقفا على شاطئ البحر عندما أتاه خدمه بصندوق قالوا له أن الأمواج ألقت به إلى الشاطئ. فأمر بإرسال الصندوق إلى بيته. وهناك فتحه فرأى سيدة من أجمل ما تقع عليهن العين ومعها جواهرها الغالية. وتنبعث منها رائحة زكية ومن ثيابها الفاخرة. ثم عثر بالورقة فعرف منها كل شيء. وفيما هو يتفحص وجه الأميرة خطر له أنه لا يشبه وجوه الموتى. وأنهم تعجلوا بإلقائها إلى البحر. فأمر بإشعال نار عظيمة. وخلط بعض العقاقير وأمر بعزف أنغام هادئة مريحة للأعصاب.

وبعد قليل ظهرت بوادر نجاحه لأن أهدابها تحركت. فالحقيقة أن تايزا. لم تكن ميتة بل مغشيا عليها. ولم تلبث بعناية سريمون أن فتحت عينيها الجميلتين وتساءلت أين هي؟

فأطلعها سريمون على الورقة التي عثر عليها في تابوتها فعرفت فيها خط زوجها. وتذكرت ما وقع لها فروته بحذافيره. وخيل إليها أن الآلهة فصلتها عمدا عن ذويها. فقررت الانقطاع راهبة في معبد ديانا القريب من ذلك الموضع. فمكنها سريمون من تنفيذ غرضها وصارت كاهنة من كاهنات ديانا تقضي نهارها في البكاء على زوجها التي حسبت أن العاصفة أهلكته هو والطفل.

ولعل الأوفق أن نقول الطفلة. فإن المولودة كانت فتاة سماها أبوها مارينا أي البحرية لأنها ولدت في البحر. وحملها إل طرسوس ليبربيها كليون زوجته ديونيزا. ظنا منه أن ذلك الحاكم سيسره أن يرد له ما صنعه بشعبه من المعروف حين أنقذه من المجاعة.

وكانت لكليون وزوجته ابنة فوعدا بتربية مارينا مع ابنتهما بغير تفريق في المعاملة أو الرعاية وفاء لخدماته الجليلة السابقة. وأن يردا بإطعامهما هذه الصغيرة جميل إطعامه شعبا بأسره في وقت محنته.

وبعد أن اطمأن بركليس على طفلته غادر طرسوس متجها إلى صور فوصلها سالما وتسلم عرشه. في الوقت الذي ظلت فيه زوجته مقيمة في أفسس لا تعرف شيئا عن مصير زوجها وتظنه قد مات.

وأحسن كليون رعاية مارينا وتربيتها إلى أن بلغت سن الرابعة عشرة وصارت من الذكاء وسعة الإطلاع بحيث تجاري في ذلك أكبر علماء عصرها. أما غناؤها فكان شيئا من وراء التصور. وأما رقصها فكان أشبه برقص الحوريات في المروج.

وبراعتها في أشغال الأبرة والتطريز كانت تدهش الناظرين فتكاد الفواكه والطيور والأزهار أن تنبض بالحياة والنمو وهي تخرج من تحت أناملها.

وهكذا أصبحت مارينا أعجوبة زمنها في طريق طرسوس وسارت بشهرة جمالها وكمال مزاياها ومواهبها الركبان. فامتلأ قلب ديونيزا زوجة كليون بالحقد عليها حقدا لا مزيد عليه بسبب تفوقها العظيم في كل شيء على ابنتها البلهاء البطيئة الفهم الفاشلة في كل شيء مع أنها كانت تلازم مارينا في جميع دروسها وأوقاتها.

وسولت لديونيزا نفسها الخبيثة أن تستأجر رجلا يقتل ماريانا وتصادف أن ماتت حاضنتها ليكوريدا فانتهزت ديونيزا هذه الفرصة لاستئجار قاتل المأجور كان رجلا شريرا إلا أن جمال مارينا استولى على لبه. بيد أن تهديد الملكة له أجبره على الطاعة.

وأظهرت ديونيزا التودد إلى مارينا وخوفها عليها من كثرة البكاء فقررت أن تبعث معها من ينزهها في المراعي والغابات. وندبت لذلك خادمها ليونين الذي كان هو القاتل المأجور. وبعد ممانعة رضخت مارينا أمام هذا الحنان الظاهري من ديونيزا.

واتجهت مارينا في نزهتها صوب البحر ووقفت على مسمع من ليونين تناجي ذلك الأفق المتوحش الذي ولدت أثناء ثورته فكان سببا في حرمانها من أمها بالموت ثم من أبيها بالنفي والهجر. ولكن ليونين قاطعها في نجواها وقال لها:

- إني مكلف بقتلك. وليس عندي مانع أن أقتلك عند البحر الذي شهد ولادتك. فإن كنت راغبة في مهلة يسيرة ريثما تصلين لربك فإني أمنحك إياها. ولكن عجلي فإني تعهدت أن أنتهي من أمرك على عجل.

– ولماذا تريد أن تقتلني؟

– هذا هو أمر سيدتي.

– ولما تريد سيدتك أن تقتلني؟ إني لا أتذكر أني أسأت إليها في يوم من الأيام ولا إلى أي حد بالقول أو الفعل. أني لم أقتل في حياتي فأرا ولم أضر ذبابة. وأذكر أنني سحقت بقدمي عن غير قصد دودة فندمت على ذلك وبكيت. فما ذنبي عندها؟

فأجابها القاتل الغليظ القلب:

– إن مهمتي ليست مناقشة العملية بل تنفيذها.

فسلمت مارينا أمرها إلى الله. وهم ليونين فعلا أن يقتلها لولا أن نزل إلى الشاطئ في تلك اللحظة جماعة من القراصنة. فما إن رأوا مارينا بجمالها الباهر حتى أخذوها معهم إلى سفينتهم سبيا.

وحمل القرصان سبيته مارينا إلى ميتيلين. وهناك باعها في سوق الرقيق. وعلى الرغم من الحالة البائية التي كانت فيها مارينا هناك إلا أن مدينة ميتيلين لم تلبث أن تجاوبت من أقصاها إلى أقصاها بأنباء جمالها الرائع وصوتها الساحر ومحاسنها التي لا تضارع.

وباستعراض هذه المحاسن في الغناء والموسيقى وسائر الفنون التي تجيدها جمع مولاها ثروة كبيرة. وكانت أيضا تعلم الموسيقى والرقص وأشغال التطريز الرفيعة بأجور عالية لبنات الأسر الكبيرة. وما تحصل عليه من أجر تعطيه لمولاها ومولاتها.

ووصلت أنباء براعتها النادرة إلى مسامع ليزماخوس حاكم ميتيلين الذي كان شابا من أعرق السلالات النبيلة. فتوجه ليزيماخوس بنفسه إلى البيت الذي كانت تقيم فيه مارينا ليشاهد بعينيه تلك الفتاة المعجزة التي لهجت الألسن جميعا بالثناء

عليها.

واستعذب ليزيماخوس حديثها الساحر الذي وجده أروع مما يتصور. مع أن هذا الشاب رأى في حياته عددا لاحصر له من الحسان والبارعات في الفنون والغناء والأدب. ومع أنه كان قد سمع الكثير المعجب على هذه الفتاة إلا أنه لم يتصور أن يجد نفسه إزاء فتاة مهذبة بآداب بنات الملوك. مع عفة ووقار وحلم ووداعة. ففارقها وهو يقول لها:

– اسأل الله أن يثبتك في هذا الطهر والسمو والنقاء، وإن قدر لك أن تسمعي بي مرة أخرى فسيكون ذلك لخير يصيبك.

فإن ليزيماخوس آمن أن مارينا فتاة لا نظير لها من جميع الوجوه. وعزم على أن يتزوجها بغض النظر عن وضاعة مكانتها الاجتماعية، لأنه رجح أن مولدها يكتنفه سر غامض. فهذه السجايا الغراء لا يمكن أن تكون إلا ثمرة سلالة عريقة وتربية رفيعة لا تتفق لأبناء العامة وبناتهم.

وزاده إيمانا بصدق هذا الظن أنه عندما سألها عن نسبها لم تحن بلسانها جوابا، وانهمر دمعها مدرارا وهي صامتة.

* * *

ونعود إلى طرسوس فنجد القاتل المأجور ليونين خاف أن تصب ديونيزا غضبها عليه فخدعها وقال لها أنه قتل مارينا.وأعلنت المرأة الشريرة وفاة مارينا وتصنعت الحزن عليها وأقامت لها جنازة ومأتما وشيدت فيها ضريحا.

وبعد ذلك ببرهة قصيرة حضر بركليس ومعه وزيره الأمين هليكانوس من صور إلى طرطوس بقصد زيارة ابنته ورؤيتها بعد أن كبرت وترعرعت وليصحبها معه إلى صور.

لم يكن بركليس رأى طفلته منذ كانت في المهد حين أودعها عناية كليون وديوتيزا. فكان شديد الشوق للصورة الغريبة عليه التي كانت في الوقت نفسه أقرب الصور الطبيعية إلى شخصه وحبه. مؤملا أن يجد فيها ولا شك عزاء عن أمها الراحلة وشبها قريبا منها.

وفوجئ بركليس بهم يقولون له في طرطوس أن مارينا ماتت. ثم أخذوا بيده ليرى الضريح الفخم الذي شيدوه لها. فنكأت هذه المصيبة جميع جراحه القديمة وتذكر بها كل ما صبه عليه القدر من أرزاء وبلايا.

ولم يطق بركليس المنكود أن يمكث في تلك الأرض التي أصابت آماله وحياته بتلك الضربة الحاطمة فركب سفينته ورحل.

ومنذ وطئت قدماه السفينة أصابه شرود شديد. فأضرب عن الكلام وخيل لمن حوله أنه فقد كل إدراك لما يدور حوله.

وفي طريق سفره من طرسوس إلى صور مرت السفينة في البحر بمدينة ميتيلين التي كانت تقيم بها مارينا.

ولما لمح حاكم ميتيلين النبيل ليزيماخوس من الشاطئ تلك السفينة الملكية الفخمة أحب أن يعرف من عسى أن يكون راكبها. فاستقل زورقا سريعا وذهب بمحاذاة تلك السفينة كي يشبع رغبته في الاستطلاع.

واستقبله الوزير هليكانوس بكل أدب ومجاملة. وأخبره أن السفينة قادمة من صور. وأنها قامت برحلة إلى طرطوس. وهي الآن في طريق العودة بأمير صور العظيم بركليس إلى إمارته.

وأضاف هليكانوس إلى ذلك قوله:

—وأميرنا يا سيدي في حالة غريبة. فله ثلاثة أشهر لم يكلم فيها أحدا. ولم يشغل

نفسه بشيء إلا أحزانه. وقد يكون من غير اللائق ومن الأملال لك أن أقص عليك جميع أسباب حزنه وشروده. ولكن السبب الأساسي لهذا الغم الطويل هو فقدانه ابنته الحبيبة بعد أن فقد في زمن مضى الأميرة زوجته.

فطلب ليزيماخوس أن يرى هذا الأمير المحزون عسى أن يستطيع أن يقدم له شيئا وهو في حكم ضيفه لأنه في حدود مياه مدينته.

ولما اجتمع ليزيماخوس ببركليس توسم فيه مخايل نبل وكمال عقل عدت عليهما الأحزان والكوارث. فرحب به ترحيبا يليق بالملوك. ولكن بركليس لم يلتفت إليه ولم يعره سمعه بل لم يكد ينظر إليه مهما نمق الحديث وحاول أن يستهويه.

وعندئذ خطرت ببال ليزيماخوس تلك الحسناء المعجزة مارينا. وأعتقد أنه إن كان هناك إنسان يستطيع بعذب حديثه ورخيم صوته وسحر غنائه وعزفه أن يخرج هذا الأمير من لجة الأحزان، فهذا الإنسان هو الحسناء مارينا.

وتحدث في ذلك الأمر إلى هليكانوس الذي كان يلتمس أية وسيلة ينقذ بها مولاه من حالته المؤسة تلك. فوافق الوزير الأمين على الفور أن تحضر مارينا إلى سفينة بركليس.

وعلى عجل أرسل ليزيماخوس من أتوا بالفتاة الحسناء. فلما صعدت إلى السفينة بهرت البحارة ورجال الحاشية بجمالها وترفعها الفطري. وسر ليزيماخوس كثيرا أن يسمع تعليقاتهم بالثناء عليها. وقال متباهيا:

– إنها فتاة رائعة. حتى أنه لو أمكنني أن أتأكد من نبل نسبها لما فكرت في أن أختار لي زوجة سواها.

وعندما خاطبها، وجه إليها الكلام بكل لباقة وتلطف كما لو كانت من

بنات الأشراف. ثم أخبرها أن الأمير العظيم صاحب السفينة منكوب في حياته وأصابه لذلك غم شديد جعله يغرق في الصمت والوجوم. ثم رجاها أن تستخدم كل ما وهبها الله من سحر اللسان وعذوبة الصوت لتخرج هذا الأمير من همومه. فقالت:

– سيدي سأبذل كل ما في وسعي لشفائه. بشرط ألا يقترب منه أحد ولا يكون معنا في المجلس إلا خادمتي وهو شخصيا.

* * *

وكانت مارينا قد عنيت وهي في ميتيلين أن تخفي نسبها. خزيا من الاعتراف أن سليلة ملوك مثلها أصبحت جارية من الرقيق. فلما أصبحت في خلوة مع بركليس رأت أن أحسن ما تهون به مصيبته هو أن تسرد على سمعه مصيبتها. فإن من سمع مصيبة سواه خفت عنه الوحدة والوحشة وشعر في جو المشاركة بالأنس الذي يخفف عنه حدة الحزن.

وبدأ صوتها الناعم العذب يخرج ذلك الشارد المغموم من شروده فرفع عينيه إليها وهو الذي لم يكن يثبتهما في شيء.

ودهش بركليس. فإن مارينا كانت صورة من أمها تايزا. فكأنما أميرته الراحلة بعثت أمامه حية. وإذا الأمير الذي طال صمته وقد انطلق لسانه بالكلام:

– زوجتي العزيزة كانت مثل هذه الفتاة تماما. ومثلها كان ينبغي أن تكون ابنتي. إن لها قامة أميرتي الراحلة وزوجتي المحبوبة. ولها حاجباها وصوتها الغض وعيناها المتلألئتان! أين تعيشين يا فتاتي؟ اذكري لي نسبك. فإني أظنك كنت تقولين لي أن الأيام والت عليك النكبات منذ ساعة مولدك. وإن مصائبك تعادل مصائبي لو أننا تكاشفنا بما حاق بنا من أرزاء.

–هذا ما قلته فعلا يا مولاي. ولم أقل إلا ما أملاه عليّ شعوري وساقتني إليه فطنتي.

– إذن قصي على حكايتك. فإن وجدتك يا فتاة قد احتملت واحدا على ألف مما احتملته شهدت بأن لك تجلد الرجال وإنني كنت خائرا خور النساء. هيا اجلسي إلى جانبي يا بنيتي وتكلمي.

وكم كانت دهشة بركليس عندما قالت له أن أسمها مارينا. فإن ذلك الاسم لم يكن مألوفا. وكان بركليس نفسه هو الذي اخترعه ليسمي ابنته به ومعناه ابنة البحر أو الطفلة البحرية. فقال:

– يبدو أن الشيطان يسخر مني فأرسلك ومنحك هذا الاسم.

– صبرا يا مولاي وإلا توقفت عن الكلام.

– سأصبر. ولكنك ستعذرينني حين تعلمين إلى أي حد فاجأتيني بهذا الاسم.

– وما خطب هذا الاسم يا مولاي؟ إنه ليس اسما محتقرا. بل إن الذي سماني به رجل من ذوي البأس. هو أبي الذي كان ملكا.

– أنتِ ابنة ملك؟ واسمك مارينا؟ وهل أنت حقا شخص حقيقي من لحم ودم؟ أم أنت جنية أو صورة من صور الأوهام؟ تكلمي! أين كان ميلادك ولماذا سموك مارينا؟

– سميت مارينا لأن ولادتي كانت في البحر وكانت أمي ابنة ملك وماتت في اللحظة التي ولدتني فيها، كما أخبرتني بذلك حاضنتي ليكوريدا وهي تبكي كلما ذكرت لي تلك القصة. وتركني والدي في طرسوس إلى أن دبرت زوجة كليون الأثيمة مقتلي. ولكن جماعة من القراصنة خلصوني من القتل وجاءوا بي إلى هنا في ميتيلين. ولكن لماذا تبكي يا سيدي الفاضل؟ لعلك تظنني محتالة

أو نصابة. ولكن صدقني يا سيدي فأنا حقا بنت الملك بركليس.

وفزع بركليس من هول فرحته المفاجئة. وخامره الشك أن يكون ما يراه ويسمعه حقيقيا فصرخ ينادي أتباعه الذين سرهم كثيرا أن يسمعوا صوت مولاهم.

ولما دخل هليكانوس صاح فيه الملك:

– أسرع يا هليكانوس أسرع. اضربني. اصفعني الكمني. سبب لي أي ألم شئت حتى لا يطغى طوفان هذا السرور على نفسي الفانية فيهلكني! وأنت تعالي هنا يا من كان مولدك في البحر ومدفنك في طرطوس ومبعثك ثانية في البحر! هيا يا هليكانوس. اركعوا جميعا على ركبكم وارفعوا الشكر إلى الآلهة! فهذه هي مارينا! فلتباركك الآلهة يا ابنتي! وأعطني يا عزيزي هليكانوس ثيابا جديدة نظيفة فاخرة! لا أريد أن ارتدي الحداد بعد الآن فهي لم تمت في طرسوس كما قدرت هذه المجرمة ديونيزا. وستخبركم جميعا وأنتم راكعون على ركبكم بقصتها وكيف أنها أميرتكم العظيمة!

ثم التفت بركليس إلى ليزيماخوس وقال له:

– ومن أنت؟

فأسرع هليكانوس يقول:

– مولاي. هذا هو حاكم ميتلين الذي سمع بحزن جلالتكم الشديد فحضر لزيارتكم.

– إني أعانقك يا سيدي. اعتبر أني عانقتك يا سيدي! أعطوني ثيابي.. فلتبارك السماء ابنتي! ولكن اسمعوا! أي موسيقى هذه؟

فقد خيل إلى المسكين من شدة الفرح أنه يسمع موسيقى سماوية الأنغام.

وقال هليكانوس:

– إني لا أسمع شيئا يا مولاي.

– أتقول أنك لا تسمع شيئاً؟ هذه موسيقى الفلك الأعلى يا رجل.

فأدرك ليزيماخوس أن الفرح المفاجئ زلزل عقل بركليس وهمس لهليكانوس:

– ليس من الخير أن تعارضوه. وافقوا على كل ما يقول.

فبادر الجميع يؤكدون له أنهم يسمعون الموسيقى. فاطمأن خاطره وقال بعد ذلك أنه يحس ميلا شديدا للنعاس يغشى رأسه وعينيه. فأقنعه ليزيماخوس أن يستريح فوق أريكة. فوضع وسادة تحت رأسه وغلبه السرور الجارف على حواسه فاستغرق في نوم عميق. وجلست مارينا تحرس في صمت والدها النائم.

* * *

ورأى بركليس أثناء نومه حلما جعله يصمم على التوجه إلى أفسس. أن يذهب إلى معبدها القائم في أفسس وأن يقف أمام مذبح الهيكل ويروي بصوت مرتفع قصة حياته وما صادفه فيها من كوارث. وأقسمت له الآلهة ديانا بقوس صيدها الذهبي أنه إن فعل ذلك فسوف تكافئه بشيء نادر يسعده.

فلما أفاق بركليس من نومه وقد انتعشت حواسه وقواه روى حلمه وقال أنه قرر أن يطيع أمر الآلهة ديانا.

وعندئذ تقدم ليزيماخوس فدعا بركليس للنزول إلى الشاطئ للنزهة والاستجمام بين ربوع ميتيلين. ولم يسع بركليس أن يرفض هذه الدعوة الودية وقرر تمضية يوم أو يومين هناك. وفي وسعنا أن نتخيل الحفلات والمآدب الفاخرة والمهرجانات والملاهي التي أقامها الحاكم للترحيب بالملك والد عزيزته مارينا التي استحوذت على قلبه وهي فتاة مجهولة النسب والمقام.

ولم يقع موقع الاستياء من بركليس تقدم ليزيماخوس بطلب يد مارينا بعد أن عرف مبلغ تقديره لها في مدة تكتمها لشخصيتها، واعتبار الناس لها أمة من الرقيق لا أكثر. ولاسيما أن مارينا أظهرت ميلها إلى هذا الحاكم الشاب الكامل الصفات.

ولم يشترط الملك بركليس إلا شرطا واحدا لإعلان رضاه على هذا الزواج. هو أن يحضر الاثنان معه حجه إلى معبد ديانا في أفسس. وعلى الفور شد الثلاثة الرحال إلى هناك.

ويبدو أن الآلهة ديانا كانت تشمل هذه الرحلة برعايتها. فملأت الشراع بالريح المواتية. وبعد أسابيع قليلة وصلوا ساسلين إلى أفسس.

وهناك بالقرب من مذبح هيكل ديانا، وقف سريمون الطبيب الذي رد تايزا إلى الحياة. أما تايزا زوجة بركليس وأم مارينا، فكانت ماثلة أمام الهيكل بصفها كاهنة المعبد. وبالرغم من السنوات الطويلة التي أمضتها في الأحزان. وأمضاها بركليس في الحزن عليها حتى تغيرت ملامحه. إلا أنه ما أن دخل تتبعه حاشيته إلى المعبد حتى خيل إلى تايزا أنها عرفت شحنة زوجها.

وتقدم بركليس من المذبح وبدأ يتكلم ساردا قصته بحذافيرها. فعرفت تايزا صوته على الفور وأصغت لكلماته بدهشة وسرور عظيمين وكانت هذه الكلمات التي قالها بركليس أمام الهيكل:

– السلام لك يا ديانا المعظمة! استجابة لأوامرك هأنذا أقف هنا أمام مذبح هيكلك فأفسس أننا ملك صور الذي خرجت يوما هاربا من مملكتي وتزوجت في بنتابوليس الحسناء تايزا التي هلكت في البحر وتركت لي ابنة اسمها مارينا وتولت ديونيزا في طرسوس تربية هذه الطفلة. فلما بلغت الرابعة عشر من عمرها دبرت ديونيزا مقتل مارينا. ولكن شاءت عناية الآلهة أن تنجو وتنتقل إلى ميتيلين. وكنت

ماراً بسفينتي عند شاطئ ميتيلين فشاء حسن الطالع أن يسوق هذه الفتاة إلى سطح سفينتي حيث اتضح لي أنها ابنتي.

ولم تستطع تايزا أن تتحمل ما في هذه الكلمات من مفاجآت سارة متراكمة. فصرخت وهي أمام الهيكل:

– أنت هو! أنت هو.. ملكي بركليس!

ثم أغمي عليها، فقال بركليس:

– ماذا تعني هذه المرأة؟ أراها توشك أن تموت! أدركوها!

فتقدم الطبيب المسن سريمون وقال له:

– إن كان ما ذكرته أمام مذبح ديانا صحيحا يا سيدي. فهذه السيدة زوجتك. وهي بعينها تايزا!

فهز بركليس رأسه نفياً وقال:

– سيدي المبجل. هذا غير صحيح. فقد ألقيت بيدي هاتين جثة زوجتي إلى البحر.

فلم يسع سريمون بعد ذلك إلا أن يقص على بركليس كيف قذفت الأمواج بالتابوت إلى شاطئ أفسس. وكيف فتح التابوت فوجد فيه المجوهرات الثمينة والرسالة التي كتبها بخطه. ثم كيف أفاقها من إغمائها لتتنسك وتغدو راهبة من كاهنات معبد آلهة أفسس.

* * *

وعندئذ كانت تايزا قد تنبهت من غشيتها، فقالت بصوت ضعف:

– مولاي! ألست أنت بركليس؟ إنك تشبهه كلاما وشكلا. ألست قد ذكرت

أمام المذبح عاصفة بحرية ومولد فتاة ووفاة زوجة؟

فقال بركليس مذهولا:

- أكاد أجن! هذا صوت المرحومة تايزا!

- بل أنا تايزا، التي ظننتها ماتت وغرقت..

فاستولى جلال المعجزة على بركليس وصرخ يخاطب ديانا:

- أيتها الصادقة بين الإلهات يا ديانا! المجد لك!

وراح يرجع بصره في تايزا مليا كمن لا يصدق عينيه ولمسات أنامله فقالت له تايزا:

- إنه أنت.. الآن عرفتك يقينا. فهذا الخاتم الذي في إصبعك أعطاك إياه والدي الملك عندما فارقناه باكيين في مدينة بنتابوليس.

فصرخ بركليس:

- كفى أيتها الآلهة كفى! إن رحماتك الحاضرة قد مسحت كل أثر لمتاعبي ومصائبي الماضية. والآن تعالي يا تايزا لكي تدفني مرة أخرى بين هذه الأحضان.

وصاحت مارينا.

- إن قلبي يكاد يثب من ضلوعي ليرتمي على صدر أمي!

فأخذ بركليس ابنته من يدها وقدمها إلى أمها قائلا:

- انظري جيدا! إن هذه الرائعة هنا لحمها بضعة من لحمك. إنها ابنتك التي ولدت لك في البحر ولهذا اطلقت عليها اسم مارينا.

وتعانقت الأم والابنة عناقا تذوب له أشد القلوب قسوة. وركع بركليس أمام

مذبح ديانا وقال:

– أن امتناني لك يا ديانا الطاهرة لا يقدر.. سأقدم لك كل ليلة القرابين ما حييت.

* * *

وفي هيكل ديانا أعلن بركليس بموافقة تايزا خطبة ابنته مارينا إلى الفتى الفاضل الجدير بها ليزيماخوس.

وهكذا رأينا في بركليس وزوجته وابنته مثلا بارزا للفضيلة. امتحنتهم الكوارث وصروف الأيام فصبروا صامدين وانتهوا آخر الأمر إلى الفوز المبين الذي هو عاقبة المتقين..

وفي هليكانوس رأينا مثال الصديق الوفي والصاحب الأمين الذي لا تغريه المطامع ولا تغويه الفرص المواتية.

وبقي أن نذكر أن ديونيزا زوجة كليون الشريرة لقيت جزاء شرها لأن رعيتها أهل طرسوس حين علموا بما دبرته في الخفاء انتقموا منها شر انتقام وأشعلوا النار في القصر فهلكت هي وكليون وسائر أهل بيتها. وهكذا يحيق المكر السيئ بأهله.

مهزلة الأخطاء

كان هناك خلاف شديد بين دولتي سيراقوزه وافسس، ولهذا صدر في أفسس قانون قاس يتعين بمقتضاه أن كل تاجر من رعايا سيراقوزه يضبط في مدينة افسس ينفذ فيه الاعدام إلا إذا دفع فدية عن حياته مقدارها ألف مارك.

وكان ايجيون تاجرا عجوزا من رعايا سيراقوزه. وضبط في شوارع أفسس. فأتى به الجند أمام دوق المدينة. أما ليدفع الغرامة الباهظة أو ليتلقى من فم الدوق حكم الإعدام.

ولما سأل الدوق ايجيون إن كان يستطيع أن يفتدي نفسه بذلك المبلغ، قال له إنه لا يملك مثل ذلك المبلغ. وأوشك الدوق أن يصدر عليه حكم الإعدام لولا أن كبر سن التاجر السيراقوزي، ووجوده في افسس مجازفا بحياته، أقنعه أنه لابد أن يكون وراء ذلك الرجل قصة حافلة ممتعة. فلم يصدر عليه حكم الإعدام ريثما يسمع منه قصة حياته. وقال له:

– أريد منك أن تروي لي قصتك أيها الشيخ. وتخبرني عن السبب الذي دفعك للمجازفة بالحضور إلى مدينة أفسس مع أنك تعلم أن ذلك معناه الموت لأي تاجر سيراقوزي يأتينا.

فقال له ايجيون:

– أما خطر الموت يا صاحب السمو فلم يكن ليرهبني

– وهل في سنك يحتفظ الإنسان ببقية طيش تجعله يتحدى الموت؟

فقال العجوز:

– لم يكن عن طيش أنني استهنت بوعيد الموت بيد جلاد أفسس. وإنما زاهدا في الحياة بعد أن بغضتها إلى الهموم والآلام. ولهذا فإن أمر سموك لي بسرد وقائع حياتي عقوبة وغرامة أفدح من كل ما أستطيع احتماله. فحياتي طافحة بالشقاء والمتاعب، ولكنني إطاعة لأمر سموك أحكيها.

* * *

وبدأ الشيخ السيراقوزي يسرد تاريخه العجيب:

ولدت يا مولاي في سيراقوزه، ونشأت في حرفة التجارة، ثم تزوجت سيدة عشت معها في أسعد حال. إلى أن اضطرتني أسباب التجارة أن أرحل في سفرة إلى ايبيدامنوم. وهناك عوقتني مصالح العمل مدة ستة أشهر. فلما انتهت تلك المدة ووجدت أنني سأضطر اضطرارا أن أبقى مدة أخرى في ذلك البلد، قررت أن أرسل في طلب زوجتي كي تكون معي. ذلك أني كنت أحبها وأقلق عليها من طول الإقامة بمفردها.

ولم تضيع زوجتي وقتا بل حضرت على الفور. مع أنها كانت في الفترة الأخيرة من حملها. فبمجرد أن وصلت إلى البيت الذي أقيم فيه حضرها المخاض ثم وضعت غلامين توأمين، ففرحت بهما فرحا مضاعفا.ومن الغريب أن هذين الغلامين كانا متشابهين كل التشابه. حتى أنه لم يكن من الممكن تمييز أحدهما من الآخر.

ومن عجائب المصادفات أنه في الوقت الذي وضعت فيه زوجتي التوأمين، جاء المخاض زوجة رجل فقير يقيم في غرفة حقيرة من الخان الذي كنت أستأجر فيه جناحا. وولدت له تلك المرأة توأمين غلامين كذلك. ويشبه أحدهما الآخر كما يتشابه أبنانا تماما..

وبقدر ما فرحت أنا بولادة التوأمين ابنينا، ركب الهم والد التوأمين الآخرين. فاشتريتهما منه لأريحه من عبء يرهقه، وربيتهما ليكونا خادمين لولدينا مقاربين لهما في العمر.

" وكان ولدانا طفلين جميلين.. فكانت زوجتي كثيرة الزهو بهما. وأخذت في كل يوم تبدي لي رغبتها الشديدة في العودة إلى وطننا سيراقوزه، كي تري ولدينا للأهل والأصدقاء. وأخيرا قبلت على مضض. وفي ساعة نحس ركبنا السفينة التي كانت ستبحر بنا إلى سيراقوزه.

وأقول ساعة نحس لأن تلك السفينة لم تكد تبعد عن الشاطئ الا بمقدار فرسخ واحد، حتى ثارت زوبعة فظيعة استمرت على عنفها حتى أن البحارة أعلنوا يأسهم من انقاذ السفينة، ثم استقلوا قاربا صغيرا لينجوا بحياتهم، وتركونا وحدنا في السفينة نواجه الغرق والموت. فلبثنا نتوقع حلول الكارثة المهلكة بين الأمواج في كل لحظة.

وظلت زوجتي تولول بغير انقطاع، وكان طفلانا لا يدريان ماذا هناك ولا يعرفان بعد ما هو الخوف. ولكنهما لما أبصرا والدتهما تبكي، أخذا يبكيان مشاركة لها. فملأني بكاء هؤلاء الثلاثة بالذعر خوفا عليهم ورحمة بهم، مع أنني كنت رجلا لا أخشى الموت لكثرة ما تعودت الأسفار والأخطار، وصارت كل أفكاري موجهة إلى تدبير وسيلة تضمن لهم النجاة.

ولم أجد أمامي إلا المجازفة اليائسة. فربطت ابني الأصغر إلى نهاية صار صغير كان ملقا على ظهر السفينة مما يوضع هناك في الغالب احتياطا لهبوب العواطف وتحطم الصاري الكبير. وفي الطرف الآخر لهذا الصاري ربطت كذلك أصغر العبدين التوأمين.

وفي الوقت نفسه أمرت زوجتي فربطت ابننا الآخر والعبد الآخر في صار آخر على نفس المنوال. وبعد أن فرغنا ربطت نفسي إلى الصاري مع أصغر الولدين. وربطت هي نفسها في الصاري مع أكبرهما.

ولولا أن خطر لي هذا الخاطر لكنا جميعا هلكنا. فإن الرياح العاتية قذفت بالسفينة فوق صخرة كبيرة فهشمتها وتناثرت قطعها. أما نحن فإن ارتباطنا بالصاريين الصغيرين جعلنا نطفو فوق وجه الماء.

ولم أكن في وضع أستطيع معه مساعدة زوجتي لانصرافي إلى العناية بالطفلين المربوطين معي. وسرعان ما باعد البحر بيننا. ولكن قبل أن تغيب زوجتي عن بصري تماما لمحت قاربا من قوارب الصيادين ينتشلها والغلامين. وخيل إلي أن هؤلاء الصيادين من أهل كورنثوث.وحمدت الله أن كتب لهم السلامة. فانصرفت بجهدي كله لمصارعة أمواج البحر العاتية كي أنقذ ابني الصغير وأصغر العبدين.

وأخيرا أتاح الله لنا نحن أيضا سفينة أنقذتنا. وكان ملاحوها يعرفونني من أسفار سابقة، فرحبوا بنا أجمل ترحيب وساعدونا ما استطاعوا إلى أن انزلونا على شاطئ سيراقوزه. ولكنني منذ تلك الساعة التعسة التي ثارت فيها العاصفة إلى اليوم لم أستطع أن أعرف ماذا تم في أمر زوجتي وابننا الكبير والعبد الآخر.

وشغلت نفسي بالشئ الوحيد الباقي لي في الحياة وهو ابني الصغير. فربيته أحسن تربية. فلما بلغ أشده وصار له من العمر ثماني عشرة سنة، بدأ يفكر في أمر والدته وشقيقه. إلى أن اشتد قلقه واهتمامه وصار يستحثني ليل نهار أن أسمح له بالذهاب في صحبة العبد الذي اشتاق لمعرفة مصير أخيه، كي يبحثا عن زوجتي وابني الكبير والعبد الكبير.

وتحت ضغط ذلك الالحاح الطويل وافقت. ولكني كنت غير مستريح لذلك.

أجل إنني شديد الشوق للعثور على زوجتي وابني. ولكن المجازفة بالابن الباقي لي قد تنتهي بفقده هو أيضا.

واليوم قد انقضت يا مولاي سبع سنوات منذ رحل ابني بحثا عن أمه وأخيه. ولي اليوم خمس سنوات وأنا أجوب الأرض منقبا عنه. ذهبت إلى أقصى بلاد اليونان، واجتزت حدود آسيا. ولكني لم أقف له على أثر. فقررت العودة إلى وطني سيراقوزه.

وفي طريقي إلى بلدي، قررت المجازفة بحياتي ودخول افسس لأنها المكان الذي لم أنقب فيه بعد عن ضالتي الثمينة. ولم يكن في وسعي أن أترك أي بلد يعيش فيه البشر من غير أن أبحث فيه عن ابني الضال.

هذه قصة حياتي إلى اليوم يا مولاي الدوق. ولكن اليوم أيضا ستختم هذه الحياة. وإني لسعيد أن أستريح بين أحضان الموت. وكانت سعادتي تكمل به لو أنني مت مطمئنا واثقا أن زوجتي وولدينا ما زالوا على قيد الحياة

فلما انتهى ايجيون من سرد المصائب التي مرت به في حياته، شعر الدوق بالشفقة على هذا الوالد المنكوب.

الذي عرض نفسه لموت محقق في افسس مدفوعا بشدة حبه لابنه المفقود

وفكر الدوق برهة طويلة ثم قال له:

– إني شديد العطف عليك أيها الشيخ بسبب آلامك التي قاسيتها ونبل العاطفة التي دفعتك إلى تحدى القانون وتحدي الموت. وكنت حريا لهذا أن أخلى سبيلك، لولا أن القانون صارم صريح. وأنا قد أقسمت بشرفي وديني أن احترم هذا القانون ولا أميل به قيد شعرة. ولكنني سأستعمل مدى الحرية الوحيد الذي أملكه. فبدلا من أن آمر باعدامك فورا كما هو مفروض،

سأمنحك يوما هذا مهلة، تحاول فيه أن تقترض أو تستجدي مبلغ الفدية المطلوبة منك.

ولم يتقبل ايجيون هذه المنحة الثمينة بفرح شديد. فهو لا يعرف أي انسان في افسس. وهو لا يعتقد أن أحدا من هؤلاء الغرباء يمكن أن يقرضه ذلك المبلغ الضخم وهو ألف مارك ذهبا ليدفع الفدية، ففي يأس شديد وحيرة مطبقة انسحب ايجيون من حضرة الدوق في حراسة سبحان كلف بملازمته حتى لا يهرب.

* * *

كان ايجيون يعتقد أنه لا يعرف أحدا في افسس. ولكن في الوقت الذي جازف فيه بحياته كي يفتش بعناية عن ولده الصغير، كان هذا الولد وأخوه الأكبر أيضا يقيمان في مدينة افسس وهو لا يدري.

ويجب أن نعلم أن ابني ايجيون التوأمين لم يكونا متشابهين في الوجه والجسم تماما فحسب. بل ومتشابهين كذلك في الاسم أيضا. فكل منهما يدعى انتيفولس. وكذلك العبدان التوأمان كل منهما يدعى دروميو، وكان أصغر ولدي ايجيون، وهو انتيفولس السيراقوزي الذي حضر ايجيون في ذلك اليوم للبحث عنه في افسس، قد وصل في اليوم نفسه بسفينة أخرى إلى افسس ومعه عبده دروميو.

وكان انتيفولس السيراقوزي حريا أن يلقي حتفه بالاعدام تنفيذا للقانون الذي يطبق على أبيه، لولا أنه لحسن حظه التقى بصديق أخبره بالخطر الذي حاق بتاجر عجوز من مواطنيه أهل سيراقوزه. ونصحه أن يزعم نفسه تاجرا من أهل أيبيدامنوم. فوافق انتيفولس على هذا الرأي ونفذه.

وساء انتيفولس السيراقوزي أن يسمع بمواطن له يعدم في الغربة. ولكن لم

يخطر بباله أن هذا التاجر العجوز هو بعينه والده الذي تركه في سيراقوزه منذ سنوات أربت على السبع.

* * *

أما أكبر ولدي ايجيون وهو انتيفولس الافسسي فكان يعيش في افسس منذ عشرين سنة، وحسنت أحواله فأصاب ثروة كبيرة. وكان في استطاعته أن يدفع من ماله الكثير قيمة الفدية المرصودة على رأس أبيه. بيد أن انتيفولس كان لا يدري شيئا عن أبيه. فقد كان صغيرا جدا عندما انتشله الصيادون من البحر هو ووالدته، إن آخر ما يذكره عن طفولته هو حادث انتشاله من البحر ونجاته بتلك الوسيلة من الغرق. أما شكل أبيه أو حتى شكل أمه فلا يذكر منهما شيئا على الإطلاق.

لم يكن الصيادون الذين أنقذوا الطفلين والسيدة من أهل النخوة. فقد انتزعوا الطفل انتيفولس والعبد دروميو من السيدة زوجة ايجيون غير مبالين ببكائها ونواحها، وفي نيتهم أن يبيعوا الغلامين في سوق الرقيق، وبذلك انفصل انتيفولس عن أمه قبل أن تنقش صورتها في ذاكرته الغضة. وبيع مع دروميو فاشتراهما دوق مينافون، وهو محارب مشهور، وفي الوقت نفسه خال دوق افسس، فأخذ الغلامين إلى افسس عندما ذهب إلى هناك ليزور ابن أخته الدوق.

ومال قلب دوق افسس إلى انتيفولس الوسيم. فلما شب عن الطوق عينه ضابطا في جيشه. وأظهر انتيفولس براعة وبسالة في المواقع التي خاضها مع الجيش. وفي إحدى هذه المواقع كان انقاذ حياة مولاه الدوق على يده. فكافأه الدوق على ذلك بأن زوجه من أدريانا، وهي سيدة ثرية جدا من أعيان أفسس. فعاش معها سعيدا وصار من وجهاء القوم، وكان العبد دروميو ما زال في خدمته، يصرف أمور سيده وثروته، عندما وصل ايجيون إلى المدينة.

ونعود إلى انتيفولس السيراقوزي. فنجده قد ترك صديقه الذي نصحه ادعاء الانتماء إلى ايبيدامنوم لينجو من الموت. ثم أعطى عبده دروميو السراقوزي نقودا ليذهب بها إلى الخان الذي سيتغدى فيه. وإلى أن تحين ساعة الغداء قال للعبد أنه سيشغل نفسه بالتجول في شوارع المدينة لمشاهدة معالمها ومراقبة أحوال الناس وغاداتهم.

وكان عبده دروميو فتى ظريفا. بارع النكتة كثير ألالاعيب. وكلما وجد سيده انتيفولس مهموما أو واجما كان يسري عنه بأحاديثه وألاعيبه. لهذا كان يحب عبده كثيرا، ويسمح له بكثير من الحرية في مخاطبته بشكل غير مألوف بين السادة وخدمهم.

وبعد أن غاب دروميو عن بصر انتيفولس السيراقوزي، وقف انتيفولس بمفرده يفكر برهة في أسفاره هذه الموحشة بحثا عن أمه وأخيه اللذين لم يستطع أن يعرف عنهما أي خبر في أي مكان نزل به. ولما بلغ من تفكيره هذا المبلغ قال لنفسه في أسى:

– إن مثلي مثل قطرة من الماء في المحيط خطر لها أن تنقب عن قطرات أخرى أخوات لها، فأضاعت نفسها في البحر المتلاطم. وهكذا أنا لسوء حظي رحت أبحث عن أمي وأخي فأضعت نفسي !

وفيما هو واقف هكذا يطيل التفكير في أسفاره المضنية وتعبه الذي لم يظفر منه بطائل، إذا به يرى عبده دروميو قد عاد إليه. أو هذا هو ما خيل إليه.

وعجب انتيفولس في نفسه كيف عاد العبد بهذه السرعة ولماذا عاد؟ وخشي أن يكون قد فقد النقود وهو في طريقه إلى الخان. فسأله:

– أين تركت النقود يا دروميو؟

وكان اسم هذا الفتى دروميو حقا. ولكنه لم يكن عبده هو، بل عبد شقيقه التوأم انتيفولس الافسسي. فإن الشبه ظل تاما بين التوأمين السيدين والتوأمين العبدين كما كانوا في الطفولة الأولى، فلا عجب أن ظن انتيفولس السيراقوزي أن عبده هو الماثل أمامه وقد عاد من غير أن يقوم بالمهمة التي كلفه بها.

وإذا به يسمع دروميو يتجاهل سؤاله ويقول له شيئا آخر وقع منه موقع العجب. لأن دروميو قال:

– لقد أرسلتني سيدتي إليك لتقول لك أن الغذاء جاهز، فهيا لتتناولاه قبل أن يبرد. وهي تلح عليك في الإسراع. لأن تباطؤك كل يوم يفسد الطعام فإما أن يحترق بتركه على النار. أو يفسد طعمه إذا انزلته من فوق الموقد وتركته يبرد.

فظن انتيفولس أنها تهريجة أخرى من تهريجات عبده وصاح به:

– ليس هذا وقت الهزر يا دروميو. دعني من هذا وخبرني أين تركت النقود التي أعطيتها لك منذ حين؟

فأصر دروميو أنه لا يمزح، وعاد يجذبه جذبا ليذهب إلى البيت. لأن سيدته في حالة استياء شديد لتأخيره

– سيدتك؟ ومن هي؟

– زوجتك طبعا يا سيدي. منذ متى لي أو لك سيدة أخرى؟

ولما كان انتيفولس أعزب ولم تكن له في يوم من الأيام زوجة، فقد ثار غضبه على دروميو وصاح فيه:

–أظننت أيها العبد لأني أتبسط معك أحيانا أن من حقك أن تمازحني هذا المزاح الوقح؟ إني لست الآن في حالة تسمح لي بالمجون والهزر. صدري ضيق. فأسرع وخبرني بمصير نقودي. أنت تعلم أننا غرباء في هذه البلدة لا نعرف

أحدا. فكيف تثق بأي شخص وتسلمه مبلغا كبيرا كهذا؟ كان يجب أن تحتفظ به وتمكث هناك لحراسته ريثما أعود

وظن درومیو عندما سمع مولاه يقول أنهما غريبان عن البلدة أن مولاه يمزح معه. فقال له:

–أرجوك يا سيدي أن تخلي هذا المزاح حتى تجلس إلى المائدة. فإن المزاح لا يبرد بالانتظار كالطعام. ولا يغلي بالانتظار كسيدتي. فقد أمرتني أمرا واضحا حازما أن آتي بك إلى البيت فورا. فإن شقيقة سيدتي عندنا في البيت. وسيدتي لن تتسامح اليوم في تأخير الغذاء !

وهنا كانت قد بلغت دهشة انتيفولس غايتها. فما هي هذه الحكاية التي تتشعب. فبعد أن كانت له زوجة صارت لزوجته أخت. وهي سلسلة لا تنتهي إن لم يضع لها حدا واضحا. فعيل صبر انتيفولس وضرب درومیو فأوجعه !

وعاد درومیو إلى البيت فأخبر سيدته أن مولاه يرفض الحضور للغداء، وأنه عندما أخبره بوجود أخت سيدته في البيت فاض غيظه فضربه. وأراها مواضع الضرب الذي يدل على غيظ عنيف حقا

ونستطيع أن نتصور بسهولة مدى الغضب الذي شعرت به ادريانا زوجة انتيفولس الأفسسي، وجرح كرامتها أمام أختها، وهي السيدة الثرية الوجيهة، عندما قال لها البعد أن زوجها قال له:

– اذهب يا عبد النحس عن وجهي ! منذ متى لي زوجة؟

وكانت ادريانا من النساء الغيورات غيرة شديدة. فطار عقلها واعتقدت أنه ليس لهذا الكلام إلا معنى واحدا. أن زوجها الوسيم قد تعلق بامرأة أخرى أجمل منها، وجلست بجانب أختها تنعيان الحظ الأسود، وترميان الرجال أجمعين

بالخيانة، ولاسيما هذا الزوج الغادر الذي لا يثمر فيه معروف

وبعد قليل خطر للوسيانا شقيقتها أن شكوك أختها ربما كانت على غير أساس وحاولت أن تهدئ من ثورتها. ولكن جهودها ذهبت عبثا.

* * *

ونعود إلى انتيفولس السيراقوزي فنجده توجه إلى الخان وهو غاضب ليتغذى ويزيد في عقاب عبده، وما إن دخل الخان حتى وجد دروميو جالسا في أمان الله والمال في حراسته لم يمس. وأوشك أن ينقض عليه ليزيده ضربا حتى لا يعود إلى ألاعيبه في غير أوانها فيتجاوز بها الحدود المعقولة. وإذا بأدريانا تقبل عليه لتأخذ بخناقه وهي لا تشك أن الذي أمامها إلى الخان. فاعتقدت أن الخان هو مكان لقائه بمنافستها وأسرعت إلى هناك.

وأخذت تقرعه تقريعا شديدا لتلك النظرات الغريبة التي يطالعها بها. والمسكين معذور في التطلع باستغراب إلى هذه السيدة الثائرة التي لم يرها في حياته من قبل. ثم أخذت تحاول الاستيلاء على قلبه، بتذكيره بأيامهما الخوالي، حينما كان يموت في هواها قبل أن يقترن بها. وكيف تغيرت أحواله فأصبح بعد الزواج يحب امرأة أخرى ويتركها في البيت ذليلة في نظر أختها وفي نظر الخدم والعبيد أيضا

– ما الذي جرى يا زوجي العزيز حتى تغيرت أحوالك هكذا؟ ماذا حدث حتى فقدت حبك الذي كان حديث الناس جميعا؟

ولم يزل انتيفولس المسكين يحملق فيها ساكنا ذاهلا. فلما فرغت من إلقاء هذا السؤال المحرج. أشار إلى صدره وقال:

– أتكلمينني أنا أيتها السيدة الحسناء؟

فرفعت حاجبها وسألته باستنكار:

– ومن أخاطب إذن بهذا الكلام سواك؟

وعبثا حاول المسكين أن يخبرها أنها مخطئة. وأنه ليس زوجها. ولم يتزوج أبدا في حياته. ولم يرها في عمره. وأنه لم يدخل بلدها هذا إلا منذ ساعتين !

وأصرت أدريانا، وكان لها أن تصر، وظنتها صورة من صور غضبه أو رغبته في هجرها والتخلص منها، فتشبثت به لا تريد أن تتركه أو يصحبها إلى البيت.

وخاف الشاب من تجمع الناس حوله وهو غريب في البلدة، من مصلحته تحاشى الفضيحة وهو متهرب من قانون الاعدام، فرأى من الأفضل أن يرضخ لرغبتها ويذهب معها إلى بيتها.

ذهب انتيفولس إذن مع هذه السيدة، التي لا يدري من هي، إلى بيتها وهو لا يعلم أنه بيت شقيقه. وهناك تغدي معها ومع أختها. وربة الدار تصر على مناداته "يا زوجي العزيز" وأختها تناديه بصورة طبيعية جدا "يا زوج أختي".

وإزاء هذا بدأ انتيفولس المسكين يشك في عقله وذاكرته ويسأل نفسه هل تزوج هذه السيدة حقا وهو نائم فلم يتذكر زواجه منها بعد أن أستيقظ. أو ربما كان نائما الآن وما يحدث له إنما هو حلم

ولم يكن عبده درموميو الذي تبعه بطبيعة الحال إلى هناك. أقل دهشة منه. فما دخل المطبخ ورأته الطباخة – وهي في الواقع زوجة أخيه التوأم – حتى راحت تتعلق بعنقه وتدعوه زوجها وتدس في فمه الطعام.

وبينما انتيفولس السيراقوزي يتغدى مع زوجة أخيه، إذا بأخيه الزوج الحقيقي وقد عثر به عبده درموميو فجاء معه ليتغذى. ولكن الخدم رفضوا فتح الباب لأن سيدتهم بعد أن عادت بزوجها أرادت أن تهيئ الجو لإعادة الصفو بينها وبين

زوجها الذي تظنه زاهدا فيها، فأمرت بعدم إدخال أحد حتى لا تفلت من يدها هذه الفرصة لتهيئة الجو لإصلاح ذات البين، وأخذ زوجها بالتحبب والملاطفة كي تسترد قلبه.

وعاد انتيفولس يطرق الباب بغضب. وكذلك عبده. وينادیان بأعلى صوتيهما أنهما رب الدار وخادمه. فتتضاحك الخادمات من هذا الزعم، ويجبن قائلات لهذين المزورين أن انتيفولس جالس إلى المائدة مع زوجته. وأن دروميو مختل في المطبخ بزوجته أيضا.

ورغم اشتداد الطرق حتى كاد ينخلع الباب، لم يستطع الاثنان دخول الدار. وأخيرا انصرف انتيفولس وهو في أشد حالات الغضب والاستنكار. وبدأ يرتاب في أن زوجته دبرت هذه المكيدة لتخلو بالرجل الذي زعمت للخدم أنه زوجها وأمرت بإغلاق الباب ليأكلا وحدهما.

* * *

فرغ انتيفولس السيراقوزي من تناول الغداء وهو في أشد حالات الدهشة من هذه السيدة التي لم تزل مصرة على مخاطبته والتودد إليه على أنه زوجها. وزادت حيرته أيضا عندما علم أن الطباخة ألقت بنفسها على دروميو وأدعت زوجيته. ولئن كان قد مال قلبه كثيرا إلى لوسيانا الحسناء شقيقة ادريانا. إلا أن أدريانا هذه العصبية المزاج الملتهبة الغيرة لم ترق في عينيه بل نفر منها وخاف. وكذلك دروميو لم تعجبه هذه الزوجة التي ظهرت له فجأة في مطبخ الدار.

فانتهز السيد وخادمه أول فرصة وتعللا ببعض المعاذير والحاجات ثم خرجا من البيت وهما يحمدان الله على الخلاص من هاتين الزوجتين العجيبتين، ولكن المفاجآت التي تنتظر انتيفولس السيراقوزي لم تنته فما كاد يخرج من عتبة الدار حتى

التقى به صائغ، فأخطأ وظنه، كما ظنته أدريانا، شقيقة التوأم انتيفولس الافسسي، وعلى هذا الأساس دفع إلى يده بسلسلة جميلة من الذهب وهو يقول:

– هذه هي سلسلتك يا سيد انتيفولس

ووجد انتيفولس أن الاسم اسمه حقا ولكن السلسلة ليست له، وحاول أن يوضح ذلك للصائغ. ولكن الصائغ ظنه يمزح. ودفعها في يده وقال وهو منصرف عنه:

– لقد صنعناها خصيصا على حسب طلبك.

وابتعد الرجل وترك انتيفولس يحملق في السلسلة تارة وفي ظهر الصائغ المبتعد تارة أخرى. ولم يكن ينقص إلا هذا ليطير ما بقي من عقله.

كان يحسب أن تلك المرأة مجنونة وكذلك من في دارها من الخدم وأختها والطباخة. ولكن بدأ يبدو له الآن أن الجنون صفة مشتركة شائعة بقية الأهالي. وإن كان الجنون الذي فرض عليه سلسلة من الذهب أخف وطأة من الجنون الذي كاد يفرض عليه زوجة !

وتحول انتيفولس إلى عبده دروميو الذي لا يقل عنه دهشة وقال:

– احزم جميع أشيائي وضعها على ظهر أول مركب مبحرة من هذا البلد الملعون إلى أي بلد آخر. فإني لا أستطيع البقاء في هذا الموضع بعد الآن وإلا أصابني الخيال. فما أظنه إلا بلدا مسحورا

* * *

وبعد أن مشي الصائغ قليلا، قابله رجال الضبطية وألقوا القبض عليه في دين لم يدفعه في موعده كما هو القانون في تلك الأيام.

وفي الميدان الذي قبض على الصائغ فيه اتفق مرور انتيفولس الافسسي المتزوج وهو لم يزل متغير النفس من أحوال زوجته. فتعلق به الصائغ قائلا:

– أرجوك. لولا هذا الظرف لما طالبتك الآن بشئ. ولكن هأنت ترى أنهم قبضوا علي لعدم دفعي الدين، فأعطني ثمن السلسلة التي سلمتها لك منذ قليل في الشارع الآخر كي يفرجوا عني.

وبطبيعة الحال وقع هذا الكلام من انتيفولس الافسسي موقع الدهشة الشديدة. وأنكر بكل حماسة أنه تسلم السلسلة، فكاد الصائغ يجن وأخذ يحلف ويصرخ أنه أعطاه السلسلة منذ دقائق معدودة في شارع كذا.. ونشب شجار بين الاثنين استمر برهة طويلة. وكل منهما متمسك طبعا بصدق أقواله.

ولما كان انتيفولس الافسسي فارسا معروفا ومن الأعيان فقد صدق الضابط كلامه واعتقد أن الصائغ اصطنع هذه الضجة ليجد فرصة للهرب من أمر القبض عليه. وساق الصائغ بلا إمهال إلى السجن.

ولكن الصائغ ظل يصرخ ويطلب تطبيق القانون. وهو يقضي بالقبض على انتيفولس أيضا في ثمن السلسلة إلى أن يثبت أمام القضاء وجه الحقيقة.

وهكذا وجد انتيفولس نفسه مسوقا إلى السجن في تهمة لا يعرف عنها شيئا. فمشى مع الضابط وهو كالمذهول. وإذا به يبصر دروميو السيراقوزي مارا في الشارع، فظنه دروميو الافسسي عبده، فناداه وأمره أن يذهب إلى زوجته أدريانا ويحضر من عندها المبلغ الذي أدعاه عليه الصائغ ليفرج عنه ولا يبيت ليلته في السجن.

وظن دروميو أن الذي يخاطبه هو مولاه السيراقوزي. وعجب من أمره كل العجب. فعهده به منذ قليل يريد أن يهرب من البلد كلها من أجل خاطر هذه

الزوجة المزعومة المجنونة. فكيف يريد الآن أن يبعث به إلى ذلك البيت المسكون بالمجنونات؟

ولشدة دهشة العبد لم يجد ما يقوله لمولاه. مع أنه كان آتيا من المرفأ ليخبر سيده أن السفينة مستعدة للإقلاع فور، ولما لاحظ على وجه مولاه أنه ليس مستعدا للمناقشة لم يحاول التعليق وذهب لينقذ ما أمره به. وهو يغمغم في نفسه:

– أمري إلى الله. سأذهب إلى هذا البيت الذي تزعم تلك الطباخة فيه أنني زوجها. ومع هذا يجب أن أذهب لأن الخدم يجب أن يطيعوا أوامر سادتهم.

* * *

ولم تتوان أدريانا في إعطاء المبلغ المطلوب لدروميو. وفي طريقه إلى السجن التقى في الشارع بمولاه انتيفولس السيراقوزي. فوجده في أقصى حالات العجب للأمور التي مرت به.

وإذا تذكرنا أن أخاه انتيفولس الافسسي من وجهاء مدينة أفسس. استطعنا أن نتصور كيف أن كل رجل تقريبا كان يمر بأنتيفولس السيراقوزي يحييه باشتياق ومودة كأنه صديق قديم جدا. وهو الرجل الغريب الذي لم يحضر إلى تلك البلدة سوى ذلك اليوم.

وكان من الممكن أن يظن بهم السخرية بالغرباء. لولا أن كثيرين منهم كانوا يعطونه نقودا ويشكرون له أنه أقرضها لهم في وقت عسرهم، ونفرا آخر كان يشدد في دعوته للزيارة، ونفرا ثالثا يشكرونه على التهنئة أو التعزية أو على زيارتهم وهم مرضى

كان هؤلاء جميعا يظنونه أخاه التوأم، حتى أن أعظم خياطي البلدة قطع عليه الطريق وأصر أن يريه الحرائر الفاخرة التي اشتراها من أجله خصيصا. ولم يتركه إلا

بعد أن أخذ مقاسه ليفصل الثياب !

معذور انتيفولس إذن أن أعتقد أنه حل في شعب من السحرة أو المسحورين. ولم يستطع درموميو أن يخفف من ذهول مولاه. بل زاد منه بالتأكيد حين سأله:

– ولكن انتيفولس يمكن أن يفسر ما حدث له بأن أهل البلدة مسحورين أو مخبولين. ولكن بماذا يفسر كلام عبده عن شئ لم يحدث مطلقا؟

إن كلام درموميو كان هو الطامة الأخيرة. فنظر إلى عبده شذرا وقال:

– إن المسكين درموميو خولط في عقله ولا شك. ونحن تائهان في هذا البلد في جو من الأحلام المتداخلة.

ورفع يديه إلى السماء وصرخ:

– فلتدركنا رحمة الله وتخلصنا من هذا المكان الملعون.

* * *

ولم يكن النصيب المقدر لانتيفولس من الغرائب المذهلة قد وصل إلى الغاية، فها هي ذي غانية لم يرها في حياته تقبل نحوه وهي تتأود. وتناديه باسمه. فلما رأت دهشته ذكرته أنه تغدى معها في هذا النهار بالذات. وسألته عن السلسلة الذهبية التي زعمت له أنه وعدها أن يشتريها ويهديها إليها.

وعندئذ نفد صبر انتيفولس، فصرخ فيها يلعنها ويسبها ويدعوها بالساحرة والمشعوذة، وينكر أنه وعدها بسلسلة من الذهب أو غيره. أو أنه تغدى معها. بل انه لم يرها في حياته قبل هذه اللحظة !

ولكن المرأة أصرت على أقوالها مؤكدة أنه تغدى معها في بيتها. وأنه وعدها

بتلك السلسلة. فلما عاد ينكر بصورة قاطعة ذلك كله، لم يسعها إلا أن تقول له بلهجة التحقير:

– إذن تعطيني خاتمي الذي أعطيتك اياه، ما دمت لا تريد أن تفي بوعدك وتعطيني السلسلة الذهبية. هات خاتمي أيها المراوغ.

فطار صواب انتيفولس، وأخذ يصرخ يسبها ويلعنها ويتهمها بالنصب والتحايل. ويعلن أنه لا يعرفها ولم يرها في حياته ولا يعرف شيئا عن خاتمها

ثم جذب ذراعه من يدها وانطلق يجري ناجيا بعقله، وتركها من أشد حالات التعجب من أقواله وثورة غضبه. لأنه لم يخطر ببالها سوى أن ذلك الشخص هو الذي تغدى معها. وهو الذي أخذ منها خاتمها ووعدها أن يهديها سلسلة من الذهب. وهي طبعا مخطئة في هذا الوهم كما أخطأ سائر الناس حين ظنوا انتيفولس أخاه المتزوج. فالمتزوج هو الذي فعل جميع الأشياء التي يجني هذا الأعزب ثمراتها الحلوة والمرة على السواء.

* * *

ونعود إلى الوراء قليلا فنجد انتيفولس المتزوج عندما منعه خدمه من دخول بيته وهم يظنونه شخصا متطفلا لأنهم حسبوا أن سيدهم هو الذي يتغدى مع سيدتهم في الداخل، انصرف وهو في حالة غضب شديد وظن الظنون بزوجته التي يعلم عواصف غيرتها وما ترتكبه من حماقات في تلك النوبات.

ولما كانت أدريانا كثيرا ما تتهمه بقيام صلات بينه وبين نساء أخريات من جميلات المدينة وغوانيها. قرر أن ينتقم منها لاغلاقها الباب في وجهه، بأن يذهب ويتغدى مع غانية معينة مشهورة بالجمال، واستقبلته تلك المرأة بالترحيب الذي يليق بمكانته ووجاهته. فكان لذلك أثر مضاعف بعد الذي كان من فظاظة

مسلك زوجته. ومكافأة لها على ما أدخلته من السرور إلى نفسه وعدها أن يهديها سلسلة ثمينة من الذهب كان قد أوصى الصائغ بصنعها من أجل زوجته.. وهذه هي السلسلة التي أعطاها الصائغ خطأ لشقيقه التوأم وهو يظنه هو.

وراقت الفكرة لتلك المرأة. لأنها كانت تشتهي أن تتزين بسلسلة من ذلك النوع. وإعرابا عن فرحها أهدته خاتما. وهذا الخاتم هو الذي طالبت به أخاه عندما أنكر أنه تغدى معها أو وعدها بسلسلة من الذهب. ثم تركها وهو في ثورة من الانفعال لم تستطع أن تجد لها مبررا. وظنت أنه أصيب بالجنون. ثم خطر لها أن تمعن في النكاية به فذهبت إلى أدريانا لتخبرها بقصة زوجها معها وكيف أنه جن !

وبينما هذه المرأة تسرد على سمع أدريانا ما حدث. كان انتيفولس زوج أدريانا قد يئس من عودة عبده – أو الذي ظنه عبده – بالمبلغ المطلوب. فسمح له السجان بالنسبة لمكانته في المدينة أن يذهب معه إلى بيته ليعطيه النقود بنفسه. وهو لا يدري أن كيس النقود الذي سلمته أدريانا لذلك العبد ذهب إلى انتيفولس الآخر الذي لا يعلم حتى الآن بوجوده، وفي هذه اللحظة دخل انتيفولس الزوج ليجد المرأة الأخرى عند زوجته تخبرها بالقصة وتقول لها أنه أصيب بالجنون.

ولم يلق الزوج بالا إلى الزائرة. بل اندفع يوبخ زوجته لأنها هي سبب كل هذه المصائب. فلولا أنها جنت عليه وأمرت بإغلاق باب داره في وجهه ومنعته من الدخول ليتغدى، لما حدث هذا كله.

وكان هذا وحده كافيا لتصدق أدريانا أن زوجها أصيب بالجنون حقا. وتذكرت أنه حينما كان يتغدى معها على المائدة كان يكرر عليها أنه ليس زوجها ولا يعرفها. بل وقال ذلك للعبد عندما ذهب يدعوه للغداء، بل تذكرت أنه كان يكرر عليها أنه لم يحضر إلى أفسس إلا ذلك النهار. وذلك كله يقطع بأنه فقد عقله.

ونهضت الزوجة وهي في حال يرثي لها فدفعت بالمبلغ مرة أخرى إلى يد السجان. ثم صرفته. وصفقت فدعت جميع خدم الدار، وأوعزت اليهم أن يقيدوا سيدهم زوجها بالحبال تقييدا متينا. ثم يزجوا به في حجرة حالكة الظلام !

وأرسلت بعد ذلك في طلب طبيب ليعالجه من جنونه. وانتيفولس المسكين يجأر بالصراخ محتجا على هذه الوصمة الظالمة التي صبها على رأسه شبهه العجيب بأخيه وهو لا يدري.

ولم تزدهم صرخات احتجاجه ومزاعمه إلا اعتقادا في جنونه فلما انضم عبده دروميو إليه في تأييد مزاعمه، غمزت لهم السيدة فانقضوا عليه وشدوا وثاقه بالحبال وألقوا به في الغرفة المظلمة مع سيده. وتركوهما يصرخان إلى أن تخور قواهما فيسكتا مغلوبين على أمرهما. ريثما يأتي الطبيب فيرى فيهما رأيه.

* * *

وجلست أدريانا تندب حظها بعد أن ألقت بزوجها والعبد في هذا المحبس. وإذا بخادم يأتي ليقول لها:

– أدركينا يا سيدتي. لابد أن سيدي هو ودروميو قطعا الحبال وهربا. ومن يدري ماذا سيفعلان فتكون فضيحة كبرى في البلدة؟

– أفلتا؟ هذا مستحيل ! عليهما حراس أشداء

– ألم تسمعي يا مولاتي بما ركبه الله في المجانين من قوة خارقة؟ لقد رأيتهما بعيني رأسي يمشيان مطلقي السراح في الشارع المجاور.

فلما سمعت أدريانا منه ذلك التأكيد أسرعت تجري لتقبض عليه وتعيده إلى البيت قبل أن يفضحها في المدينة. وأخذت معها جمهرة من الناس والجيران ليساعدوها في تلك المهمة الشاقة. وأخذت شقيقتها معها أيضا، ولما وصل هذا

الجمع إلى بوابة دير مجاور، لمحوا انتيفولس ودروميو ماشيين. فانخدعوا فيهما مرة أخرى.

وكان انتيفولس السيراقوزي الأعزب لا يزال مضطرب العقل من المآزق الغريبة التي جلبها على رأسه شدة شبهه بأخيه، وقد لبس السلسلة الذهبية التي أخذها من الصائغ في عنقه. والصائغ يلومه لأنه سبق أن أنكر تسلمه اياها ورفض أن يدفع ثمنها ليطلق سراحه. وكان انتيفولس يرد عليه قائلا:

– إنك أعطيتني هذه السلسلة رغم أنفي وبمحض إرادتك هذا الصباح. ولما حاولت رفضها دفعتها في يدي دفعا ومشيت. ومنذ أعطيتني اياها لم أرك ولم تطالبني إلى هذه اللحظة !

وعندئذ كانت أدريانا قد وصلت إلى مكانه، وراحت تزعم أنه هو بعينه زوجها المجنون الذي قطع الحبال وهرب من الحراس. وهجم الرجال الذين جاءت بهم معها عليه، ليأخذوه بالعنف ويقيدوه عنوة ويجروه هو وعبده إلى غرفة الحبس في الدار.

وكاد يتم لهم مرادهم لولا أن انتيفولس ودروميو أيقنا أن هؤلاء القوم مجانين. والمجانين يرمون دائما العقلاء بالجنون. فلا فائدة من مناقشتهم وإنما الحكمة كل الحكمة في الهرب

ووجدا لحسن حظهما باب الدير وراء ظهرهما فدخلاه، واحتمى انتيفولس برئيسة الدير متوسلا إليها أن تحميهما من العدوان، كانت الرئيسة في حجرتها فلما سمعت الضجة نزلت بنفسها لتعرف جلية الأمر. وكانت سيدة مهيبة جليلة. ذات نظر صائب فيما يعرض عليها من الأمور. فرفضت أن تسلم الرجل الذي احتمى بدارها.

وعزمت رئيسة الدير أن تجلو غوامض ذلك اللغز. فراحت تدقق في سؤال الزوجة عما نسبته إلى زوجها من تهمة الجنون. وعن ظواهر هذا الجنون وظروفه:

- ما الذي تسبب في هذا التغير الذي طرأ على زوجك؟ هل هناك صدمة يمكن أن تفسر اختلال عقله كما تدعين؟ هل فقد ثروته أو غرقت تجارته في البحر؟ أم تراه نكب بوفاة صديق عزيز؟

وأكدت أدريانا أنه ما من شئ من ذلك القبيل حدث لزوجها. فقالت الرئيسة:

- ربما كان قد تعلق قلبه بامرأة أخرى. فساقه ذلك إلى هذه الحالة

وصادف هذا التعليل هوى عند أدريانا بفطرتها الغيور. فقالت للرئيسة أنها طالما ارتابت في غرامه بامرأة أخرى. وأن هذا هو السبب في كثرة غيابه عن الدار.

والحقيقة أن انتيفولس لم يكن يحب امرأة غير زوجته. ولكن نوبات غيرتها غير المعقولة هي التي كانت تدفعه لاطالة الغياب عن الدار. وقد فطنت الرئيسة إلى هذه الحقيقة. وأحبت أن تستدرجها لتعرف منها مدى تنغيصها لحياة زوجها بسبب غيرتها. فقالت لها:

- ولماذا لم تعاتبيه على خيانته أو على طول غيابه؟

- لم أقصر في عتابه.

- لعلك لم تكوني تعاتبينه بما فيه الكفاية؟

- بل لم يكن لنا موضوع حديث أخوض فيه معه إلا كثرة غيابه عن البيت. فحين ندخل الفراش لا أتركه ينام من طول الملام. وعلى المائدة لا أتركه يأكل من كثرة الكلام في هذا الموضوع. وكلما انفردنا معا لم أحدثه إلا في ذلك. بل وحتى حينما يكون هناك زوار لا أكف عن التلميح. وقصارى القول يا سيدتي

المقدسة أن كل كلامي معه في جميع الأوقات كان عن سفالة أقدامه على حب امرأة أخرى غيري !

فلما استخرجت الرئيسة منها هذا الاعتراف الكامل. هزت رأسها وقالت لها:

– الآن بطل العجب. ولا غرابة مطلقا أن يجن زوجك وأنت تسومينه هذه الحياة!

– هل أنا يا سيدتي المسئولة عن جنونه؟

– اعلمي أن سموم لسان المرأة الغيور أشد مفعولا من السم الذي في ناب كلب مسعور. ويبدو لي أن لحظات نومه كان يؤرقها صوت تأنيبك، فلا غرو أن يخف عقله، ويبدو لي أن اللحم الذي يأكله كان متبلا بمطاعتك وتقريعك. والأكل الذي يداخله القلق وثوران الدم يسبب سوء الهضم. وسوء الهضم يورث الحمى ويفسد اختلاط الجسم. ثم تعترفين أن ساعات صفائه كانت تتكدر بقوارص لومك. وأنك كنت تحولين بينه وبين النزهة وغشيان المجتمعات. وما الذي يؤدي إلى سوداوية المزاج وكآبة النفس أكثر من هذا اليأس؟ ونتيجة هذا كله أن غيرتك الجامحة هي التي نتج عنها جنون زوجك

وبرغم وجاهة حكم رئيسة الدير لم تقنع أدريانا بما قيل لها. وضربت عرض الحائط بكلام أختها لوسيانا التي أيدت رئيسة الدير في كل ما اتهمت به أدريانا

وبدلا من أن تخجل من نفسها، غضبت لأن رئيسة الدير انتزعت منها الاعتراف الكامل بسلوكها الشائن مع زوجها. وأصرت على المطالبة بهذا الزوج كي تقيده بالحبال وتجره إلى البيت.

ورفضت رئيسة الدير أن تسمح لأحد بدخول بيتها. ورفضت أيضا أن تسلم هذا الرجل التعس ليد مثل هذه الزوجة الحمقاء. وقررت أن تتولى بوسائلها

الهينة شفاء عقله من الاضطراب.

وبعد أن أعلنت هذا العزم انسحبت رئيسة الدير إلى الداخل وأمرت اتباعها بإغلاق البوابة لمنع أي إنسان من الدخول.

* * *

وفي خلال ذلك اليوم الحافل بالأحداث. الذي وقعت فيه كل تلك الأخطاء بسبب التشابه الكامل بين الشقيقين التوأمين. كان يوم المهلة الذي منحه الدوق لا يجيون قد انقضى تقريبا، لأن الشمس كانت قد قاربت الغروب وبغروب الشمس ينفذ فيه حكم الإعدام ما لم يتمكن من دفع الفدية المفروضة بنص القانون.

وكان مكان التنفيذ في ساحة تقع بالقرب من ذلك الدير. وإلى هناك أحضره الجنود في اللحظة التي انسحبت فيها الرئيسة داخل الأسوار.

ولما كان الدوق معنيا بهذا الشيخ يريد أن يتلمس له أسباب العفو والحياة، فقد ذهب بنفسه إلى ساحة الإعدام. حتى إذا تطوع أحد بدفع المبلغ حتى آخر لحظة، كان موجودا ليوقف التنفيذ.

ولما لمحت أدريانا موكب الدوق، استوقفته وتوسلت إلى الدوق أن ينصفها في هذا المأزق. وشكت إليه من رئيسة الدير وكيف ترفض أن تسلمها زوجها المجنون لتمرضه بنفسها، وبينما هي تتكلم أقبل زوجها الحقيقي وخادمه دروميو بعد أن تمكنا حقيقة من الإفلات. وألقيا بنفسيهما عند أقدام الدوق يطلبان منه العدل والإنصاف. وأخذ الزوج يشكو زوجته لأنها اتهمته ظلما بالجنون. ثم روى للدوق كيف توصل إلى تمزيق قيوده وهرب من رقابة حراسه؟

وذهلت أدريانا لمرأى زوجها. وهي التي كانت تحسبه محتميا بأسوار الدير

التي رأته يلوذ بها منذ قليل.

وأما ايجيون العجوز فإنه لما رأى ابنه المتزوج. حسبه الابن الآخر الذي فارقه منذ نيف وسبع سنوات ليبحث عن أمه وأخيه. وأيقن أن ابنه لن يتوانى في دفع المبلغ المطلوب لفديته، وعلى هذا الأساس خاطب انتيفولس بلهجة الأب المشتاق الحنون، وقد تضاعف سروره بالعثور على ابنه المفقود، ولنجاته من عقوبة الموت.

وكم كانت دهشة ايجيون المسكين عندما انكر ابنه معرفته به كل الإنكار. وهذا طبيعي لأنه لم يكن رأي والده منذ فرقتهما العاصفة البحرية وهو في أوائل عهد الطفولة.

* * *

ووقف الشيخ ايجيون مذهولا. يحاول أن يجد أي تعليل يخطر ببال لإنكار ابنه له. وحاول أن يذكره بنفسه أكثر من مرة وبأكثر من وسيلة وبأكثر من علامة أو تذكار. وانتيفولس بطبيعة الحال ينكر حدوث شئ من ذلك، لأنه لم يكن الشخص الذي حدثت له هذه الأشياء فعلا.

وظن الوالد الشيخ أن الهموم والمشاق التي مرت به في هذه السنوات السبع قد غيرت من سحنته تغييرا كليا حتى أن ابنه لم يستطع أن يعرفه. ثم خامره الشك أن ابنه ربما شعر بالخجل من الاعتراف بأبيه وهو في هذه الحالة الزرية من الشقاء.

وبينما الرجل في هذه الدوامة من الحيرة، إذا بباب الدير يفتح، لأن رئيسة الدير لمحت موكب الدوق. ولمحت أدريانا تتعلق بأذيال الدوق وترفع إليه شكواها. فخرجت الرئيسة أيضا للمثول أمام الدوق ومعها انتيفولس الآخر ودروميو الآخر.

ووجدت أدريانا نفسها مذهولة أمام زوجين وأمام عبدين !

وبطبيعة الحال أخذت كل الأخطاء والألغاز التي حيرتهم جميعا سحابة ذلك النهار تتضح وتتبدد واحدة بعد أخرى، ولما رأى الدوق نفسه أمام نسختين متطابقتين من انتيفولس. ونسختين متطابقتين من دروميو، حدس على الفور حدسا صادقا السر الكامن وراء هذا كله.

فقد تذكر الدوق القصة التي رواها له ايجيون ذلك الصباح. وأدرك أن هذين الشابين لابد أن يكونا ولدي ايجيون التوأمين. وأن العبدين هما العبدان التوأمان.

* * *

وكانت هذه الحقيقة في حد ذاتها موضوعا كافيا لابتهاج عظيم يسعد الوالد والولدين والعبدين. ولكن القدر كان يدخر مزيدا من المفاجآت السارة يتوج قصة ايجيون. تلك القصة التي بدأها في الصباح محطم النفس باكيا يائسا، كتب لها أن تعاد على مسامع الناس قبل مغيب الشمس في إطار آخر ولهجة أخرى. وأن يكون لها ختام لا يتوقعه ذلك الشيخ الذي حكم عليه بالموت في الضحى وجئ به عند الأصيل لتنفيذ الإعدام.

إن هذه السيدة الجليلة رئيسة الدير ما إن سمعت القصة ورأت الفرح يغمر الجميع حتى أعلنت عن حقيقتها. فإذا هي بعينها زوجة ايجيون وأم التوأمين انتيفولس، التي فرقتها العاصفة عنهما وعن زوجها منذ أكثر من عشرين سنة.

وروت رئيسة الدير ما حدث لها. فإن الصيادين عندما أخذوا منها ابنها والعبد الصغير لبيعهما في أسواق الرقيق، لأن ابنها كان جميلا جمالا يستهوي الأمراء، لم تجد هذه السيدة الفاضلة سبيلا يجدر بها في الغربة والفاقة والوحدة واليأس إلا أن تلجأ إلى حماية الدير فتلتمس في الرهبنة أمانا لعفتها، وعزاء

لأحزانها، ولما عرفن فيها الراهبات العقل والحكمة وكثرة العبادة والتقوى والأخلاق الفاضلة تم اختيارها رئيسة لهذا الدير.

وختمت الرئيسة قصتها بأن شكرت أنعم الله:

– إن اسداء المعروف لا يضيع أجره أبدا، فإنني إذ حميت غريبا مسكينا مطاردا لاذ بحمايتي مستجيرا، كنت أحمي وأنا لا أدري ابن أحشائي. ومن هذا الطريق أيضا وجدت زوجي وولدي.

* * *

انشغل الناس برهة طويلة بالتهنئة التي تبادلتها أعضاء هذه الأسرة التي التقت بعد يأس من اللقاء. حتى أنهم نسوا الحكم المسلط على عنق ايجيون. وأن الموت يحلق فوقه ما لم يدفع الفدية ولكن بعد أن هدأوا قليلا، ذكرهم الدوق في رفق بذلك الواقع الذي طمسته فرحة الموقف النادر، فأعلن انتيفولس الافسسي على الفور استعداده لدفع فدية أبيه للعفو عنه

وعندئذ ابتسم الدوق وقال إن مثل هذه المناسبة النادرة تستحق منه أن يجعلها فوق الاعتبارات العادية. ولهذا فهو يعفو عن ايجيون ويعفيه من دفع الفدية.

وبدعوة من رئيسة الدير دخل الدوق مع أسرتها التي هداها الله إليها على غير انتظار إلى داخل الدير، ليسمع من هذه الأسرة السعيدة حديث أعضائها البهيج وهم يروون تفاصيل ما مر بهم من معاكسات القدر. تلك المعاكسات التي فقدت طعمها المرير إذ انتهت إلى هذا الختام السعيد

ولا ينبغي أن ننسى في هذا الموقف ابتهاج التوأمين دروميو فإن تواضع قدرهما لا يعني مطلقا تواضع فرحهما. فإذا بهما يتعانقان. ويهنئ كل منهما الآخر

بالسلامة. ويعرب عن سروره باستطاعته أن يطمئن على نفسه بالنظر إلى شقيقه الذي كأنه مرآته الحية !

* * *

واستطاعت أدريانا أن تستفيد من نصائح حماتها. فأقلعت عن إساءة الظن بزوجها وتنغيص حياته بالغيرة الجامحة على غير أساس، وأما انتيفولس السيراقوزي فتزوج بالحسناء لوسيانا، شقيقة زوجة أخيه التي مال إليها قلبه من أول نظرة.

وعاش ايجيون الطيب سعيدا مع زوجته وولديه في مدينة افسس عمرا مديدا، ولم تنقطع مهازل الأخطاء الناجمة عن تشابه الأخوين والعبدين طيلة الحياة. ولكنها كانت أخطاء تفتضح بسرعة ولا تعقب مشاكل، بل الضحك والفكاهة. وتفيد في تذكرة الأخوين بالمغامرات التي مرت بهما في ذلك اليوم الفريد الحاسم في عمرهما.

روميو وجولييت

كان مدينة فيرونا من مدن إيطاليا القديمة كانت تعيش عشيرتان قويتان متناظرتان في الجاه والثراء، متنافستان على المكانة والرياسة. وهما عشيرتا كابوليت ومونتاجيو.

وكانت بين العشيرتين منازعات قديمة عمل الزمن على ازديادها وتشعبها بإضافات من الاحقاد وصغائر الحياة اليومية. إلى أن بلغ من تضخم الخلاف بين العشيرتين أن أصبح عداوة وحقدا سافرا شمل أقصى الأقارب وأقل الأتباع. حتى أن أصغر بعد من عبيد آل كابوليت كان لا يجسر على مصافحة صديق له من عبيد آل مونتاجيو. ولم يكن الواحد من أبناء عشيرة مونتاجيو ليقبل ملاقاة أحد أفراد آل كابوليت ولو في مجتمع أو مكان عام. ولا يمكن أن يسلم عليه ولو سلاما عابرا بهدوء وكياسة على سبيل المجاملة. فما من مرة التقى واحد من هؤلاء بواحد من أولئك إلا وأفلتت الأعصاب من زمامها، وتناثرت الألفاظ القاسية. وكثيرا ما أريقت الدماء بسبب شئ عادي كهذا اللقاء الطبيعي بين قوم تضمهم بلدة واحدة

بل ما كان أكثر المصادمات الدموية التي عكرت أمن شوارع فيرونا إذا التقت أية جماعة من تلك العشيرة بنفر من العشيرة الأخرى، وفي هذه الظروف كانت كل عشيرة من العشيرتين تجري على عادتها، في إظهار الجاه وممارسة شئون الحياة، تحت حراسة وحذر، حتى لا يقال أنهم خائفون من أعدائهم يتوارون خشية من عدوانهم.

وحدث أن أقام الشيخ كابوليت عميد عشيرته مأدبة كبرى دعا إليها عددا

كبيرا من أجمل السيدات ووجهاء القوم في المدينة. فاحتشد في هذه الوليمة جميع الجميلات اللواتي تشرئب إليهن الأعناق. وكانت الوليمة على الطراز القديم الذي لا يعرف نظام بطاقات الدعوة. وإنما الباب مفتوح يدخله كل إنسان على الرحب والسعة ما دام ليس من آل مونتاجيو.

وإلى هذه الوليمة في دار آل كابوليت توجهت الحسناء روزالين حبيبة روميو. وروميو هذا شاب وسيم. وهو ابن الشيخ مونتاجيو عميد تلك العشيرة التي بينها وبين صاحب الوليمة كابوليت ثارات دموية

ومع أنه كان من الخطر الجسيم على فرد من عشيرة مونتاجيو أن يراه أحد في مثل ذلك الجمع وفي قلب دار آل كابوليت. إلا أن بنفوليو صديق روميو وزميله في حياة المغامرات وطيش الشباب أقنع ذلك النبيل الشاب أن يذهب إلى الوليمة متخفيا بقناع يضعه على نصف وجهه العلوي. كما كانت العادة احيانا في المراقص والمرافع والسهرات. حتى يتسنى له مشاهدة روزالين والرقص معها.

وأضاف بنفوليو إلى ذلك تعريضا ماجنا، قائلا:

– وستستطيع في هذا اللقاء بين مئات من المدعوين أن تستفيد شيئا تعجز عنه في مقابلاتكما الانفرادية !

– كيف؟ وماذا تعني؟

– أعني أنك ستستطيع عقد المقارنة بصورة واضحة جدا بين صاحبتك روزالين التي تتغنى كل وقت بجمالها، وبين الصفوة الممتازة من حسناوات فيرونا الموجودات معها تحت سقف واحد، وفي ضوء واحد. وعندئذ سترى صدق رأيي في صاحبتك. ستكتشف أن أوزتك البيضاء الرشيقة ليست في الواقع إلا جاموسة !

ولم تكن لروميو ثقة كبيرة في أقوال بنفوليو لما يعلمه عنه من حب الهذر والتنكيت، ولكنه تجرأ وذهب إلى الوليمة مشوقا إلى مقابلة روزالين التي كان روميو يحبها بشغف عظيم. حتى أنه كان لا يغمض له جفن في ليال كثيرة دون التفكير في حبيبته تلك. وكان في المدة الأخيرة يتجنب المجتمعات وسهرات الخلان الصاخبة ليختلي بنفسه فيفكر في روزالين، تلك الحسناء القاسية القلب التي لم تكن تسلس له القياد. ولهذا كان بنفوليو يتهكم عليه حين أشار إلى مقابلاتهما الانفرادية لأنها لم تكن في الغالب إلا خلوات روميو مع طيفها يناجيه وينظم فيه الأشعار.

وكان ينفوليو يرمي من دفع صاحبه إلى حضور هذه المأدبة أن يتحين الوسائل لشفاء صديقه من هذا الحب، حين يرى تحت أنظاره هذه النماذج الرائعة من الحسان في مكان واحد.

إلى هذه المأدبة إذن في دار آل كابوليت توجه الشاب روميو مدفوعا بغرامه الطائش، وهو ابن العدو الأكبر لرب البيت. ذهب مع بنفوليو وصديق آخر اسمه مركوتيو. ووضع الثلاثة أقنعة على أعينهم.

وقابل كابوليت الكبير الشبان الثلاثة المجهولين فرحب بهم أجمل ترحيب كما هي أصول الضيافة في ذلك الزمن. وقال لهم إن السيدات اللواتي لا تتألم أصابع أقدامهن من الكالو سيراقصتهم. فإن هذا الشيخ كان في تلك الليلة منشرح الصدر مسرورا بنجاح مأدبته. وعلق على ارتدائهم الأقنعة بأنه كان وهو صغير السن يرتدي القناع أحيانا، ليتمكن من الهمس بقصة خبيثة في أذن سيدة حسناء من غير أن تفضحه عيناه.

وانصرف الشبان الثلاثة إلى الرقص. وإذا روميو وقد ذهل فجأة لجمال خارق طالعه من وجه حسناء كانت ترقص هناك. حسناء كانت وضاءتها على حد

تعبيره تلقن المشاعل المتوهجة دروسا في حسن الإشراق. إن هذا الجمال يبدو في الليل مثل الجوهرة الثمينة في كف زنجية. جمال أثمن بكثير من أن تمسه الأيدي أو يقترب منه أحد. جمال أسمى بكثير من عالم الأرض. إنها مثل يمامة بيضاء كالثلج تطير في سرب واحد مع الغربان. فهكذا بدت الحسناء لعينيه وهي وسط سرب من أجمل حسان فيرونا !

كان روميو يلقي بهذا الوصف بصوت متحمس على صاحبيه حين لمحه تيبالت ابن أخي كابوليت الكبير. الذي عرف من الصوت أن المتكلم هو روميو بن مونتاجيو الكبير.

وكان تيبالت هذا شابا ناري المزاج، لم يطق أن يكون أحد أعضاء بيت مونتاجيو موجودا في حفل آل كابوليت، متخفيا على حد قوله بقناع ليتمكن من السخرية بمكارم بيتهم ومحارمه، وظل تيبالت يرغي ويزيد وقد بلغت ثورته اقصاها وهم أن يبطش بالشاب روميو فيقتله. لولا أن عمه الشيخ كابوليت عميد الأسرة ورب الدار لم يقبل منه القيام بذلك العدوان في هذا الوقت. أولا احتراما لقدسية الضيافة وإكراما لمدعويه. وثانيا لأن روميو كان مهذبا في مسلكه. وكل ألسنة فيرونا تتحدث عن دماثة أخلاقه ولين جانبه

وهكذا أجبر تيبالت على كبت غضبه رغم أنفه. ولكنه أقسم أن يدفع هذا المونتاجي الوضيع ثمن جسارته ووقاحته في فرصة أخرى غاليا.

ولما انتهى الرقص أخذ روميو يراقب الموضع الذي كانت فاتنته المجهولة تقف فيه. وانتهز فرصة فذهب تحت ستار القناع الذي يبيح للابسه شيئا من الحرية. وتجاسر على تناول يدها بأرق صورة ممكنة وهو يقول لها:

– إنك شئ مقدس. ويدك مقدسة. فلئن دنستها بلمسي فكما يتبرك الحاج

في خشوع بتقبيل الأشياء المقدسة.

ثم طبع على تلك اليد قبلة التبرك !

فقالت له الحسناء:

– أيها الحاج الصالح. إن تعهدك يتجاوز الحدود. أجل إن للقديسين أياد. وللحجاج أن يلمسوا تلك الأيدي. أما تقبيلها فلا !

فقال روميو بخبث:

– والقديسون. أليست لهم شفاه؟ وكذلك الحجاج؟

فأجابته الحسناء قائلة:

– أجل لهم شفاه. ولكن ينبغي ألا يستعملوها إلا في التسبيح.

– إذن يا قديستي العزيزة. أرجو أن تصغي لتسبيحي وترضي عنه. وإلا تملكني اليأس !

وفي مثل هذه الكنايات والمناورات التي يجيدها الشبان الغزلون استغرق الاثنان بعض الوقت إلى أن نوديت الحسناء كي تجيب دعوة أمها. وكانت التي نادتها جارية صغيرة، وأسرع روميو ينتهز الفرصة بعد ذهاب حسنائه المجهولة ويسأل الجارية الصغيرة من هي أمها. ليعرف بنت من تكون. وبذلك عرف روميو بن مونتاجيو أن فاتنته هي جولييت الصغيرة، ابنة كابوليت ووارثته. أي أنه سمح لقلبه أن يتعلق بحب عدوته الوراثية.

وعز عليه ذلك. وأزعجه. ولكن لم تكن له في الأمر حيلة وهو لا يستطيع أن يحول قلبه عنها بعد أن اخترقه سهم حبها.

* * *

أما الحسناء جولييت فلم تكن صدمتها أقل من صدمة روميو عندما اكتشفت أن ذلك الشاب العذب الحديث الذي كانت تتحدث إليه هو روميو ابن عميد آل مونتاجيو وعدوها اللدود بحكم الوراثة، لأنه نظيرها في وراثة عمادة بينه وأحقاده القديمة أيضا على بيتها.

وكانت المسكينة قد أصيبت نحو روميو من النظرة الأولى بمثل العاطفة الجارفة التي أصيب بها روميو نحوها. بل أحست أنه ولد في قلبها ذلك الحب ولادة اعجازية. فإنه ليس أقل من معجزة تكفي لإكراه بنت كابوليت على أن تحب عدوها الأكبر. وأن يتخير الحب لبناء عشه حومة القتال التي تتأجج فيها المنازعات والأحن.

ولما بلغ الليل منتصفه غادر روميو وصاحباه الحفل. ولكن صاحبيه لم يلبثا أن اكتشفا اختفاءه من بينهما فجأة !

إن الشاب العاشق لم يطق أن يظل بعيدا عن البيت الذي ترك فيه فؤاده. فقفز سور بستان كائن خلف بيت جولييت، ولم يطل مكثه هناك، متفكرا في حبه الجديد القوي، وإذا بجولييت تطل من فوقه وقد وقفت في نافذة مخدعها. فكأنما جمالها قد أشرق عليه كما تطلع الشمس من الأفق الشرقي. وإذا القمر الذي كان يضئ بنوره الباهت أشجار البستان يبدو فجأة هزيلا حائل اللون محموما لأن هذا الضياء الساطع من وجه محبوبته طمس نوره كما تطمسه الشمس في رائعة النهار.

ورآها تضع كفها على وجنتها. فتمنى من أعماق قلبه لو كان قفازا في هذه اليد كي يلمس صفحة خدها !

وكانت جولييت طيلة ذلك الوقت تظن نفسها وحدها، فأطلقت زفرة عميقة وقالت بصوت مسموع:

– واها لي !

فاشتاق روميو أن يسمعها تتكلم. وهزه نغم صوتها فقال يناجيها من غير أن تسمعه:

– أعد القول ورجعه ترجيعا أيها الملك النوراني. إنك تبدو لي هكذا وأنت ضالع فوق رأسي كأنك رسول ذو جناحين آت من السماء. والبشر جميعا يتطلعون بأنظارهم إليك !

ولم يخطر ببال جولييت أن أحدا يمكن أن يسمعها. ولما كان حبها الجديد الذي ولد في قلبها البكر تلك الليلة تضيق به حنايا صدرها، فقد راحت تنادي حبيبها باسمه وهي تظنه بعيدا عنها:

– آه يا روميو. روميو ! أين أنت الآن يا روميو؟ أنكر أباك، وتنكر لاسم بيتك من أجلي. وإلا فيكفيني منك أن تحبني. وتقسم لي على ذلك. كي لا أبقى بعد ذلك من آل كابوليت

واستخف الطرب روميو وهو يسمع منها هذا التصريح القاطع. وكان يود لو تكلم وأجابها. لولا أنه كان يريد أن يعرف المزيد

واستمرت الحسناء في حديثها العاطفي الملتهب مع نفسها. فراحت تلوم روميو على أنه روميو وعلى أنه من آل مونتاجيو، وتتمنى لو كان له اسم آخر أو لو استطاع أن يتخلص من هذا الاسم البغيض. وأن يستعيض بذلك الاسم الذي ليس جزءا من شخصه، فيأخذ شخصها كله بدلا من ذلك الاسم الذي لا يخسر بفقدانه شيئا من كمال حياته ومقومات كيانه.

وعندما بلغت جولييت من نجواها الحارة هذا المبلغ، وأعلنت أنها تهبه نفسها من غير تردد أو حنق. لم يستطع أن يمنع نفسه من الاستجابة لها ومكاشفتها

بوجوده تحت نافذتها.

لم يصح ولم يفاجئها. بل التقط الحوار من فمها كأنها كانت تخاطبه حال حضوره خطاب من تنتظر منه الجواب، لا خطاب النجوى والخيال في حالة الخلوة. فطلب منها ألا تناديه بأي اسم إلا اسم الحب والحبيب. أو بأي اسم آخر مما تشاء وتهوى. فإنه لم يعد منذ الآن يدعى باسم روميو ما دام هذا الاسم يكدرها !

وفزعت جولييت لسماعها صوت رجل في الحديقة. ولم تعرف لأول وهلة من يكون هذا الرجل الذي اجترأ مستعينا بالليل والظلام فوصل إلى خبيئة قلبها التي تضمن بها على كل مخلوق، ولكن عندما تكلم مرة أخرى عرفته من صوته. أجل إنها لم تكن قد سمعت منه في تلك الليلة مائة كلمة. ولم تشرب أذناها من نفحات صوته إلا قطرات لا تروي الظمأ. بيد أن الحب يعير العاشقين سمعا مرهفا يعرفون به أصوات من يعشقون من بين أصوات الناس أجمعين.

عرفته من صوته. إنه روميو ! فكان أول ما خطر لها هو ذلك الخطر الماحق الذي عرض نفسه له بوجوده هناك، كأنما وضع رأسه بين فكي الأسد. فلو أن أي واحد من ذويها أو أبناء عشيرتها وجده داخل أسوار البستان، فلن يقتل لانتهاكه حرمة المساكن فحسب، بل يقتل قتلا مضاعفا لسبب مضاعف. فإنه أيضا وقبل كل شئ مونتاجي، بل هو مونتاجيو بالذات، لأنه ابن عميد البيت ووارث الرياسة والثأر.

وكان جواب روميو على ذلك الفزع الصائب أن قال:

– وا أسفاه ! إن في عينيك من الخطر الماحق أضعاف ما في عشرين من سيوف آلك المتعطشين إلى دمي ! ليس عليك يا سيدتي إلا أن ترمقيني بعين

الرضى والقرب والحب، كي يحميني هذا من عداوتهم وبطشهم ويمنحني من القدرة ما أكون به كفئا لهم. ولخير عندي ألف مرة أن تختتم حياتي بسيف حقدهم، من أن تطول حياتي الكريهة ألف عام وأنا محروم من حبك ! هذه هي حياتي. في عينيك. ومن شفتيك !

– ولكن كيف جئت إلى هذا المكان؟ من الذي أرشدك إليه؟

– هداني إليه الحب. حبي كان يهدي قدمي. إني لست ملاحا. ولكن لو أنك كنت بعيدة عني بعد أقصى الشواطئ التي تغسل رمالها مياه البحر، لجازفت بعبور البحار لا أبالي شيئا كي أصل إليك !

فصبغت حمرة الخجل وجه جولييت. ولكن روميو لم ير ذلك بسبب الظلام. وأخذت تفكر كيف أنه عرف حقيقة شعورها نحوه. وهي التي كانت تنوي ألا تدعه يعرف شيئا من ذلك

تمنت لو استطاعت أن تسترد كلماتها. ولكن ذلك كان مستحيلا. وتمنت لو أنها التزمت حدود العرف. وأبقت ذلك الحبيب بمنأى عنها، كما هي عادة النساء في الأعراض عمن يحببن والتظاهر بالجهامة والقسوة على جميع من يتعلقون بهن، كي يعذبوهم أطول مدة ممكنة بالصد والزجر مع أن في قلوبهن الهوى الدفين

تمنت لو فعلت كما تفعل سائر النساء. تتصنع عدم المبالاة في الوقت الذي تشعر فيه بنيران الوجد. حتى لا يقع في روع المحبين أن حبيباتهم قريبات المنال، رخيصات. فالذي يكسب هونا، يهون على النفس أن تفقده بعد قليل.

كل هذا خطر برأس جولييت وهي في تلك اللحظة الحاسمة. ولكنها وجدت نفسها مكتوفة اليدين. فلا محل في موقفها هذا للإنكار أو التسويف أو التذرع بالمناورات المألوفة بين النساء والرجال. فقد سمع روميو من لسانها اعترافها بحبه

من غير قيد ولا شرط وتمنيها لقربه، وهي لا تحلم أنه على قيد السمع منها.

وفي الصراحة التامة الصادقة التي يتطلبها موقفها أكدت له صدق ما سمعه خلسة. بل زادت على ذلك أنها عدلت عن بغض اسمه بل وعدلت عن بغض اسم عشيرته الكريه إلى عشيرتها. وأبت أن تستجيب له في مناداته باسم الحب أو الحبيب بدلا من اسمه واسم أبيه، فنادته باسم " مونتاجيو الجميل " قائلة:

– إن الحب قادر أن يضفي الحلاوة على أشد الأسماء مرارة !

ورجته بعد ذلك ألا يعزو استجابتها السريعة إلى الطيش أو النزق أو خفة العقل أو سوء الخلق. بل يجب أن يعتبر المسئول عن خطئها إن كان الاعتراف بالحب خطأ، هو الليل وسكونه وسحره. فإن الليل استطاع بسحره الغامض أن يكتشف أعمق أفكارها وأسرارها، ثم قالت:

– وإذا ظننت بي الطيش، ورأيت سلوكي نحوك لا يتسم بالحذر الذي جرت به عادة بنات جنسي في علاقاتهن بالرجال. فاعلم أنني سأثبت لك على مدى العمر أنني أصدق حبا وأثبت عهدا من كثيرات من المتحفظات. وأن عفتي وحيائي ليست تمويها كحياتهن !

وأخذ روميو يستشهد السماء والأرض على أنه لم يخطر بباله شئ من ذلك. فلا يمكن أن يتصور ظل شبهة يلحق بفتاة شريفة جليلة القدر مثلها. وإذا بها تعترضه وتتوسل إليه ألا يقسم بشئ. فمع أنها تشعر بالإبتهاج وهي تراه، إلا أنها غير راضية النفس عن هذه المواثيق الليلية. فهي تراها طائشة، رعناء، لم تصدر عن روية، ولم توزن بموازين العقل.

ولم يفت هذا من عضد روميو. بل راح يلح عليها أن تعاهده في التو واللحظة على الحب الأبدي والوفاء. فقالت له:

– إنك تعلم أنني نذرت نفسي لحبك قبل أن تطلبه مني. وقد سمعت ذلك بأذنك وأنا لا أدري أنك قريب مني. ومع ذلك فإني أسحب بكل سرور ذلك العهد

– ويحي ! ناشدتك ألا تفعلي !

– رويدك. اسحبه لاستشعر اللذة النادرة بتكرار العهد من جديد كأنني لم أفعل ذلك من قبل. فإن حبي لك يا مونتاجيو الجميل حب لا نهاية له كماء البحر. وعميق عمق البحر !

وفي هذه اللحظة تنبهت مربية جولييت التي تنام معها في جناحها ونادتها وهي راقدة كي تعود إلى الفراش. لأن الصباح قارب الطلوع، واستمهلتها جولييت لحظة لتلتفت إلى روميو فتلقي إليه بكلمات قليلة أخرى على عجل، ولكن فيها كل شئ.

قالت له أنه إذا كان حبه لها شريفا حقا. وهدفه الزواج. فسترسل إليه في الغد رسولا ليحدد معه زمان هذا الزواج ومكانه، حيث تضع جميع كنوزها تحت قدميه. وتتبعه سيدا لها إلى أقصى الأرض !

وتكرر نداء المربية أكثر من مرة وجولييت تلقي إليه بهذا القول العظيم. فظلت جولييت تجيب مربيتها وتدخل إليها لحظة، لتعود في اللحظة التالية، ثم تدخل وتعود ثلاث مرات. لأنها كانت واجفة القلب فزعا من فراق روميو لها، كما يطير قلب طفلة شعاعا على عصفورها الأثير الذي قد تتركه ليقفز طليق السراح لحظة خارج يدها. ولكن لتجذبه في اللحظة التالية بخيط الحرير الذي توثق به ساقه !

ولم يكن روميو أفضل حالا منها بهذا الفراق، لأنه ما من موسيقى اندى على قلوب المحبين من أصوات من يحبونهم وقد سجى الليل وأرهف الكون سمعه

للمواثيق والعهود.

وأخيرا افترقا. وكل منهما يتمنى لصاحبه في تنهد لافح الأنفاس نوما هنيئا وراحة وأمنا.

* * *

كانت أولى بواكير النهار تشق قرن السماء حين افترق الحبيبان. وانطلق روميو خفيفا يكاد يطير في الهواء طيرانا، وقد امتلأ رأسه بخيال حبيبته، وبذلك اللقاء الميمون الذي أحس معه أنه ولد في حياة جديدة. فهل كان من الممكن بعد هذا أن يخطر له النوم على بال؟

وبدلا من أن يتجه إلى داره ليأوي إلى فراشه، وجهه حبه إلى دير قريب، للرهبان الفرنسسكان. وهناك التقى بالأب لورنس، وكان الراهب الصالح قد استيقظ فعلا في تلك الساعة المبكرة، ليتلو صلاته. ولكنه دهش عندما رأى روميو في تلك الساعة خارج بيته. وحدس على الفور أنه لم يأو إلى فراشه في تلك الليلة. وإن شيئا من هموم الشباب قد أزال النوم عن عينيه.

وكان الأب لورنس صائبا في نسبة سهر روميو حتى الصباح إلى الحب. ولكنه أخطأ حين ظن أن الحب الذي أرقه هو حب تلك المتدللة النفور روزالين. فلما كاشفه روميو بغرامه الجديد بجولييت، وطلب منه العون كي يعقد زواجهما في ذلك اليوم، رفع القسيس عينيه ويديه في دهشة بالغة من ذلك التغير المفاجئ في عواطف روميو. فقد كان يعرفه منذ زمن طويل مدنفا في حب روزالين. وكان كثيرا ما يلجأ إليه شاكيا من صدودها. فقال:

– حقا يا عزيزي روميو إن حب الشباب ليس كائنا في قلوبهم، بل في أعينهم !

فرد عليه روميو أن قداسته كثيرا ما لامه على التعلق بروزالين التي كانت لا

تحبه ولا يمكن أن تبادله عواطفه. في حين أن جولييت تحبه كما يحبها

وفكر الأب لورنس قليلا. ثم وجد لمنطق روميو وجاهته. كما خطر له أيضا أن مصاهرة تنتج عن زواج جولييت الصغيرة من الشاب روميو ربما كانت المناسبة السعيدة التي تصلح ذات البين بعد طول فساد وإراقة دماء بين العشيرتين الكبيرتين كابوليت ومونتاجيو. فإن الراهب الصالح كان يتألم ألما شديدا لاستمرار تلك البغضاء. فهو صديق للعشيرتين وكثيرا ما بذل مسعاه لفض النزاع وعقد الصلح من غير جدوى

وهكذا استجاب الأب لورنس لرجاء روميو، مدفوعا بأسباب سياسية واجتماعية، وبالعطف على روميو الذي كان يحبه ولا يرفض له طلبا. ووعده أن يعقد زواجهما متى أرادا.

* * *

تم لروميو السرور بحصوله على هذا النصر لدى الأب لورنس. ولما جاءه رسول جولييت كوعدها، أخبره بما وفق إليه، وأوصاه أن يطلب اليها المبادرة بالحضور في ساعة مبكرة إلى صومعة الأب لورنس حيث يعقد زواجهما سرا هناك.

ولم تضيع الحسناء جولييت وقتا. بل سرعان ما تسللت بحجة زيارة الدير للاعتراف والصلاة. وداخل الصومعة أسرع الراهب الصالح فشبك يديهما وأخذ يدعو السماء أن تبارك هذا العقد وهذا العمل. وأن تجعل ذلك الارتباط بين هذا المونتاجي الشاب وبين سليلة آل كابوليت سببا لدفن الأحقاد القديمة التي فرقت العشيرتين طويلا وأنهكت قواهما في المنازعات والمعارك.

وبعد أن انتهت حفلة الزواج السري، أسرعت جولييت عائدة إلى بيت

ذويها. حيث لبثت تنتظر بفارغ الصبر حلول الليل. فإنه في ذلك الوقت وعدها روميو أن يحضر للقائها في البستان حيث تم لقاؤهما في الليلة السابقة.. وبدا لها وقت الانتظار خلال ذلك النهار طويلا ممل مضنيا كما يبدو الليل لطفلة اشترت ثيابا جديدة زاهية ولا تستطيع أن ترتديها إلا في الغد، لأن الغد هو يوم العيد.

وقرب الظهر من ذلك النهار نفسه كان صديقا روميو، وهما بنفوليو ومركوتيو يسيران في شوارع فيرونا. وإذا بهما يلتقيان بحفنة من آل كابوليت وعلى رأسهم تيبالت الحقود. وهو بعينه ذلك الشاب الذي كان يريد أن يبطش بروميو في مأدبة الشيخ كابوليت والد جولييت

ولما رأى تيبالت مركوتيو أمامه، اتهمه في جلافة وفظاظة بالتواطؤ مع روميو بن مونتاجيو عدوهم. وكان مركوتيو شابا ناري الطبع مثل تيبالت، فرد على تلك الاتهامات في لهجة عنيفة. ولم تفلح وسائل بنفوليو في تهدئة غضبهما المتأجج. وبدا واضحا أنه لا مناص من نشوب مبارزة، وإذا بروميو نفسه في هذه اللحظة مقبلا. فتحول تيبالت الثائر من مركوتيو إلى روميو، وقذف في وجهه بتلك السبة المهينة:

– إنك لوغد سافل !

وكان روميو المسكين يريد أن يتجنب مبارزة تيبالت أكثر من أي إنسان في الدنيا. فهذا الشخص قريب جولييت. بل هو ابن عمها. وكانت جولييت تحبه كثيرا. كما أن روميو كان عازفا بنفسه عن مشاحنات الأسرتين، لا يشغل نفسه بالسياسة الفارغة لما في طبعه من دماثة وحب للأشياء الجميلة وحياة الدعة، وفضلا عن هذا كان اسم كابوليت الذي يحمله تيبالت أسما له عند روميو الآن قداسة. فهو اسم زوجته العزيزة. بل أنه الآن أشبه بتعويذة تهدئ ثائرة النفس بدلا من أن تثيرها للقتال.

ولهذا حاول أن يهدئ من تيبالت ويتفاهم معه بالحسنى وحياه في رقة باسم سليل كابوليت الفاضل. وكأنه بذلك وهو المونتاجي العريق يجد لذة خفية في نطق ذلك الاسم

ولكن تيبالت الذي كان يكره جميع آل مونتاجيو كما يكره الجحيم، أبى أن يصغي لصوت العقل، وامتشق سيفه. ولكن مركوتيو كان مذهولا لما يراه من مهادنة روميو لتيبالت ورغبته في مسالمته وهو لا يعرف السر. فاعتبر ذلك نوعا من الطراوة والخنوع الذليل. وتدخل يستثير تيبالت بأفحش الألفاظ أن يستمر في مبارزته معه. فهجم عليه تيبالت وانتهى الأمر سريعا بسقوط مركوتيو قتيلا، بينما روميو وبنفوليو يحاولان عبثا التفريق بين المتبارزين.

ولما وجد روميو أن مركوتيو خر صريعا ومات لساعته، لم يستطع كبت غضبه، ورد إلى تيبالت إهانته التي وجهها إليه حين نعته بالسافل والوغد. فكان ذلك إيذانا باشتباك القتال بينهما. وانتهى القتال بأن قضى روميو على تيبالت ابن عم عروسه انتقاما لصديقه.

حدث هذا كله على قارعة الطريق في سوق فيرونا وفي وقت الظهر. فسرعان ما انتشرت الأنباء واحتشد جمع كبير من المواطنين ليروا القتلى من العشيرتين. ومن بين الذين حضروا الشيخ كابوليت والشيخ مونتاجيو والسيدتان زوجتاهما. وبعد قليل حضر أمير فيرونا بنفسه. وكان هذا الأمير من أقارب مركوتيو الذي قتله تيبالت.

وكان الأمير طالما تضجر من اضطراب حبل الأمن في بلدته بسبب تلك المشاحنات المزمنة بين آل مونتاجيو وآل كابوليت. فجاء مصمما على أن ينفذ القانون بكل حزم وصرامة ضد من يتضح له عبثهم بالأمن والنظام أيا كانت شخصيتهم.

وطلب الأمير من بنفوليو الذي كان شاهد عيان للاحتكاك أن يسرد منشأه. فروى المسألة كما حدثت محافظا على الصدق بقدر الإمكان، من غير مساس بروميو، ومخففا الدور الذي قام به صديقاه في النزاع. ومعنى ذلك أن تيبالت ابن اخ الشيخ كابوليت هو المعتدي.

ولما سمعت السيدة كابوليت هذا الكلام، وكانت في أشد حالات الحزن على فقد قريبها، صرخت في وجه الأمير تطلب منه معاقبة قاتل تيبالت بكل شدة، ولا يكترث لأقوال بنفوليو، لأنه من عشيرة مونتاجيو وصديق لروميو القاتل. ولهذا فهو متحيز.

فكانت المسكينة بذلك تطلب هلاك زوج ابنتها، وهي لم تعلم بعد أنه زوج ابنتها جولييت منذ ساعات.

وفي الفريق الآخر انبرت السيدة مونتاجيو تدافع عن حياة ابنها روميو. وتحتج ببعض الحق لأن روميو لم يفعل ما يستحق عليه العقاب حين قتل تيبالت. فإن حياة تيبالت كانت مهددة قبل أن يقتله بموجب القانون، ما دام تيبالت قتل مركوتيو.

ولم يتأثر الأمير بالحجج العاطفية التي أدلت بها السيدتان. بل فحص الوقائع فحصا دقيقا، ثم أصدر حكمه. وبمقتضى هذا الحكم قضى على روميو بالنفي من مدينة فيرونا.

* * *

لم يقع أمر النفي وقع الصاعقة على أحد كما وقع على الحسناء الصغيرة جولييت. التي لم يمر على عرسها سوى ساعات قلائل. وإذا بها بعد ذلك الحكم وقد طلقت طلاقا أبديا، أو ما هو في حكم الطلاق من الانفصال والفراق !

ومما يجدر بالتسجيل تلك الانفعالات المتناقضة التي تعاقبت على الحسناء الصغيرة بعد أن سمعت النبأ. فقد ثارت على روميو ثورة شديدة لأنه قتل ابن عمها العزيز. راحت تصفه بالطاغية الجميل والشيطان الملائكي واليمامة المفترسة والحمل الذي له فطرة الذئاب، وقلب الثعبان الكامن وراء وجه في ندرة الأزهار، وما أشبه ذلك من النعوت المتناقضة التي تفضح الصراع القائم في نفسها بين حبها له وحقدها عليه.

ولكن تلك المعركة الداخلية لم تلبث أن انجلت إلى قرار مكين. فإذا للحب الكلمة العليا. وإذا بالدموع التي ذرفتها حزنا على قتل روميو لابن عمها، وقد انقلبت دموع فرح وسرور لأن زوجها الحبيب نجا وعاش وأفلت من الموت الذي كان يمكن أن يذيقه إياه ابن عمها تيبالت !

كان من شأن الاحتكام إلى السيف بينهما أن يذهب أحدهما فداء لحياة الآخر. وأنها اليوم لتفيض بالفرح الجنوني لأن الذي ذهب هو ابن العم. مفتديا حياة الزوج الغالي !

ثم عادت دموع الحزن من جديد. ولكنها كانت كلها حزنا على روميو. فإن وقع كلمة " روميو نفي من فيرونا " كان أشد على قلبها من نعي مائة تيبالت مهما كان عزيزا وابن عم !

أما روميو فإنه لم يحضر شيئا من التحقيق الذي أجراه الأمير. فإنه ما إن اخترق بسيفه جسد تيبالت فصرعه وهو في ثورة غضبه لمقتل صديقه مركوتيو، حتى أسرع بالفرار واختبأ في صومعة الأب لورنس، وفي هذه الصومعة أتاه نبأ الحكم الذي أصدره الأمير بنفيه إلى الأبد من فيرونا. فبدا له هذا الحكم أقسى ألف مرة من الإعدام. فهذا العاشق كان لا يبدو له أن هناك شيئا اسمه العالم أو الدنيا أو الحياة خارج أسوار فيرونا التي تضم حبيبته جولييت. وكيف يمكن أن

تكون حياة بعيدة عن أنظارها؟

إن السماء سماء فقط حيثما تظلل جولييت. أما فيما وراء ذلك الموضع بالجنة تنقلب عذابا وجحيما !

وحاول الراهب الفاضل أن يعزي ذلك الشاب المفجوع بالفلسفة ومسكناتها. ولكن هذا الشاب لم يعره سمعه بل راح كالمجنون يقطع شعر رأسه، ويرمي نفسه على الأرض ويتمرغ فيها، مصرحا أنه يريد أن يعرف كما من الأرض يستغرق لحده !

وأفاق روميو من هذه الحالة المنكرة على رسالة تأتيه من زوجته المحبوبة، فانتعشت آماله قليلا. وسكنت نفسه بعض الشئ. وانتهز الراهب الوقور تلك الفرصة ليبين له ما في مظاهر ضعفه من رخاوة لا تليق بالرجل:

– لقد قتلت تيبالت. ولكن هل أنت مصر أيضا أن تقتل نفسك، وتقتل زوجتك، تلك التي لا تعيش الآن إلا بحياتك؟ إن صورة الإنسان النبيلة ليست إلا قالبا من الشمع إذا افتقرت إلى ما يبقى عليها قوامها الصلد انصهرت وراحت هباء. إن القانون كان رحيما بك أيها الشاب. فبدلا من الحكم عليك بالإعدام كما استوجبت على نفسك بالقتل، أمر الحاكم بنفيك. فكيف لا ترى في ذلك طالع سعد؟ ثم انظر ! إنك قتلت تيبالت. ألا تفكر قليلا أنه كان من الممكن أن يكون تيبالت هو الذي قتلك؟ هذه سعادة أخرى أنك لست المقتول ! ثم ألا تفكر أن جولييت على قيد الحياة. وأن آمالك قد تحققت تحققا جاوز أحلامك إذ أصبحت بشريعة السماء زوجتك. وكان هذا على الأرجح مستحيلا وهي ابنة أبيها. وهذا وحده ينبغي أن يكفي التفكير فيه كي تمتلأ نفسك بالسعادة وتفيض بالحمد والامتنان !

وأثر هذا الكلام في نفس روميو تأثيرا قويا، ولاسيما عندما أنذره الراهب أن من يجحد النعمة كما يجحدها يموتون تعساء، لأن السماء تسلبهم النعم التي لم يعرفوا قدرها.

ولما رآه الراهب هدأ قليلا وبدأ يعقل ما يقال له نصحه أن يتسلل في تلك الليلة خلسة ليودع جولييت، ثم يرحل على الفور إلى مانتوا، فيقيم هناك إلى أن يجد الراهب فرصة لإعلان زواجهما، عسى أن تكون تلك مناسبة فريدة للصلح بين العشيرتين. ويكون هذا الصلح سببا في رفق الأمير به وعفوه عنه، فيعود إلى فيرونا وهو يشعر بفرح يربو عشرين ضعفا على أحزانه وهو يفارقها.

واقتنع روميو بوجاهة نصائح الراهب. واستأذن منه ليذهب إلى زوجته، وفي نيته أن يقضي تلك الليلة عندها، وعند بزوغ النهار ينطلق بمفرده إلى مانتوا. حيث وعده الراهب الصالح بإرسال الخطابات إليه بين حين وحين ليعرفه بأحوال الوطن.

وقضى روميو تلك الليلة مع زوجته الحبيبة، متسللا خلسة إلى مخدعها من البستان عينه الذي سمع فيه اعترافها البليغ بحبه في الليلة السابقة.

كانت تلك الليلة السابقة ليلة ابتهاج ونشوة لا يخالطها أسى. أما لذات هذه الليلة والابتهاج الذي غمر الحبيبين باجتماع شملهما، فكانت تخالطها شوائب المرارة والحسرة على الفراق الذي يزمع أن يحين أوانه مع طلوع الشمس، والأسى على المغامرات التعسة التي اكتنفت سحابة ذلك النهار.

ولم يحدث أن كان طلوع النهار بغيضا إلى حد كما كان طلوع شمس ذلك اليوم إلى قلب جولييت. لقد استعجل هذا النهار خطاه فجاء قبل أوانه. أو هكذا خيل إليها !

وعندما سمعت جولييت غناء القبرة مؤذنا بطلعة الصباح، حاولت أن تخدع نفسها وتخدع روميو بأن هذا هو غناء البلبل الذي يشدو حين ينتصف الليل. ولكن هذا الوهم لم يلبث أن تبدد ولم تستطع خداع أذنيها بأمنية قلبها. فالذي كان يغني لم يكن البلبل طائر الليل، بل القبرة داعية الصباح.

ولم يكن شدو القبرة يوما حزين النغمات واجم الوقع كما كان غناء القبرة في ذلك اليوم في سمع جولييت. وشعاع الشمس الذي يحمل الحبور ويحمل النور ويحمل الحياة، بدا لعينيها الدامعتين جلبابا من السواد تتسربل به الدنيا لا تدري إلى أي حين من الدهر، طالما روميو محجوبا عن ناظريها.

فلم تستطع المكابرة بعد. فودع روميو زوجته العزيزة بعد ليلة عرسهما المبتسر بقلب أثقله الهم. ووعدها أن يكتب اليها من مانتوا الرسائل في كل ساعة من ساعات النهار.

ولما تسلق الشرفة وهبط إلى البستان ووقف يتطلع إليها من أسفل، بدا لعينيها الحزينتين كما يبدو الميت في قاع القبر، ولم يكن روميو أسعد منها حالا ولا أهدأ بالا. ولكن كان عليه أن يسرع بالرحيل. لأن ضبطه داخل أسوار فيرونا بعد طلوع النهار معناه الموت المحتوم.

* * *

كانت هذه الليلة الفريدة في حياة الحبيبين آخر ما سمحت الأقدار لهما به من حظوظ السعادة. لأنها تنكرت لهما بعدها، وكأنها في كل ما ستجره عليهما من الكوارث تقتضيهما ثمن تلك السعادة التي استكثرتها على مخلوقين من البشر ليلة واحدة من عمر الزمان !

فبعد رحيل روميو من فيرونا بأيام قلائل، إذا بالشيخ كابوليت والد جولييت

يعلن أنه اختار لها زوجا من بين خطابها الكثيرين. وهو لا يدري أن ابنته تزوجت سرا، كان العريس الذي اختاره كابوليت لابنته هو الكونت باريس. الشاب الوسيم المهذب الشجاع النبيل. وكان في الواقع جديرا بالحسناء جولييت وبحبها لو لم يكن قلبها قد تعلق بروميو.

ولما أفضى كابوليت إلى ابنته بقراره أخذتها الحيرة والارتباك. وتعللت لأبيها أن سنها الصغير لا تناسب حياة الزوجية. وأن دم تيبالت ابن عمها الذي لم يجف أشاع الوجوم والكآبة في نفسها فلا تستطيع أن تلقي ذلك العريس بوجه باش. وأنه لا يليق بأسرة كابوليت أن تقيم معالم الأفراح مع أن معالم المأتم في تلك الأسرة لم تكد تنقضي.

تذرعت جولييت بكل حيلة وعذر إلا العذر الحقيقي وهو أنها لا تستطيع أن تتزوج إذ هي بالفعل زوجة !

وأعار والدها أذنا صماء لكل هذه المعاذير. وأمرها بلهجته الحاسمة أن تستعد للزواج من الكونت باريس يوم الخميس التالي. فبعد أن حصل لها على زوج شاب غني شريف النسب وجيه المكانة تزهو أية عذراء في فيرونا ويطير قلبها فرحا به، لا يطيق من ابنته هذا التمنع والتدلل. والشيخ المسكين لم يخطر بباله أن رفض جولييت لمثل هذا العريس لا يمكن أن يصدر إلا عن الدلال الأنثوي الفارغ.

* * *

ولم تجد جولييت المسكينة مفزعا في حيرتها إلا صديقها الراهب الذي كان مستشارها في جميع الأزمات، فأفضت إليه بالمشكلة الهائلة

وهدأ الراهب من روعها ثم سألها:

– هل أنت مستعدة أن تلجأي إلى عمل اليائس ولو خاطرت بحياتك؟

فأكدت له أنها تفضل أن تنزل قبرها حية على أن تتزوج باريس، وزوجها الحبيب على قيد الحياة، فأمرها الراهب أن تعود فورا إلى البيت وتتصنع السرور والفرح، وتعلن رضاها بالزواج من باريس حسب مشيئة والدها. وفي الليلة التالية وهي الليلة السابقة للزواج المنتظر، عليها أن تشرب قنينة أعطاها لها

وكان من شأن هذه القنينة أن تبدو كالميتة تماما لمدة أربع وعشرين ساعة. باردة الجثة. فلما يأتي العريس في الصباح لأخذها، سيجدها كالميتة. وعندئذ يدفنونها في كهف الأسرة على عادة ذلك الزمان في فيرونا داخل تابوت مكشوف الغطاء.

ووعدها الراهب أنها بعد انقضاء الساعات الأربع والعشرين ستفيق ولا تشعر بما حدث لها إلا كالحلم. أما هو فسيكون قبل انتهاء المدة قد نجح في إحضار زوجها تحت جنح الظلام إلى المدينة، فيحملها معه ويكر هاربا بها إلى مانتوا.

وفعل الحب العميق فعله، وكذلك نفورها من الزواج بباريس. فوجدت جولييت الشجاعة والقوة للإقدام على هذه المجازفة فأخذت القنينة من الراهب ووعدته أن تنفذ إرشاداته حرفيا.

وعند رجوع جولييت من الدير إلى الدار لقيت هناك كونت باريس الشاب. فأعربت له عن رضاها بالزواج منه. فسر ذلك كثيرا والدها ووالدتها. وشعر الشيخ كأنه ارتد إلى الشباب، وانفتح قلبه لابنته التي كان مستاء لنفورها من ذلك العريس قبل ذلك.

ونشطت الحركة في البيت الكبير استعدادا للعرس الذي اقترب موعده. وأمر

والدها ألا تدخر الأموال لإعداد وليمة فخمة في يوم القران لم تشهد لها فيرونا مثيلا من قبل، وعندما حل مساء يوم الأربعاء بعد انقضاء نهاره. أوت جولييت إلى مخدعها وتجرعت السائل الذي في القارورة.

وبعد أن تجرعته أخذت الخواطر تدور في رأسها مسرعة. فتوجست من أن يكون الراهب قد خشي من وقوع اللوم عليه إذا ما عرف والدها أنه هو الذي زوجها سرا من روميو، فأعطاها سما حقيقيا ليخفي جريمته

ثم راجعت نفسها. إن ذلك الشيخ كانت تعهده دواما من أنبل الناس وأكثرهم صلاحا وتقوى. ولكن خطر لها هاجس جديد. فخشيت أن تفيق قبل وصول روميو إلى المقابر لأخذها، فتجد نفسها وحيدة في كهف الأسرة بين عظام أجدادها المتناثرة من آل كابوليت. وستجد هناك أيضا جسد تيبالت الذي لم يجف دمه راقدا في تابوته يحملق فيها !

وطافت بذهنها جميع أقاصيص العفاريت والأشباح التي سمعتها في طفولتها فتملكها الرعب. بيد أن حبها العظيم لروميو ونفورها الشديد من باريس تكفلا بالقضاء على هذه المشاق كلها حتى هانت في نظرها

ولما حضر العريش الشاب في الصباح الباكر يحف به الموسيقيون في موكب من الطرب ليعزفوا تحت نافذة عروسه ويوقظوها على أنغامهم الشجية، لم يجد في الحجرة عروسا ناضرة بل جثة لا حياة فيها، فشعر كأن آماله ماتت في صدره !

وساد الهرج والمرج والأسى في الدار. فباريس المسكين يندب حظه وعروسه الحسناء التي طلقها الموت منه قبل أن تلتقي يده بيدها في عقدة القران، ولكن الموجع حقا كان نحيب الشيخ كابوليت والدها المنكود والسيدة كابوليت أمها الثكلى. فقد كانت هذه الزهرة ذات الأربعة عشر ربيعا هي نسلهما الوحيد وفيها

كل أملهما في الدنيا، وفي شيخوخة قريرة العين. لهذا استعجلا زواجها ليستعيضا بالأحفاد من أحشائها عن قلة نسلهما

وانقلبت كل استعدادات العرس وولائمه إلى وليمة مأتم. وبدلا من أنغام الموسيقى الطروب ارتفعت ولولة النواح، ورنت نواقيس الحزن متقطعة متباعدة. والأزهار التي جئ بها لزينة العروس ولتلقي تحت قدميها في طريقها إلى الهيكل، غطوا بها جثمانها ليزفوه إلى القبر. والكاهن الذي كان سيعقد قرانها جئ به ولكن ليتلو عليها صلاة الجنازة ويهيل عليها حفنة من التراب.

وإلى الكنيسة حملوها حقا. ولكن ليس بين أهازيج السرور وآمال الحياة والنماء والخصوبة والرفاء، بل بين الدمع الغزير والنظرات الحسيرة والقلب الصديع والآمال المحطمة !

* * *

وأنباء السوء ما أسرع ما تسري مستعيرة من القضاء المحتوم جناحان فتسبق على الدوام أنباء السرور والحبور، ولهذا وصل نعي جولييت إلى زوجها المنفي في مانتوا قبل أن يصله رسول القسيس لورنس بتفاصيل الحيلة التي دبرها مع حبيبته لإتمام سعادته. وأن زيارة هذه الحسناء للقبر لن تكون إلا لأمد قصير جدا، ريثما يأتي روميو ويأخذها من قصر الموت إلى بيت الزوجية.

وكان روميو قد رأى في المنام قبل ذلك بمدة قليلة حلما غريبا، مؤداه أنه مات. وأن زوجته جاءت فوجدته ميتا. فانكفأت عليه تقبله بحرارة بعثت في جثته حرارة الحياة فدبت في أوصاله، وأفاق من غشية الموت ليجد شفتيها على شفتيه تمنحه من أنفاسها أنفاسا، وأنه صار بعدها امبراطورا !

فلما قيل له أن رسولا جاءه على عجل من فيرونا، توقع أن يحمل إليه أنباء

سعيدة لأنه كان متفائلا بذلك الحلم الغريب. فإذا بالرسول ينعي إليه كل الذي من أجله يتعلق بالحياة ويحرص عليها. وإذا زوجته هي التي ماتت، ولكنه لن يردها إلى الحياة بالقبل ولن يستطيع !

وعلى الفور أمر باعداد الخيل، لأنه عزم أن يزور تلك الليلة فيرونا، ليرى زوجته وهي راقدة في مثواها الأخير، وقبل سفره من مانتوا تذكر وهو يتخبط بين أمواج اليأس عطارا كالح الوجه فقير الحال كاسد البضاعة كان يمر به فيخطر له أن من أراد سما في مانتوا التي تعاقب على بيع السم بالإعدام، سيجده عند هذا الرجل وسيرضى أن يبيعه اياه لشدة حاجته وفقره.

وتوجه روميو إلى ذلك العطار، فأغراه بقبضة من الذهب لم يستطع المسكين مقاومة بريقها، فباعه سما أكد له أنه كاف لقتل عشرين رجلا في التو واللحظة.

وحمل روميو ذلك السم معه إلى فيرونا. ليلقي نظرة على زوجته الحبيبة في قبرها. وفي نيته بعد أن يملأ عينيه منها أن يتجرع السم ويرقد الرقدة الأبدية إلى جوارها فيجمعهما الموت إذ فرقتهما الحياة، ولا يستطيعون بعد ذلك فصم رباطهما.

ووصل روميو إلى فيرونا عند انتصاف الليل. فتوجه إلى فناء الكنيسة الذي في وسطه تقع المقبرة العتيقة لآل كابوليت. وكان قد جاء معه بفانوس ومجراف ومعول ورافعة. وبدأ في تحطيم الباب الصخري بكل حماسة وغضب كأنه يقتحم الباب على أقوى سلطان في الوجود، سلطان الموت !

وقطع عليه ذلك العمل الرهيب صوت أجش:

– ويلك أيها المونتاجي الحقير ! ارفع يدك عن هذا العمل البشع ! لا تنبش قبور الموتى !

وكان هذا الصائح هو الكونت باريس الذي جاء إلى قبر جولييت في هذه الساعة من الليل مدفوعا بشجنه وأساه لينثر عليه الزهور، تحية وحنينا إلى تلك التي كانت من المفروض في تلك الساعة أن تكون بين أحضانه في ليلة الزفاف. وكان بطبيعة الحال يجهل الرابطة التي تربط روميو بالميتة الحسناء.

كل الذي كان يعلمه الكونت أن روميو في الذؤابة من آل مونتاجيو، فخطر له أن ذلك العدو اللدود لآل كابوليت إنما جاء تحت ستار الظلام ليشفي حقدا وضيعا بانتهاك حرمة القبر والاعتداء على جثث موتى آل كابوليت.

وكان هذا هو السبب في أنه انتهزه ونهاه عن الاسترسال في ذلك العمل الذي عقابه في فيرونا الاعدام. ولاسيما وهذا المجرم محكوم عليه بالنفي فلو ضبط داخل أسوار فيرونا لحق عليه القتل.

ولم يأبه روميو لتحذير باريس بل أمره أن يتركه وشأه وأنذره أن يلقي مصير تيبالت الذي يرقد دفينا وراء باب ذلك القبر. فخير له ألا يستثير غضبه فيلقي على رأسه باثم جديد لأنه سيضطر إلى قتله اضطرارا !

ولم يتراجع الكونت أمام وعيد روميو، وأخذ بتلابيبه ليسلمه للأمير، فقاومه روميو، وتقاتلا إلى أن خر باريس صريعا.

حدث ذلك في الظلام. فلما رفع روميو المصباح ليرى وجه الذي قتله إذا به باريس، الذي يعلم أنه كان مرشحا للزواج من جولييت. فأدرك مدى الحزن الذي أصيب به الكونت لوفاة جولييت. وأخذ يد القتيل في يده كأنما وحدت الكارثة بينهما. وأعد جثته بأكرم مثوى لم يظفر بمثله قيصر ! وهو يعني الدفن في مقبرة جولييت التي فتحها بعد جهد عنيف.

واقتحم روميو القبر ليجد زوجته راقدة هناك. وقد عجز الموت بكل قدرته

أن يغير شيئا من ملامح وجهها وجمالها البارع ونضرتها الفائقة. فخيل للعاشق المفجوع أن الموت أيضا متيم بها. وأن هذاالوحش الرهيب لم يستأثر بها إلا ليحتفظ بها هنا في قصره المعتم لتكون بهجة لقلبه وسرورا لعينيه ! فهي راقدة وهناك في نضرة الورد، وكأنها وسنانة تنتظر أنوار الفجر لتهب من رقادها.

وعن كثب منها رأى تيبالت في كفنه الدامي. فتوجه إليه روميو مستغفرا تائبا. ومن أجل خاطر جولييت راح يناديه ابن العم. وأنه سينتقم له بقتل عدوه وقاتله ! وهو يعني بذلك ما أزمعه من الانتحار في ذلك المكان.

وودع روميو بعد ذلك حبيبته، وأخذ يقبل شفتيها. ثم تجرع السم الذي اشتراه من مانتوا. وكان سما فاتكا زعافا لا سما وهميا كالذي تجرعته جولييت. ذلك السم الذي قاربت مدته أن تنتهي وأوشكت جولييت أن تتحرر من تأثيره.

وكان الراهب قد علم من رسوله الذي رجع من مانتوا كيف أن روميو سمع النهي أولا فغادر مانتوا على عجل إلى فيرونا وهو يجهل الحقيقة.

وأسرع الراهب ليقوم بنفسه بتخليص جولييت من القبر، وأخذ معه فأسا ومصباحا. فإذا به يفاجأ بالضوء ينبعث من داخل المقبرة. ويجد عند عتبتها دما لزجا وسيفين. ثم تبين روميو وباريس جثتين هامدتين داخل القبر.

* * *

وقبل أن يتبين الراهب وجه الحقيقة فيا حدث، إذا بجولييت وقد أفاقت من غشيتها. فلما رأت الراهب بالقرب منها، تذكرت أين هي؟ والمناسبة التي دعت إلى وجودها هناك. وبادرت تسأله عن روميو. ولكن الراهب سمع صوتا جعله يرتاب، فطلب منها أن تعجل بالخروج معه من ساحة الموت هذه. لأن قوة أعظم بكثير من طاقة البشر قد رسمت حدود مصيرها

ولما وجد الراهب أن أصوات الناس والضجة أخذت تقترب تركها ولاذ بالفرار. فنظرت جولييت حولها ورأت القارورة في كف حبيبها فأدركت أنه انتحر بالسم. فأخذت تعتصرها عسى أن تجد فيها بقية تلحقها به. ثم أخذت تقبل شفتيه الدافئتين عسى أن تلعق بقية السم العالق بهما !

واقتربت الضجة واقترب الناس فخشيت أن تفلت الفرصة وأستلت خنجرا ماضيا كانت تحتفظ به بين طيات ثيابها. فأغمدته بسرعة في صدرها وخرت صريعة بين ذراعي حبيبها روميو.

وكانت نوبة الحرس قد وصلت إلى ذلك الموضع في طوافها الليلي، وفي صحبتها وصيف من أتباع الكونت باريس لمح بداية المبارزة بينه وبين روميو وهو يحمل لمولاه الأزهار فخاف على حياته وأسرع هاربا ليدعو الحراس الطوافين.

وتجمع الناس على صرخات الغلام واخترقوا شوارع فيرونا من كل صوب متجهين إلى المقبرة وهم يرددون مختلف الأقاويل عما يجري من الأمور الغريبة هناك.

وبلغت الضجة مسامع الشيخ مونتاجيو والشيخ كابوليت فغادرا فراشيهما، كما غادره الأمير ليتحروا مع سائر الناس حقيقة الأمر وما وراء تلك الضجة الصاخبة في الليل الساجي.

ووقع الحراس وهم في الطريق على الراهب المسكين مقبلا من جهة المقابر وهو يرتعد ويتنهد وينتحب بصورة مريبة. وهكذا وصل جمع حاشد إلى مقبرة آل كابوليت، وطلب الأمير من الراهب أن يدلي بما يعرفه من وقائع تلك الحوادث الفظيعة.

وهناك، بحضور زعيمي عشيرتي مونتاجيو وكابوليت سرد بكل أمانة تفاصيل

قصة غرام هذين الشابين الشهيدين. واعترف بالدور الذي قام به إذ عقد زواجهما سرا على أمل أن يؤدي هذا القران إلى وضع حد للخلافات المتأججة وبين العشيرتين من قديم الزمن. وذكر أيضا كيف أن روميو المنتحر ها هنا هو الزوج الشرعي لجولييت الوفية التي أبى عليها حبها أن تعيش بعد زوجها.

ثم روى أيضا كيف أنه كان يتسقط فرصة لإعلان هذا الزواج بعد نفي روميو. لولا أن القدر تدخل في صورة هذا الخاطب المناسب لجولييت. وأبى والدها إلا أن يعجل بزواجها منه. فإذا به (أي الراهب) أما مشكلة خطيرة. إذ يجب أن يحول بأي ثمن دون وقوع ما يعلم بقينا أنه اثم وجريمة، وهو إعادة تزويج امرأة وزوجها على قيد الحياة.

واعترف أنه لم يجد وسيلة إلا تلك الحيلة يعرضها على جولييت. لتتخلص بهذا الموت الوهمي من زواج هو شر من الموت الحقيقي. ثم أرسل إلى روميو يخبره بالمؤامرة. فتأخر رسوله في الطريق وسبقه إلى أذني روميو نبأ النعي المكذوب.

وإلى هنا انتهت معلومات الراهب التي يعرفها على وجه اليقين، فلا يدري بعد ذلك شيئا أكثر من حضوره بنفسه لتخليص جولييت من القبر، وإذا به يجد هناك باريس مقتولا مدرجا بدمه، وروميو صريعا بجانب لحد زوجته وفي يده قارورة سم

وأكمل وصيف الكونت باريس طرفا من القصة بما شاهده من المبارزة بين مولاه وروميو. كما أدلى الخادم الذي جاء مع روميو من مانتوا بالطرف الباقي من الرواية. إذ أن روميو أعطى هذا الخادم رسائل ليسلمها إلى والده في حالة وفاته. وفي هذه الرسائل جاء تأييد كامل لأقوال الراهب واعتراف بكل ما حدث. واستغفار من والديه لاقدامه على الزواج سرا. كما اعترف بشراء السم من عطار مانتوا وفي نيته أن ينتحر به داخل مقبرة جولييت ليلازمها ملازمة أبدية.

واتفقت كل هذه القرائن والأدلة على تبرئة ساحة الراهب المسكين من أية جريمة تلوث الضمير. لأن نيته كانت حسنة ولا شك حين أعطى ذلك المخدر لجولييت. والقدر هو الذي تدخل ليرسم للقصة نهاية أخرى على مشيئته.

والتفت الأمير بعد ذلك إلى الشيخين عميدي عشيرتي مانتوجيو وكابوليت، فوبخهما على عداوتهما الحمقاء وضغنهما الوحشي. وأشار بيده إلى جرائر ذلك الحقد. وكيف أن السماء عاقبتهما ذلك العقاب الصارم جزاء عادلا على غلظة أكبادهما. فحتى عاطفة الحب بين ولديهما قد حولتها بغضاؤهما الموروثة إلى دم وموت ورماد.

وإزاء ذلك الموقف الرهيب اتفق الشيخان على تناسي أحقادهما، وتعاقدا على القبر المشترك الذي ضم ولديهما أن يكونا منذ اليوم أخوين في الحياة كما آخى الموت بين قلبيهما بالرزء والبلاء.

وأعلن الشيخ كابوليت والد جولييت وهو يصافح يد الشيخ مونتاجيو والد روميو:

– إنني ما كنت لأتمنى لابنتي يدا خيرا من يدك أيها النبيل مونتاجيو، فأعطني هذه اليد عزاء عن فقدها

فقال الشيخ مونتاجيو والد روميو:

– بل وسأعطيك شيئا أكثر من هذه اليد في ابنتك الحسناء الوفية. سأقيم لها في فيرونا تمثالا من الذهب الخالص، كي يبقى اسمها ما بقي اسم فيرونا، لا يعلو على ذكرها العاطر ذكر، ولا يضرب مثل للوفاء والإخلاص وصدق القلب والسريرة كما يضرب بالوفية الصادقة جولييت.

– وأنا يا سيدي سأقيم من مالي تمثالا كهذا التمثال لابنك روميو. ليبقى على

الدهر عنوانا على الحب الذي قاوم الموت وعاش من بعده هازئا بسلطانه.

ووفى الوالدان الثاكلان بعهدهما. وأخذا يتباريان في تبادل المجاملات وآيات التلطف والمودة بعد فوات الألوان. ولكن روحي العاشقين الشهيدين كانت هي الثمن الذي دفعه الحب ليقضي به على سلطان البغضاء والعداوة في تلك القلوب الجاهلة.

الفهرس

الجزء الثاني